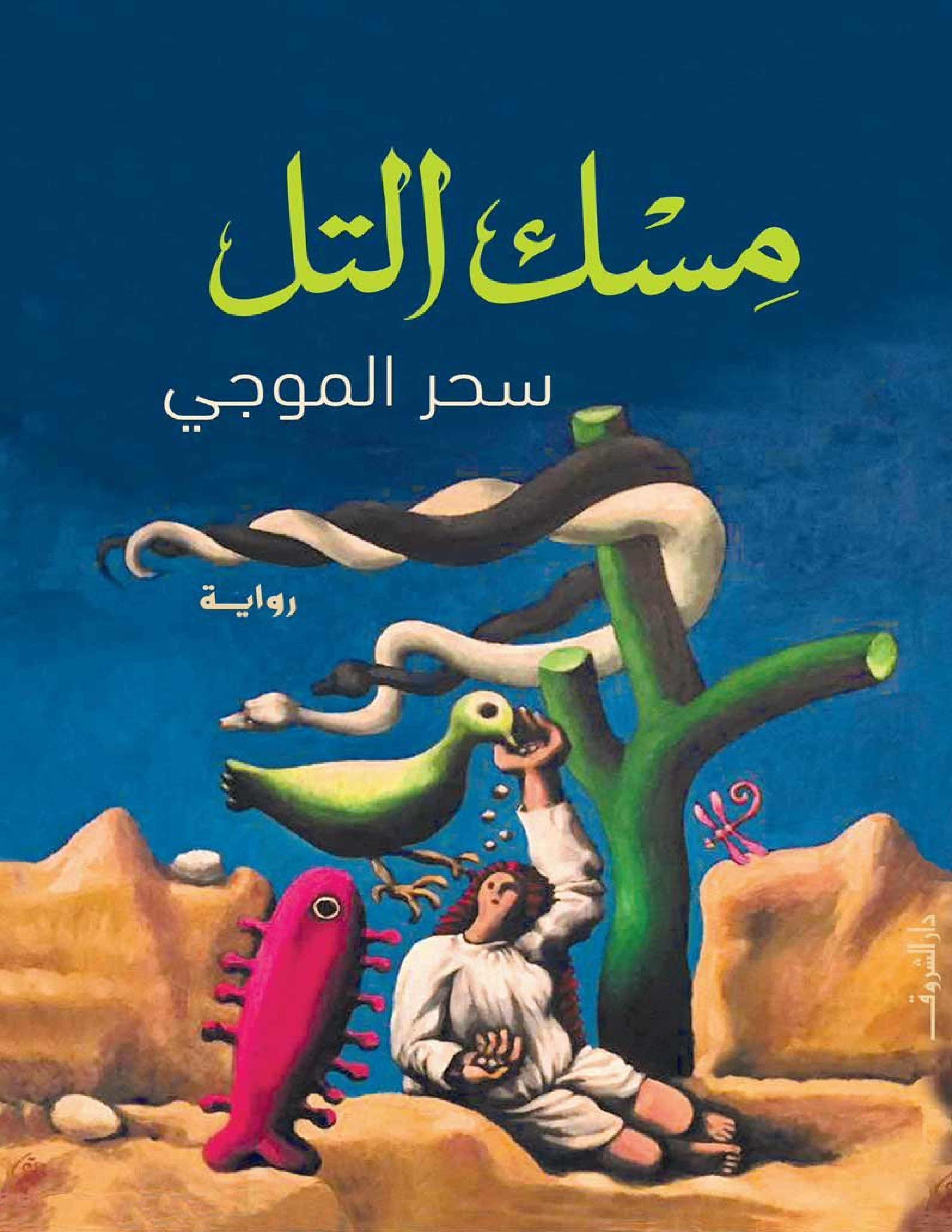

مِسْكُ التل
سحر الموجي
رواية
دار الشروق

مِسك التّل

سحر الموجي

الطبعـة الأولى ٢٠١٧

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

٧ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com
رقـم الإيـداع ٢٠١٧
ISBN 9789770934272

سحـــــر الـموجــــــي

مِسك التَّل

دارالشروقــــ

١

لم يكن ليتصور أحدٌ أن اليوم الذي بدأ لطيفا وطيبا سينتهي بشيء أشبه بالكابوس. في الصباح سطعت شمس مبهجة معلنة نهاية شتاء طويل قضته نساء البيت بجانب المدفأة يتناولن أكواب الشيكولاتة والقرفة الساخنة ويتبادلن أحاديث قصيرة مبتورة يهيمن عليها سأم البرد ولياليه الطويلة. أما في هذا الصباح فقد علت في المطبخ أصوات كلام وضحكات، وامتلأت سلة الطعام بما يكفي لقضاء يوم عند البحيرة. تحركت القبيلة الصغيرة والشمس تبارك خطواتها وتصحبها أسفل التلال وحتى الغابة.

جلست أمينة في موقعها المعتاد تحت شجرة أم الشعور واستغرقت في القراءة. لم تنتبه للوقت، لم تعرف إن كانت ساعات قد مرت أم دقائق مع اعتيادها على رحرحة الوقت في تلك البقعة المعزولة. لم تنتبه إلا مع قرصة الجوع في بطنها. رفعت رأسها عن الكتاب فأدركت خلو الشاطئ إلا منها، وهو شيء عادي، فما إن تصل النساء هنا حتى يتفرقن وتروح كل منهن لحال سبيلها، هناك من تذهب للسباحة ومن تُمضي الوقت مع كتاب مثل أمينة أو تهيم على وجهها في الغابة مثل كاثرين. فتحت أمينة سلة الطعام وأخرجت عنقود عنب ورغيف خبز محشوّا بالجبن القريش من صنع يديها. أكلت وركعت بالقرب من الماء، غسلت يديها وملأت كفيها وشربت، ثم عادت للكتاب.

«أمينة».

اقتربت منها ليلى وأخبرتها أن النساء قررن العودة إلى البيت الآن، فالسماء تلبدت ببعض الغيوم وربما تمطر. تلفتت أمينة حولها فرأت حصان كاثرين مربوطا في الشجرة جنب حصانها. قالت إنها ستنتظر عودة كاثرين ثم يلحقان بهن. عندما رحلت ليلى رفعت أمينة وجهها تبحث عن الشمس التي كانت منذ قليل تضوي فوق ماء البحيرة. امتلأت السماء بغيمات رمادية غامقة.

أين أنتِ يا كاتي؟

عادت إلى كتابها وهي تتغاضى عن وخزات القلق الخفيفة، لكن المطر لم يمهلها. حدث كل شيء بسرعة، كأن بطن السماء الكبير المنتفخ قد انشقَّ فجأة فانهمرت أمطار عنيفة لم تأخذ في اعتبارها وجود امرأتين وحدهما تماما في الغابة الكثيفة مترامية الأطراف. عتمت السماء قبل موعد قدوم الليل بساعات، لمعت بضربتين من البرق تلتهما قرقعة رعد مرعب، وضج المكان بقهقهات شيطانية لألف عفريت.

أغلقت أمينة الكتاب وخبأته في سلة الطعام خوفا عليه من ماء المطر، واتجهت إلى الحصانين وهي تتلفت حولها بحثا عن كاثرين. وكأن سيل المطر الثقيل لم يكن كفايه، بدأت السماء تهطل ندف ثلج علقت بفروع الأشجار وبذرات الهواء وتساقطت فوق سطح البحيرة الكبيرة. حدث كل شيء بسرعة، كأن الزمن قد أصابته

لوثة فانطلق يعدو فوق ساعاته كالمجنون. بدا صفير الرياح القوية كصرخات متقطعة تداخلت مع دقات المطر فوق أرض الغابة وفوق فروع الأشجار التي انحنت مع هبات الهواء البارد في اتجاه الجنوب ثم عادت لانتصابها. أما أشجار البلوط الضخمة العتيقة، فقد نظرت إلى الرياح بلا مبالاة تشوبها مسحة من سخرية.

عندما ظهرت كاثرين، كانت الرياح قد قويت واشتدت. جرت نحو حصانها تحل وثاقه وأمسكت باللجام وتحركت نحو حصان أمينة. ستكون حماقة بالطبع لو تساءلت كاثرين ـ الخبيرة في تقلبات الطبيعة ـ عن هجمة تلك العاصفة وهم في أول الربيع. لقد مرَّ عليها مثل هذا وأكثر فلم تعد تندهش. لكن هذه العاصفة كانت مخادعة دون شك. شقَّ نور البرق بطن السماء وتلاه صوت رعد زلزل أرض الغابة والتلال المحيطة بها. هزَّ حصان كاثرين رأسه بعنف والتمعت عيناه وصهل عاليا، ومع ضربة الرعد التالية وقبل أن تدرك كاثرين ما يحدث، انفلت اللجام من يدها وركض الحصان إلى قلب الغابة ولحق به حصان أمينة جَزِعا.

تسمرت كاثرين وأمينة في مكانيهما.

«براون.. برااااون!».

صرخت كاثرين تنادي الحصان، لكن صوتها ضاع في هبات الهواء. كان رأسها يغلي غضبا من الحصانين ومن غبائها الذي جعلها تفك وثاقيْهما بالتزامن مع صوت الرعد.

وقفتا للحظات تحت المطر. ربما كان لديهما أمل أن يعود أحد الحصانين، فواحد يكفي ليُقلَّهما إلى البيت. لكنها لم تكن إلا أمنية ساذجة. التصقت الملابس بهما بعد أن تشربت أطنانا من المياه، ثقلت وأخذت تقطر الفائض نحو الأرض، فلم يعد يبين في العتمة إلا ملامح الجسدين اللذين تحركا بصعوبة في الوحل الثقيل وبرك المياه. بدا جسد كاثرين صغيرا ضئيلا كأن الريح بإمكانها أن تكسره نصفين. أما أمينة فقد كانت أطول وأكبر حجما، إلا أنها عجوز كما تكشف خطواتها البطيئة.

بعد قليل كانت السماء قد أظلمت تماما، كأن الوقت منتصف الليل، لكن كاثرين تعرف يقينا أن الغروب لم يحن بعد. في الظلمة المطبقة تساءلت كاثرين إن كانت الليلة هي إحدى ليالي المحاق؛ فانقبض قلبها.

دقَّ قلب أمينة وهي تأخذ خطوات بطيئة حذرة ولسانها لا يتوقف عن التمتمة: سبحان من له الدوام! سبحان الله الواحد القهَّار!

أبطأت كاثرين من سرعتها كي تلحق بها أمينة بينما يشتد عويل الرياح ويستمر هطول المطر. من فوقهما شكلت الأشجار سقفا منع ضوء البرق من الوصول وسمح لقطع من الثلج أن تنقر رأسيْهما. قررت كاثرين أن تواصل السير في نفس الاتجاه، إن انحراف واحد صغير عن المسار قد يؤدي إلى فقدانهما الطريق.

الطريق!

لقد بدأت كاثرين تشك أنها تتبع اتجاه الشمال، لكنها أخفت قلقها.

في ثوانٍ كان الثلج قد افترش بقعا كبيرة هشة فوق الأرض؛ وهو ما جعل خطوات أمينة تبطئ أكثر، وكذلك كاثرين. لو أن كاثرين استطاعت أن تصل إلى أطراف الغابة، فستتمكن من رؤية السماء والتأكد من موقعهما، لكن الأشجار تحجب الرؤية!

دق قلب أمينة وترددت في صدرها آهات مكتومة. رشق الألم نفسه كالخناجر المجنونة في ساقيها وظهرها، ودفعت بها الرياح بعنف إلى الوراء. انهارت على الأرض. نزلت كاثرين بجانبها وقالت: «أمينة.. لازم نتحرك، لو وقفنا هنتجمد...!».

«ارجعي إنتِ يا كاتي. ارجعي هاتي حصان وتعالي لي».

كم أنتِ ساذجة يا أمينة، لن تتحملي ساعة في هذا الطقس! فكرت كاثرين، هل تعود مع أمينة إلى البحيرة، فهناك يقف الكشك الخشبي لمعدات الصيد والذي سيكون ملجأ وملاذا؟ لكن في الرجوع مخاطرة لا تقل جنونا عن التقدم إلى الأمام. رفعت رأسها. لو أنها فقط تستطيع رؤية السماء!

أمسكت كاثرين بذراع أمينة وساعدتها على الوقوف. زحفت الاثنتان ببطء سلحفاة ذات أربع أرجل، وكادت أمينة أن تنكفئ على وجهها لولا ذراع كاثرين. التقطت أمينة أنفاسها بصعوبة. هل هذه هي آخرتك يا أمينة؛ الموت في هذا الخلاء؟

أستغفر الله العظيم. أشهد أن لا إله إلا...

ليس لدى أمينة اعتراض على مشيئة الله، لو أن هذا هو موعدها وأجلها فليكن. لله الأمر من قبل ومن بعد. لكن ربنا لا يمكن أن يرضى أن تموت هنا بلا قبر. لا يمكن أبدا!

المشي فوق الثلج الذي افترش الأرض أصعب من المشي فوق زجاج مكسور، وسياط البرد تجلد أمينة. توقفت فالتفتت كاثرين إليها بإشفاق وتوسل. حركت أمينة شفتيها المزرقتين كي تخبر كاثرين أن تتركها وتمضي، لكن عويل الرياح أغرق صوتها. أمسكت كاثرين بذراعيها ونظرت إليها. لن أتركك هنا يا أمينة، ليس أمامك إلا أن تتحاملي على نفسك!

في رأس كاثرين كانت الشكوك تكبر وتتوحش، وفي صدرها تتجمع عاصفة من الغضب. كيف فقدتِ الطريق يا كاثرين؟ أين الخارطة التي تحفظينها في دماغك الغبي؟ كيف...؟

بعد خطوات، التصقتا بجذع إحدى أشجار البلوط، ففي ظهر الشجر البعيد عن مرمى الهواء كان بإمكانهما أن تلتقطا الأنفاس.

«إنتِ عارفه الطريق يا كاتي؟ أنا ما بقيتش شايفه إيدي في الضلمه دي!».

«طبعا...! إحنا بس نمشي.. نمشي..».

شعرت أمينة بالبرودة تتسلل من قدميْها إلى الساقيْن؛ فلم تعد متأكدة أنها تتحرك. بعد مسافة صغيرة رفضت ساقاها الاستجابة

لأي أوامر بالمُضي. همست أمينة: «امشي إنتِ يا كاتي. روَّحي.. روَّحي وارجعي خديني.. وادفنيني فوق جنب البيت، عشان الونس..!».

لم تسمع كاثرين شيئا من هذا، أمسكت بيد أمينة بقوة تعلن عزمها على استكمال السير. لأ يا أمينة. لن تموتي هنا. لن تموتي الآن. أتفهمين؟

لكن جسد أمينة كان يفقد الإحساس جزءا جزءا.

أصبح العالم كتلة من الضباب الكثيف أمام عينيها.

أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن....

تشوشت رؤيتها فأصبحت ترى كاثرين مثل ظل باهت وبعيد. جسدها يفقد الإحساس، صوت الرعد يبعد ويتلاشى، ورأسها.. يبدو أن رأسها يرقد على فخذ كاثرين. ما الذي جعل كاثرين تبقى معها؟ كم أنت عنيدة يا كاتي! عليها أن تستجمع قوتها كي تدفعها للقيام، لا بد أن ترحل كاثرين من هنا. لكن البرودة كانت قد ألجمت لسان أمينة وألقت على عينيها بحجر؛ فلم تستطع أن تبقيهما مفتوحتين.

صرخت كاثرين في وجه الرياح. كانت صرختها أقرب للعواء. أزاحت الثلج من فوق جسد أمينة المنكمش على نفسه، وشعرت بالبرودة تسري في جسدها أيضا وتنشب مخالبها في عظامها. حركت يديها في دوائر. لن تستسلم لعضة البرد. الدم. لا بد أن

تتدفق الدماء إلى أطرافها. شعرت كاثرين بجسدها يبرد، والدقيقة تمر كالساعات، فوقهما سقف الأشجار، حولهما الظلمة المطبقة، وكاثرين لم تتمكن بعد من رؤية السماء، لكنها كانت تعرف أن القمر في المحاق.

أيتها الحمقاء! كيف نسيتِ؟

أغمضت كاثرين عينيها فرأت صورا مبعثرة في دماغها، وجوها وأماكن وأصواتا، ثم بزغت في رأسها شمسٌ قوية جعلت الصور تتلاشى بهدوء. اختفى غضبها وشعرت بهدوء يحل عليها كأنه غيمة ناعمة. خفتت الأصوات وتباعدت قرقعات الرعد وتراجع الإحساس بالبرودة. لم يعد هناك إلا تلك الشمس الدافئة الجميلة.

حلوٌ الاستسلام.

جميلةٌ هي تلك اللحظة التي يفقد فيها العالم ملامحه، ويصبح كتلة هلامية طرية وشفافة.

حلوٌ الهدوء والشمس حلوة.

أحست كاثرين بالدفء يسري في عروقها، يملؤها بالنور. خفت صوت الرعد واختفت ملامح الأشجار وجسد الزمن. لم يعد في العالم إلا تلك الشمس الساطعة. شعرت كأنها تذوب في النور الذهبي.

كان رأس أمينة على فخذها لايزال، لكنها لم تعد تشعر بثقله، بينما صوت الرياح يبعد ويذوي حتى يصبح مجرد صدى صوت يأتي من

أبعد نقطة ثم يصمت تماما.

٢

تململت كاثرين في نومتها وأحست بالدفء. للحظات لم تعرف أين هي ولا تذكرت شيئا مما كان، كأن ثلوج الأمس قد جعلت من ذاكرتها صفحة بيضاء. لكن نبضات الألم في ظهرها ذكَّرتها بالعاصفة. بدا لها هذا اليوم الأسود كأنه حلم لم يستغرق إلا ثوانيَ ولم يترك خلفه إلا ومضات خاطفة. يبدو أن الرب قد كتب لها عمرا جديدا. كادت تضحك. أي ربٍّ أيتها الحمقاء!

عندما فتحت عينيها كان العالم بقعة ضوء كبيرة أغشتها فغطتهما بيديها. لم تعرف إن كان الشعور بالخدر الذي يغرقها هو بقايا النوم، أم هذا الدفء الذي يجعلها ترغب أن تتمطّى كقطة. سمعت طقطقة عظامها وصوت أنفاسها يخرج مصحوبا بآهات متقطعة. إنها لم تمت!

أمينة!

أين أمينة؟

من وراء كفيها فتحت كاثرين عينيها بحذر، رأت جسد أمينة كظلّ طويل باهت في الضوء. وقفت أمينة إلى يسارها ورفعت رأسها نحو نقطة لا تراها كاثرين. كلما اتضحت الرؤية عادت إلى وجه أمينة ملامحه. تبدو شاحبة ومنهكة وعيناها لا تتزحزحان من عند نفس البقعة. أدارت كاثرين رأسها إلى حيث تنظر أمينة. رأت برجا حجريّا نحيلا ومدببا كأنه أحد أبراج قلعة قديمة، وفوق

طرف البرج العلوي رأت هلالا.

مئذنةٌ في الغابة!

انتصبت المئذنة فوق جدران حجرية سميكة وعالية تخللتها نوافذ حديدية. في الأسفل انفتح باب خشبي مشغول بالنحاس على طرقة معتمة تدخل فيها الآن مجموعة من الناس.

تلفتت يمينا ويسارا. كان الشارع ضيقا طويلا ممتلئا بناس يروحون ويجيئون. كانوا كثرا، ربما أكثر عددا من أكبر مجموعة رأتها كاثرين في أي يوم من أيام حياتها. مرَّ أمامها فوج من النساء يحملن فوق رؤوسهن أواني كبيرة يتراص فوقها الليمون الأصفر في أهرامات صغيرة. نظرت إحداهن إليها بعينيها السوداوين المكحلتين وابتسمت وهي تمد الخطو لتلحق بالأخريات.

لا تزال أمينة واقفة تسند ظهرها إلى مبنى حجري نصف مستدير، وتبدو هائمة في عالم آخر.

«أمينة!».

أدركت كاثرين أن صوتها لم يخرج.

«يا أمينة!».

جاء الصوت هذه المرة خافتا كأنه آتٍ من حفرة عميقة.

انتبهت أمينة فأنزلت عينيها كأنها تفيق من حلم. نظرت إلى كاثرين باستغراب. لم تكن تدرك أن كاثرين معها! كاثرين معها في الحلم!

لا تتذكر أمينة ما حدث يوم الأمس بدقة، لكنها تعرف أن كاثرين

رفضت أن تتركها تموت في العاصفة.

حلم ولا عِلْم!

يا رب لو كان هذا حلما فلتتركني هنا لبعض الوقت.

قامت كاثرين واقتربت من أمينة ببطء. وقفت في مواجهتها وعيناها تنطقان بالأسئلة. وأمينة تفكر أنها لا تريد أن تُسأل عن أي شيء فهي لا تعرف رأسها من قدميها. كل ما تعرفه هو أنها لم تزرْ هذا المكان منذ زمن بعيد؛ منذ أن توقفت الأحلام عن زيارتها، لكنها تشعر الآن كأنها لم ترحل عنه قط. لا تزال تعرف كل ركن وكل ناصية كما تحفظ آية الكرسي عن ظهر قلب. لكن الشارع يبدو مختلفا!

كم تودُّ أمينة أن تمد يدها لتلمس حجارة هذه الحيطان الخشنة، أو إحدى الصواني النحاس في المحل الملاصق للسبيل، فقط لكي تتأكد...!

«أمينة!».

إن كاثرين تهمس باسمها وتنظر في عينيها كأنها تسألها.

نظرت أمينة إليها ولم تنطق.

لم تدرك الاثنتان أنهما كانتا مشهدا للرائح والغادي، امرأتان في لباسين غريبين تقفان في منتصف الشارع الضيق، كأنهما جزيرة صغيرة منفصلة عن أمواج البشر المتلاطمة من حولها، لا تتحدثان، ولا تتحركان، لا تفعلان أي شيء إلا النظر إلى بعضهما بعضا.

تحركت أمينة أخيرا فالتصقت كاثرين بها. مشت جانبها ببطء في الشارع الملتوي الذي اكتظَّ بمحال الذهب والفضة والنحاس.

أنا بحبه وأراعي ودُّه إن كان في قربه ولَّا في بعده

توقفت أمينة عن المشي وتتبعت صوت الأغنية الذي انبعث من قهوة في زقاق إلى يمينها.

وافضل أمنِّي الروح برضاه ألقاه جفاني وزاد حرماني

هو اللي حالي كده وياه كان افتكرني عشان ينساني.. آه عشان ينساني...

دقَّ قلب أمينة بعنف. لم يبدُ لها صوت عبد الوهاب قادما من حلم.

رفعت كاثرين وجهها إلى فوق. سطعت شمس قوية في قبة السماء وألقت بأشعتها فوق البيوت المتلاصقة ورؤوس البشر. شعرت بالدفء يسري في عروقها الزرقاء النحيلة التي تطل من وراء جلدها. لمَّا استأنفت أمينة المشي سارت بجانبها في صمت، يدها تمتد أحيانا لتمسك بطرف رداء أمينة أو تتعلق بذراعها. اختلطت صلصلة الأواني النحاسية وصوت الأغاني مع روائح بخور شرقية كثيفة، ربما كانت صندلا أو مسكًا. شعرت كاثرين أنها قد ركبت آلة الزمن التي حطت بها في إحدى حكايات ألف ليلة وليلة. هل تتلصص شهرزاد عليهما الآن من إحدى النوافذ الخشبية ذات الفتحات المنمنمة؟

ازدادت خطوات أمينة قوة وهي تتحرك يمينا ويسارا في الأزقة، تتوقف لحظة أمام يافطة زرقاء تحمل اسم الحارة ثم تكمل السير. أبطأت أمينة من خطواتها، توقفت وعيناها تدوران بين البيوت، تنهدت وعادت للمشي من جديد، وتبعتها كاثرين.

ثم اتسع العالم فجأة على ساحة عريضة يطل عليها مسجد كبير. تأملت كاثرين المارَّة الذين تحركوا فرادى وفي مجموعات صغيرة متلكئة، وفي ظل الأشجار الملاصقة لسور حديدي رأت مجموعة من الضباط ـ بكروش مختلفة الأحجام ـ يشربون شايا أحمر ويتسامرون. التقط أنفها رائحة الشواء التي انبعثت من صفِّ محال الطعام المتلاصقة وشعرت بالجوع يقرصها.

استرقت كاثرين النظر إلى أمينة وهي تسير بجانبها. كان وجهها محمرا لاهثا وفوق جبينها التمعت طبقة خفيفة من العرق. وأمينة أحست بنظرات كاثرين والكلام المكتوم في حلقها، لكن نظرها ظل مثبتا على باب المقام. في رأسها يحتدم حوار لا تتبين منه حرفا. كم تريد لو أخبرت كاثرين أن ما باليد حيلة فهي لا تدري من أمرها شيئا. ودت لو قالت لها إن هذا ليس إلا حلما يا كاثرين. نعم، هو مجرد حلم حدث أن أتى بنا إلى هنا، وعندما أصحو من النوم سنعرف أنه كان حلما.

وماذا لو لم يكن حلما يا أمينة؟

حلم أم عِلْم، بما أنها هنا فلتدخل الآن لتقرأ الفاتحة.

عبرت أمينة الساحة، تحركت بهدوء نحو الباب الجانبي للمسجد. كانت تسير ببطء كأنها في حلم وشفتاها لا تتوقفان عن التمتمة. عندما وصلت إلى الباب الخشبي الكبير، وقفت ورفعت عينيها نحو المئذنة. أغمضت عينيها وفتحتهما. أغمضتهما ثانية وعندما فتحتهما شعرت برعشة تسري من أسفل ظهرها حتى رأسها وغلالة دموع خفيفة تتجمع في عينيها.

٣

صحت مريم وهي تشعر بحرقان عينيها. لقد اقتحمت شمس مايو الغرفة وأصابتها بنوبة من الحساسية. لقد ظلت تقرأ حتى نامت فجأة ونسيت أن تغلق الشيش. ولم تكن الستارة البيضاء، أو التي كانت بيضاء في زمن غابر، لتحميها من الضوء الذي يصر على أن يزورها كل صباح بدأب ورذالة.

زفرت. إنها لا تريد أن تصحو الآن، فهي لم تذق النوم في الأيام الماضية إلا ساعات متفرقة، ونوم الأمس كان عميقا وخاليا من الكوابيس.

الكوابيس!

لا تعرف مريم إن كان الكابوس هو تلك الزيارات الليلية الثقيلة المتكررة التي جعلتها تكره النوم وتخافه، أم هو ساعات الصحو، ذلك اليوم الجديد الذي يفرض نفسه عليها بنفس دأب ورذالة شمس الصباح! كل الأيام تشبه بعضها، كلها تأتي وتذهب ومريم قابعة داخل فقاعة كبيرة بما يكفي أن تحتوي جسدها الضخم، ورمادية بما يكفي أن ترى العالم من وراء جدرانها مجرد خيالات مبهمة ومشوشة الملامح. لكنها لن تفكر الآن في الاكتئاب، لقد أدركت في تلك اللحظة أنها حلمت، لكنها لا تتذكر التفاصيل.

نظرت بطرف عين إلى ساعة الحائط الكئيبة. السابعة صباحا! لم

تنم إلا ساعتين إذن؛ فقد سمعت صوت أذان الفجر وهي تقرأ. لم تكن لتترك السرير بمزاجها لولا ضغط المثانة واضطرارها الذهاب إلى الحَمَّام.

قومي يا مريم، ولتحضري أيضا قطرة العين من الثلاجة.

حاولت أن تتحرك، لكن جسدها الغارق في النعاس بدا مثل «سيد قشطة» بحجمه الهائل وعينيه الناعستين وعدم اكتراثه بالعالم. عليها أن تستجمع شجاعتها استعدادا للمهمة الثقيلة. أخذت شهيقا وجلست، وعندما أنزلت قدميها إلى الأرض شعرت بصدرها يمتلئ برائحة كأنها مزيج من العطارة والبخور وهواء الصباح الطري. أغمضت عينيها وهي تسترجع ومضة غائمة من الحلم. ربما كانت تسير في مكان يشبه قاهرة المعز وقت الفجر. تذكرت شكل أجولة الزيتون والليمون على الرصيف المقابل لمسجد كبير وصيحات أطفال يضحكون وهم يرشون بعضهم بالمياه.

في طرقة البيت أخذت نفسا عميقا، واستغربت أن مجرى الهواء المتحجر في صدرها قد انفتح ـ هكذا ـ ببساطة!

إنها تتنفس!

في الحَمَّام وقفت للحظة كأنما تتذكر ما الذي أتى بها هنا، ثم استدارت وفتحت الدشّ. تدفقت المياه بقوة فوق رأسها، بينما جسدها يطلق سراح البول المحبوس الساخن فوق ساقيها.

أغمضت عينيها ومَرَّ رأسها بلحظة سكون، لا شيء يحدث في الدهاليز الضيقة المعتمة، مجرد فراغ كبير بلا هواجس ولا خناقات. كان إحساسا لطيفا لدرجة أنها نسيت قطرة العين ورغبتها أن تعود إلى النوم.

امتلأ الحمام برائحة قوية. ربما كانت بخور مسك يأتي من شقة أحد الجيران. كان في حلمها رائحة كهذه! حاولت أن تتذكر الحلم. كان لون السماء رماديّا. هل كانت تمطر؟

أغلقت الماء وهي تتخذ قرارا كبيرا ومصيريّا، وعلى العالم أن يتوقف إجلالا له. مريم سوف تخرج هذا الصباح. نعم.. ستذهب إلى حي الأزهر.

سمعت مريم في رأسها صوتا مستنكرا يردد أشياء من عينة أن هذا تهور لا تُحمد عقباه! ما الذي يجبرها على النزول بمزاجها إلى معترك شوارع القاهرة؟ من خرج من داره يا دكتورة!

استكملت ارتداء ملابسها. لن تتناول فنجان قهوتها قبل النزول؛ إذ ربما تغير رأيها في تلك الدقائق.

اندهش عم مهني البواب عندما رآها تخرج من باب العمارة؛ فهي لا تترك شقتها إلا نادرا. أصبح الرجل ينسى أحيانا وجودها، خصوصا بعد أن توقف عن شراء الجرائد لها منذ سنوات. نظر إليها ورفع يده نحو صدره بالسلام دون أن ينطق، فقد علمته سنوات العِشرة الطويلة أن يتجنب «الست الضاكتورة» ولسانها

الذي يشبه المبرد. أما مريم فلم تره ولم تردّ السلام.

ألقت نظرة على سيارتها القديمة التي ترقد أمام الباب ومشت وتركتها وراءها. القيادة في القاهرة تتطلّب جهازا عصبيّا فولاذيّا قادرا على التعامل مع كلٍّ هذه الوجوه المتشنجة، والأجساد التي تطحن بعضها بعضا بغلٍّ وبؤس!

تحركت نحو شارع الروضة وهي تفكر أن بإمكان الحكومة المصرية أن تتبنى منظورا جديدا لتنشيط السياحة. لا أهرامات ولا معابد ولا دياولو. زوروا القاهرة تجدوا ما يسركم. متحف مفتوح لشتى الأمراض النفسية. لعلماء النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا وللمهتمين بالنوع البشري، عندنا محمية طبيعية تضم في جنباتها التعصب والعدوانية وكراهية الذات، هذا بالإضافة إلى تشكيلة ممتازة من الاكتئاب والبارانويا والفصام والعصاب. الزيارة مجانية.

زفرت مريم والتاكسي يزحف ببطء في اتجاه كوبري الملك الصالح. تلفتت حولها وشعرت كأنها لم تخطُ إلى شارع الروضة منذ زمن. لقد تضاعف عدد المحال. هل لايزال محل الآيس كريم صامدا؟ المخبز؟ لكن محل الطرشي يبدو جديدا، وكذلك السوبر ماركت الذي تكدست فيه البضائع وانفتحت كرشه الضخمة لتلفظ كراتين الماء وأكياس حفاضات الأطفال فوق الرصيف، ودكان الأسطوانات الصغير المزدحم ببوسترات فاقعة الألوان لمغنين لا تعرفهم يبتسمون بلزاجة. ومتى انتصب هذا المسخ الضخم ذو الفاترينة القبيحة؟

أما البيوت فقد ملأتها التجاعيد والشقوق، ولطختها أيادي الزمن واللامبالاة بهباب مصفر، أم هو أصفر مهبب؟ نشعت المياه في الجدران وتساقط طلاء الشرفات القديمة واختفت منها أصص الزرع وشجيرات الجهنمية وضحكات النساء ساعة العصاري. شاخت البيوت، مثلك يا مريم!

«وتذَكَّر اللحظة التي يغسِّلونك فيها ويضعونك في حفرة ضيقة ويهيلون عليك التراب، ويذهبون.. ويذهبووووون...».

داخل التاكسي كان أحد الشيوخ يجأر مذكِّرا أخاه المسلم باليوم الذي ستزول فيه الغشاوة عن عينيه، وينتزع الموت روحه بلا رحمة ولا رأفة «وتبقى وحيدا ليخرج لك الثعبان الأقرع. وستبكي وتبكي طلبا للرحمة، ولن يسمعك أحد؛ فهذا ما اقترفت يداك...».

جزَّت مريم على أسنانها. يا فرحتك يا فرويد. لا شك أنكَ الآن ترقص في تربتك في لندن فرحا بوصول «الرمز القضيبي» بسلامة الله وحفظه إلى كاسيت تاكسي في القاهرة في هذا القرن الموكوس.

هل تطلب من السائق إغلاق هذا القرف؟ نظرت إلى عيني الرجل في مرآة السيارة الأمامية ولم تفتح فمها. كان قفصها الصدري يتقلص وينغلق.

وقعت عيناها على المانشيت الأحمر الفاقع للجريدة الملقاة بجانبها: «المعتصمون أمام البرلمان يحوِّلون عيد العمال إلى سرادق عزاء،

منشورات تدعو لإضراب أمام مجلس الوزراء اليوم و....».

لقد قطعت علاقتها بالجرائد منذ عامين أو أكثر عندما رأت الحروف ذات صباح تتحول إلى ديدان صغيرة سوداء تتكاثر وتسرح خارج الورق وفوق منضدة الصالة.

ازداد انقباض صدرها.

في شارع الأزهر قذفت بنفسها خارج التاكسي. وقفت تتأمل معضلة عبور الشارع الضيق المزدحم بالسيارات وأصوات سباب السائقين لبعضهم بعضا وللمارَّة. نزلت إلى نفق المشاة الذي نضح برائحة البول، عندما صعدت إلى الناحية الأخرى من الشارع كان قلبها يدق ورئتاها تتوسلان لنفسٍ من الهواء.

في الساحة المواجهة لمسجد الحسين أدركت أنها لا تزال تمد الخطو كما لو كانت هاربة من عصابة لصوص. أبطأت مشيتها فشعرت بنسمة هواء رطب تمر. دارت بعينيها حولها ثم اتجهت إلى إحدى الدكك الحجرية المحيطة بالحديقة، وأشارت إلى الصبي الذي كان يدور بصينية ألومنيوم عليها أكواب شاي ساخن وأعواد نعناع أخضر.

تتالت نسمات هواء معبقة برائحة بخور، تماما كما في الحلم.

الحلم!

كان لون الأرض في الحلم أبيض. أو ربما السماء هي التي كانت بيضاء! لا تتذكر بدقة.

حاولت أن تتنفس، لكن صدرها كان يؤلمها.

رشفت الشاي وهي تشيح بوجهها بعيدا عن ضباط الشرطة الجالسين على الرصيف. انزلقت عيناها فوق الناس دونما اهتمام، أمٌّ تجرجر طفلها وهي تصرخ فيه أن يتوقف عن البكاء: «بس يا زفت. إلهي يحرقك ويحرق الخِلفة وسنينها!»، عائلة كبيرة بأطفال كثر يجلسون في الحديقة يأكلون البقسماط، رجل يغطّ في النوم وبجانبه قبيلة من القطط تتشمس، وبائعو العقود الملونة والبخور وكتب الأدعية يُحوِّمون في المكان. لا تتذكر مريم متى خرجت من البيت دون سبب قهري! منذ أن أغلقت العيادة وتركت العمل في المستشفى، أصبح الخروج أمرا مكروها يجب اجتنابه. كيف تحرَّك «سيد قشطة» خارج حدود مملكته الصغيرة البائسة؟ كادت تضحك.

«صباح الخير».

التفتت مريم إلى امرأة ستينية تقف أمامها. كانت ترتدي جونلة طويلة وبلوزة بيضاء متسخة ومكرمشة، وإلى جانبها وقفت فتاة نحيلة لم تصل إلى العشرين ترتدي فستانا طويلا من القطيفة الزرقاء بوسط ضيق وكسرات عريضة.

قالت المرأة بابتسامة خجول: «أستأذنك نقعد جنبك شويه».

نظرت مريم إليهما بزهق وفكرت للحظة أن تترك لهما الدكة وتمشي، ثم تحركت إلى الطرف مفسحة مكانا للمرأتين.

٤

فتحت مريم عينيها بعد نوم قلق. استغربت إحساسها باليقظة بهذه السرعة! إنها تنام بصعوبة وتفيق من النوم بصعوبة أكبر. تحتاج فترة طويلة كي تعبر بسلام البرزخ المعتم بين النوم والصحو. مدت يدها إلى زجاجة المياه فتدافعت علب الأدوية فوق الأرض. نظرت مريم إلى الكومة. لا تصدق أنها لم تتناول شيئا منها على مدار الأسبوع الأخير، منذ أن التقت أمينة وكاثرين!

نظرت إلى تاريخ اليوم على شاشة الموبايل، ٩ مايو ٢٠١٠، كأنها تتأكد أن أياما سبعة قد انقضت. في كل يوم كانت تفتح عينيها وهي تسأل نفسها إن كانت قد أقدمت بالفعل على حماقة بهذا الحجم، أن تدعو إلى بيتها امرأتين لا تعرف عنهما إلا ما يشير إلى كونهما تعانيان من أعراض «ذُهان»! لكنها ذكَّرت نفسها أن تلك الفعلة أقل خطورة من رغبة الانتحار التي عادت إليها في الأسابيع الماضية. لم تستسلم لها، وإلا كانت الآن ترقد، والعياذ بالله، في حضن أمها ناهد في مقابر البساتين، وهو شيء أكثر بشاعة من الجحيم ذاته. لقد قاومت تلك الرغبة، أغرقتها في مضادات الاكتئاب التي تركتها جثة تتنفس ولا تحسّ بأي شيء. وعلى الرغم من ذلك وجدت مريم نفسها في أحد أيام الشهر الماضي تخطو ببرود إلى المطبخ، وتفتح عيون البوتاجاز كي يتدفق الغاز على راحته إلى البيت. عادت بعد دقائق وأغلقته بنفس القدر من

الهدوء، وفتحت نافذة المطبخ كأنها تطرد من البيت رائحة تحمير بطاطس.

قفزت من السرير في حركة مفاجئة فكادت أن تنكفئ على وجهها، وجرت حافية على بلاط الطرقة نحو صالة البيت. عند الباب أوقفها النور القويّ، أغشى عينيها اللتين اعتادتا الظلام كالخفافيش. افترشت الشمس السجاجيد فغامت تفاصيلها وارتاحت فوق الحوائط وقطع الأثاث وابتلعت أمينة داخلها فبدت كطيف شفاف.

«صباح الخير يا مريم».

غطت مريم عينيها وألقت بجسدها فوق المقعد القطيفة المجرب والتقطت أنفاسها. فتحت عينيها ببطء. كانت أمينة متربعة على كنبة حجرة الجلوس ترتدي جلبابا سيناويّا وتكتب يومياتها. فاح البيت برائحة البن. فوق المنضدة تجاورت السبرتاية وعدة القهوة مع كومة الكتب التي أنزلتها أمينة من مكتبة مريم. البيت مرتَّب ونظيف على غير العادة طبعا. لا تعرف مريم من أين تأتي أمينة بالوقت للتنظيف وهي التي تقضي النهار بطوله في الجولات التي أعدتها مريم لها ولكاثرين!

«كاثرين فين؟».

قالت أمينة إنها نزلت تمشي، نظرت إلى عينيّ مريم المنتفختين المحاطتين بالهالات السوداء وقالت: «قهوه؟».

لم يبدُ على أمينة أنها كانت تنتظر ردّا. أغلقت الكُرَّاس ووضعته جانبا. أشعلت السبرتاية وبدأت في إعداد فنجان من البن المحوَّج المخصوص الذي تأكدت بنفسها من مقادير الحبهان وجوز الطيب فيه.

نظرت مريم إلى يد أمينة الخمرية المعروقة وهي تقلِّب البن في الكنكة وتركن الملعقة الصغيرة على طرف الصينية. هل تعيد على أمينة السؤال مرة أخرى: من أنتِ يا أمينة؟ وهل ستجيب أمينة بالحقيقة؟

وما هي الحقيقة لمن يعاني أعراض الذُّهان؟ لو كان يدرك الواقع ما كان هنـاك ذُهان، ما امتلأ العالم بأمثال أمينة!

لكن مريم لم تقابل أحدا مرتاحا هكذا مع المرض!

وهل أصدرتِ بالفعل تشخيصكِ الحاسم يا دكتورة؟ من أين يأتيكِ هذا اليقين؟

ارتشفت القهوة وهي تتأمل وجه أمينة. لا يبدو عليها أنها مريضة عقلية، بل على العكس، كأنها في مكانها الصحيح، كأنها عاشت في هذا البيت زمنا. استغربت مريم أن أمينة تجلس في نفس البقعة التي اعتادت أمها الجلوس فيها، على الطرف الأيمن للكنبة. لكن شتان بين المرأتين، فعلى الرغم من وفاة ناهد منذ عامين، فإن وجودها الثقيل ونظراتها الحادة التي تخترق ظهر مريم لا تزال تُعشش في أركان البيت.

«إنتِ عايشه من زمان لوحدك يا مريم؟».

هزت مريم رأسها.

«عندك أولاد؟».

قالت مريم باقتضاب إن زواجها لم يستمرّ طويلا ولم ترزق بأطفال. تضرَّج وجه أمينة بالحمرة وهي تعتذر عن تطفلها. ابتسمت مريم وهي تؤكد أن لا داعيَ للاعتذار، كل ما في الموضوع أن مريم ليست معتادة على تلقي الأسئلة. حُكم المهنة يا أمينة.

«وليه بطلتِ شغل؟ أكيد كنتِ بتساعدي الناس!».

قالت مريم إنها ليست لديها إجابة عن هذا السؤال؛ فهي لا تعرف السبب. لقد أحست في لحظة أنها لا تستطيع النزول من البيت والاستماع إلى شكاوى وأوجاع المرضى، ولم تعد قادرة على تحمل تلك النظرة في أعينهم التي تتوقع منها حلولا لا تخيب. أدركت فجأة أن كل الخيوط التي كانت تربطها بما سبق من سنوات عمرها منذ بدأت دراسة الطب وحتى عامين مضيا قد تمزقت.

سكتت مريم وهي تتأمل أمينة تصب لها فنجان القهوة. تبدو أمينة اليوم أصغر سنّا من الأحد الماضي. يومها كانت مرهقة وبدا عليها أنها تبذل جهدا كي تجيب عن أسئلة مريم. اسمي أمينة. هذه كاثرين. أين يمكن أن نجد مكانا للمبيت؟ مقدم! لا نملك مالا في هذه اللحظة لكننا سندبر أمورنا سريعا. رقم قومي! جواز سفر؟ هل هذا أمر ضروري؟ لا، كاثرين ليست حفيدتي، تستطيعين

القول إننا عِشرة عمر. كنا خارج مصر. لقد وصلنا هذا الصباح. من أي بلد جئنا؟ هو مكان بعيد وكانت معنا نساء أخريات.

بعد فترة من توجيه الأسئلة وتلقي الردود المبتورة، زهقت مريم وقررت أن تأخذ هدنة. جلست ترشف كوب الشاي في صمت وتتابع عيني كاثرين وهما تتفرجان على ألوان الإيشاربات والسبح وبدل الرقص في المحل المواجه للقهوة. أحست مريم بنظرات أمينة تروح وتعود إليها كأنها تودّ أن تقول شيئا. بعد قدرٍ من التردد سألتها أمينة إن كانت قد قرأت روايات «بين القصرين» و«قصر الشوق» و«الـ...

التفتت مريم إليها: «ثلاثية محفوظ؟ قريتها زمان وأنا في ثانوي».

«أنا أمينة».

«أمينة..! أمينة مرات أحمد عبد الجواد؟!».

هزت أمينة رأسها، فسكتت مريم لوهلة شعرتها طويلة جدّا، ثم قالت بهدوء طبيبة نفسية: «لكن أمينة شخصية في رواية».

تضرَّج وجه أمينة بالحمرة وهي تقول: «أمينة ست حكايتها اتكتبت في رواية!».

«بس الرواية بتقول إنك متِ!».

«أنا كمان كنت فاكره كده».

«ولو افترضت إن ده صحيح، يبقى عمرك دلوقتِ...».

«١٢٩ سنة بالتمام والكمال».

ضحكت ثم أكملت: «بس فكرك أنا عجوزه؟ أمال لو عرفتِ إن كاتي عمرها فوق الـ٢٤٠ سنة!».

هذا شيء رائع جدًا. منذ أسبوع وجدت مريم نفسها على قهوة في الحسين، تحتسي الشاي بالنعناع مع أمينة زوجة السيد أحمد عبد الجواد وكاثرين إرنشو بطلة «مرتفعات وذرنج»(*). شيء رائع حقًا! أدركت مريم أن الموضوع كبير، أكبر من قدرتها في هذه اللحظة على فهمه. أعراض ذُهان في الأغلب. هل تعاني كاثرين، لو أن هذا هو اسمها بالفعل، من نفس الضلالات؟

بدا الوقت الذي قضته مريم معهما في الحسين أطول من مجرد ساعات؛ ربما لأن جهاز الإحساس لديها، والذي كان معطلا بتأثير نصف طن من الأدوية، قد بدأ ينتبه ويلتقط إشارات صغيرة. لقد أحست، مثلا، بالشفقة تجاه أمينة وبفضول تجاه كاثرين التي لم تصدر عنها إلا كلمات معدودة بلغة عربية ذات لكنة إنجليزية. كانت منهمكة في التهام أقراص الطعمية الساخنة والفول الغارق في زيت الزيتون والمخللات. عندما ركبتا معها التاكسي في الطريق إلى الروضة، كانت الأصوات تتصارع في دماغ مريم؛ بعضها يصرخ غاضبا ومتهما إياها بالدخول في مغامرة غير محسوبة العواقب؛ والبعض الآخر يتملكه فضول أقوى من ترددها ومخاوفها. عندما أدارت المفتاح في باب الشقة في السادسة مساء، كانت تشعر بسعادة تشبه تلك التي يُحسّها الواحد منا عندما يقترف

جُرما لو اكتشفته أمه فسوف تُطيّن عيشته، لكنه أقدم عليه بشجاعة الحمقى.

«يالَّا يا مريم الفطار. كاتي رجعت».

انتبهت مريم أن أمينة تركتها تسبح في دماغها ودخلت المطبخ وانتهت من تحضير الإفطار. دخلت كاثرين إلى الصالة وهي تمسح جبهتها بيد وفي اليد الأخرى تمسك كوبا من الليمون البارد بالنعناع الأخضر. لقد ضربت الحمرة وجهها بعد ساعات المشي في الشمس، ولمعت طبقة من العرق الخفيف على عضلات ذراعيها المشدودتين. صحيح أن جسد كاثرين نحيف، خصوصا في البنطلون الجينز والتي شيرت الأبيض اللذين يجعلانها تبدو كصبي مراهق، لكنه متين بعظام صلبة واضحة القسمات تشبه أجساد مايكل أنجلو.

سألتها: «رحتِ فين النهارده يا كاثرين؟».

ضحكت كاثرين وهي تنظر إلى مريم بعينيها البنيتين: «مشيت لحد كنيسة سانتا باربرا واشتريت فول مدمس للفطار من العربية اللي فوق النفق، ورجعت قعدت على النيل هنا جنب البيت».

قالت مريم: «أخدتِ تلفونك ولَّا نسيتيه...؟».

تركت كاثرين كوب الليمون من يدها وأخذت خطوتين كبيرتين قطعتا المسافة بينها وبين مريم في لمحة. كان وجهها محمرا وساخنا وكلماتها سريعة متتابعة: «مريم، أنا.. أنا حاسَّه إن دماغي فيها

عاصفة، بس مش ريح شتوية، لأ.. حاجة زي تيارات هوا في بدايات الربيع، والعالم حواليَّ بينفجر بالألوان. وأنا بامشي النهارده كنت.. كنت حاسّه بمسام جسمي بتتفتح للشمس، للهوا الدافي، لأصوات العربيات والناس والبياعين، جرس العجل وزمجرة الفرامل وموسيقى جايه مش عارفه منين. حاسّه بكل حاجة زي ما أكون أرض ناشفه بتتفتح للمطر! وأنا راجعه في شارع الروضة كنت غرقانه في موجة من الأحاسيس، مش فاهماها ومش مهتمة أسميها!».

سكتت مريم وهي تنظر إلى كاثرين. كانت تشعر بالدهشة، لم تعرف إن كان السبب هو أن كاثرين تستطيع التعبير عن نفسها بهذه الطلاقة، أم لأنها تحس بكل ما يدور حولها بهذا الوضوح وهذا العنفوان!

أيّا ما تكونين يا كاثرين، فأنتِ شخصٌ لم أقابل مثله في حياتي!

رفعت أمينة من صوتها: «الفطار هيبرد».

جلسن حول مائدة عامرة بأطباق الفول والبيض المقلي في السمن، والجبن الأبيض وأعواد الجرجير والخس وحبات الزيتون الأخضر. فكرت مريم أن هذا تغيُّر جذري في حياتها: ثلاث وجبات طعام في مواعيد محددة، هذا غير الخضراوات الطازجة والفاكهة والعصائر! تتالت في دماغها صور من الأسبوع الأخير كموجات متلاحقة، لحظات اليوم التي تمر سريعة وهي تدور معهما

في الشوارع، الصخب اللطيف الذي يرافق كاثرين أينما تكون، حركة أمينة الدائبة بين الشرفة والمطبخ ويداها اللتان لا تتوقفان عن العمل. زخم من التفاصيل أخذ يغزل نفسه حول مريم كأنما بخيوط ملونة، يدفع بأسئلتها إلى الوراء بهدوء مفسحا المكان لغواية لا تستطيع مريم تفسيرها. ربما لو فهمتها ما أصبحت غواية!

(*) مرتفعات وذرنج: «للكاتبة الإنجليزية إميلي برونتي، ١٨٤٧.

٥

١٣ مايو ٢٠١٠
بيت مريم في جزيرة الروضة
الساعة ٤.٣٠ الفجر

سبحان الله.

سبحان الواحد القادر على كل شيء.

من ساعة ما جينا هنا وأنا مش عارفه أتلم على روحي. مش لاحقه أقعد شويه مع نفسي وأفكر في اللي بيحصل. كل يوم مع مريم في حته. نصحى الصبح، نفطر وننزل، نفضل نتحرك من مكان للتاني، من برج القاهرة للفسطاط، ومن أهرامات الجيزة لقصر البارون، قلعة صلاح الدين، قصر محمد علي باشا، ووسط البلد والعباسية والزمالك. آخر اليوم أجرجر رجليَّ بالعافية ع الحمام أزيح التعب، ناكل لقمة ونرغي شويه، ويا دوب ننام ونصحى نعيد الكَرَّة. وأنا عامله زي اللي لقت نفسها في قلب مولد.

رحنا أماكن عمري ما رحتها. إيه العظمة دي يا ناس. دي مصر دي حاجة كبيرة قوي!

قلت لنفسي: مصر إيه يا أمينة، دي يا دوب القاهرة!

ما أنا عارفه.

بصيت تاني على تاريخ النهارده. معقول بقالنا هنا ١١ يوم؟ ده أنا حاسَّه كإنهم سنين!

وفي وسط البشر الكتير والزحمة لقيتني باتمعن في الوشوش، زي ما أكون هاقابل حد أعرفه.

تعرفي مين يا أمينة، ده الناس مبقالهاش عدّ!

ما أنكرش إني مبسوطة. نعمة الحمد لله. بس برضه مخطوفة كده. إمبارح قلت لمريم إني مش هاخرج معاهم النهارده، هاقعد في البيت عشان أتلم على نافوخي. فتحت الكراسة الجديدة اللي جابتهالي مريم أول ما جينا. مش أول مرة أكتب هنا، الكام يوم اللي فاتوا كتبت شويه. دلوقتِ لما قريت اللي كتبته، لقيتني كاتبه كلام فارغ، رطرطة كده ما لهاش معنى!

أنا دلوقتِ قاعده في بلكونة مريم والفجر بيشقشق. قدَّامي فنجان القهوة وشجرة كبيرة قديمة مضللة ع البلكونة، زي ما تكون عامله ستارة ربَّاني لونها أخضر، ووقت الضهر لَمَّا الشمس تبقى فوقها بالظبط بتبقى أخضر في دهبي.

أنا مبسوطة زي العيّلة اللي بتشوف دنيا جديدة. بس برضه متضايقه من حالة التوهة اللي أنا فيها. بابقى زي قِلِّتي، لا أنا عارفه أقف على رجليَّ وأشوف اللي المفروض يتعمل دلوقتِ، ولا قادرة آخد بالي من كاتي.

وكاتي دي لوحدها حكاية. قال إيه لازم ولا بد تنزل تمشي كل يوم. مش كفايه يا بنتي اللف مع مريم طول النهار! إنما دي أبدا. طول عمرها عنيدة وراسها ناشف. دي قبل ما ننزل الصبح بتكون مشيت ييجي ساعتين. وامبارح عشان رجعنا ع المغرب، قالت هتنزل تمشي تاني. ما بتهمدش. وأنا غصب عني قلقانه. الناس بقت بجحة، والرجالة.. أستغفر الله!

من يومين اتكلمت مع كاتي إننا لازم ندوَّر على شغل. كانت مستغربة شويه لأن عمرها ما اشتغلت، بس وافقتني. أمال هانقعد عالة على مريم! والله ما أنا عارفه الواحد يرد جمايلها إزاي! شكلها زعلت لما عرفت إننا عايزين نمشي. إنما ما يصحش، يعني هنفضل قاعدين على قلبها كده!

ومين قال إننا هنفضل هنا؟ مش يمكن زي ما جينا هنمشي؟

الله أعلم.

اللي أعرفه هو إننا هنا دلوقتِ ولازم نتصرف. محتاجين نتكفل

بنفسنا، ويبقى لنا بيت يلمنا أنا وكاتي. نشوف حالنا بقى.

صوت من جوايا قاعد يضحك عليَّ ويقول لي: تشوفوا حالكم! طب كاتي وممكن تشتغل. صغيرة وذكية وبتتكلم عربي تقريبا زي الإنجليزي. إنما انتِ بقى يا أمينة، مين ده اللي هيشغلك؟

يا ستّار يا رب، هو انتَ تاني! تغيب تغيب وترجع تقطمني وتكسَّر مجاديفي! وهو مين اللي علَّم كاتي العربي بتاعها غيري أنا وليلى! ده غير إن أنا كمان باعرف إنجليزي.

طب إيه رأيك بقى إني هادور على شغل. أنا ممكن أدرِّس عربي، وممكن كمان أترجم. الله يمسيكِ بالخير يا ليلى، انتِ اللي جبتِ الفكرة في دماغي زمان. في الأول مكنتش مصدقه إني هاقدر، وسبحان الله، من يومها لحد النهارده ترجمت قصص ومقالات يملوا رف من رفوف مكتبة أبو مريم الله يرحمه.

وعزة جلال الله هتُفرج. ما هي ياما فُرجت قبل كده. إن مع العسر يسرا.

إمبارح بالليل بعد ما رجعنا من الكنيسة المعلقة، كاتي فتحت التلفزيون زي عادتها من يوم ما جينا. طلع علينا مذيع وشه محمر ومنفوخ وعروق رقبته هتطق من الزعيق. كان بيتكلم عن الفساد وارتفاع الأسعار وبيقول كلام جامد للحكومة، وبين جملة والتانية

كان بيجعّر: «حرام.. حرام عليكم الغلابة.. حرام! أكتر من نص الشعب تحت خط الفقر!». الصراحة أنا اتخضيت من شكله أكتر من خضتي من كوم البلاوي اللي حدفها في وشنا؛ إشي مظاهرات وقتل وانتحار والعياذ بالله، وقال إيه هتك عرض في قسم شرطة. هو فيه كده يا ربي؟ أعوذ بالله من غضب الله!

باتلفت كده لقيت كاتي ساكته خالص، ودي مش عوايدها من ساعة ما جينا. كانت مسهِّمة ووشها مخطوف. قمت قفلت التلفزيون، خفت الحالة إياها ترجعلها، ما هو لو حصل حاجة ضايقتها وعكَّرت مزاجها، تبقى عصبية كإن لابسها عفريت ما لوش مالكه. وتقوم بعدها الحمى ماسكاها وعالجي يا أمينة واقلقي يا أمينة.

تِفي من بقك يا أمينة. أهي نايمه جوه. طليت عليها بالراحة وأنا خارجه من أوضتي الساعة ٤ الفجر، كانت مدفوسة تحت الغطا مش باين منها غير وشها الصغير وشعرها الإسود اللي مغطي جبهتها.

مريم شكلها نامت متأخر، أو يمكن صحيت في نص الليل. لقيتها سايبه علب زبادي فاضيه وبقسماط على ترابيزة الصالة. قبل ما أدخل البلكونة لميتهم ومسحت الترابيزة عشان النمل ما هيصدق.

غلبانة، شكلها ما بتعرفش تنام. أمال الأدوية اللي بتاخدها دي بتعمل إيه؟ أنا ما عرفتش عنها حاجات كتير. لما سألتها عن نفسها من كام يوم قعدت تلف وتدور وتقول حاجات فارغة كده. أنا اتكسفت الصراحة وحسيت إني باتدخل في شئونها. بس بصراحة حاسَّه بفضول ناحيتها، وكمان نفسي أفهم هي إزاي صدقتنا!

ومين قال لك إنها صدقتْ يا أمينة؟ مش يمكن فاكره إنكم اتنين هربانين من المورستان؟

طيب إيه اللي يجبرها تأوي مجانين؟

بس الست عمرها ما حلفت إنها مصدقانا. هي سمعتنا وابتسمت، وبس خلاص.

المهم فالأهم يا أمينة. سيبك دلوقتِ من الكلام اللي لا هيجيب ولا يودي وركزي.

أيوه النهارده هاقعد أفكر وأخطط، يوم ولا اتنين وهابتدي تدوير على شغل.

كفايه كده. قومي يا أمينة صلي الفجر وركعتين شكر وحضَّري الفطار.

يا فتاح يا عليم.. يا رزاق يا كريم.

٦

هبت كاثرين من نومها جالسة وهي تطلق آهة فزع سمعتها أمينة التي تعودت أذناها التقاط الأصوات في النوم كما في الصحو. جرت أمينة إلى غرفة كاثرين الملاصقة لغرفتها وهي تبسمل. أضاءت النور وجلست بجانبها: «مالك يا كاتي كفى الله الشر؟».

كان جسد كاثرين ثقيلا وتنفسها سريعا مضطربا. كل شهيق يؤلمها كأن الهواء سكاكين تضرب صدرها من الداخل، والدماء تسري ببطء وتردد في عروقها. أحست بأمينة تقرِّب من شفتيها كوب الماء لكنها لم تشرب. مدت أمينة يدها تمسح جبهتها وهي تتمتم، ثم تركت الكوب وضمت يديها الباردتين بين كفيها.

«حلم تاني يا كاتي؟!».

مرت وهلة قبل أن تدرك كاثرين أن ذلك كان حلما. نظرت حولها، إنها هنا في غرفة في بيت مريم ومعها أمينة. هدأت حركة صدرها وتناولت كوب الماء.

كان حلما مثل كل أحلامها ـ حقيقيّا جدّا ـ كأنها كانت في ذلك المكان الآخر حيث كل شيء واضح وحاد ومؤكد، وحيث لا فرار. لكنها المرة الأولى التي تزورها أحلام منذ أن أتت إلى هنا لدرجة أنها توهمت أنها لن ترجع أبدا إلى تلك الأوقات حين تعود إلى الوراء لتعيش كل ما عاشته من قبل كأنه يحدث من جديد، الحب

والفقد واليأس والغضب المجنون، الغضب الذي يصيب دماغها بالحمى فتنزلق إلى دوامات الجحيم. في الحمى تشعر كاثرين أنها معلقة بين مكانين، لا هي هنا ولا هناك.

لكن هذا الحلم كان غريبا، لم تحلم بشيء كهذا من قبل. صحيح أن صورة ليدي شالوت[(**)] ظلت ترافقها منذ أن قرأت القصيدة في بيت السيرينت، ومع مرور السنوات، تأكدت كاثرين من الشبه بينها وبين تلك المرأة، لكنها تحلم بها للمرة الأولى.

قالت أمينة: «هاروح أعمل لك شويه نعناع أخضر يخلوكِ زي الفل».

لكن كاثرين أطبقت على معصمها بقوة لدرجة أن أصابعها تركت علامات حمراء فوق جلد أمينة، قالت بصوت مبحوح: «أنا حلمت إن أنا ليدي شالوت في لحظات موتها الأخيرة. كانت سابت القلعة الساكته وراها، وخرجت للعالم اللي طول عمرها كانت بتشوفه مجرد انعكاس في مرايتها».

في الحلم كانت كاثرين ترتدي فستانا بلون الثلج. وقفت عند ضفة النهر، تحت قدميها أوراق الشجر الأصفر الجاف ومن فوقها تمطر السماء. وجدت قاربا، كتبت عليه اسمها، فكت الحبل السميك الذي يربطه بالشاطئ وتمددت فيه. عندما تحرك القارب أدركت كاثرين أنها ليست في النهر المتجه إلى «كاميلوت». كانت في النيل. رأت عند الشاطئ المباني الكبيرة والأضواء القوية ولمحت مركبا

أكبر يتحرك بجانبها فوقه نساء يرقصن. كانت تعرف أنها تموت. جسدها حزين ومستسلم، القارب يتحرك بهدوء مع تيار الماء، والهواء يطيِّر أطراف ردائها. شعرت بالبرودة تتمدد داخلها وبأوراق الشجر تتساقط فوق وجهها. سمعت أيضا صوت السيرينتات. يا للشؤم! لا شك أنهن في مكان قريب، فها هو أنين الناي والترنيمة الباكية التعسة. كن يغنين بدايات الحكاية بصوت مكتوم كأنه آتٍ من عمق النهر:

على جانبي ذلك النهر في الشاطئين

حقول شعير وشيلم تمتد في الضفتين

وتكسو الهضاب لكي تلتقي بالسماء

وفي الحقل يجري الطريق بغير التواء

إلى حيث أبراج قلعة كاميلوت

وفيه يروح ويغدو البشر

وتسعد أعينهم بالنظر

إلى الأقحوان الذي يزدهر

بشط جزيرة شالوت وسط النهر.

نظرت كاثرين بوهن نحو الشاطئ فرأت أمينة، كانت تبكي. أدارت وجهها إلى السماء فسمعت صدى ضحكات بعيدة. هذا صوتها وهي طفلة. كان هيثكليف يجري وراءها أسفل التلال،

وهي تصرخ أنه لن يلحقها، لكنه يعدو في أثرها كالفهد، يقترب ويقفز عاليا، يحضنها ويتدحرجان معا فوق عشب الأحراش وفي برك الطين وهما يقهقهان. ظل القارب يتحرك شمالا نحو البحر والشاطئ يبعد وتتوارى الأضواء. أغمضت كاثرين عينيها على صوت الضحكات تعلو وتتداخل مع صوت الترنيمة.

وفي الماء يلتمع الصفصاف
وترقص أغصان حور الضفاف
إذا ارتعدت نسمات الظلال الخفاف
بأمواج ماء يسير بغير انعطاف
هنالك حول الجزيرة حتى كاميلوت
وداخل جدران غرفتها الغبراء
بجوف قلاع مربعة دكناء
تطل على روضة من زهور النماء
بتلك الجزيرة صامتة الأصداء
تعيش فتاة تسمى بحسناء شالوت.

سكتت أمينة. علمتها سنين العشرة ألا تجادل كاثرين في مثل هذه اللحظات. علامَ تجادلها أصلا؟ إنه حلم! هل نحاسب بعضنا بعضا على الأحلام؟ سبحان الله! صحيح أن كاثرين لا ينضب معين أحلامها، لكن ما باليد حيلة. قادر ربنا يهدئ النفوس ويجبر

الخواطر.

«سيبيني أجيب لك حاجة تشربيها وقومي اغسلي وشك، ولَّا أقول لك: انزلي تحت الميه».

تنفست كاثرين. لن تسمح للحلم أن يفسد عليها اليوم. لن تسمح لصورة شالوت وهي تموت لمجرد أنها تحدت اللعنة التي تجبرها على البقاء في القلعة، أن تملأ دماغها. تذكري يا كاثي، أنتِ الآن في مكان جديد لم تحلمي يوما أن تريْه، فما بالك أن تعيشي هنا! تذكري تلك الكاثرين التي ذهبت إلى مقابلة المدرسة بالأمس، كانت هادئة واثقة، بل هي التي بدأت توجه قذائف أسئلتها إلى المشرف على تدريس اللغة الإنجليزية: المرتب وعدد ساعات التدريس وما درسه التلاميذ في السنوات الماضية. هل تذكرين كيف خرجتِ من المدرسة وقدماك تدبان الأرض بقوة كأنهما تشقان طريقا جديدا، حياة أخرى لا مكان فيها لهلاوسك وخوفك من نداء السيرينت الكاذب.

نزلت من سريرها فسمعت صوت أمينة في المطبخ يدندن بأغنية. أحست كاثرين بقدر من الغيرة؛ ربما لأن أمينة قادرة أن تجعل من أي موضع تحل فيه بيتا لها. لا يأخذ الأمر منها إلا بضعة أيام وتكون قد ارتاحت وملأت المكان بتفاصيلها، بل بدأت تخطط لحياة بأكملها!

ستأخذ كاثرين الآن حماما باردا وتخرج للمشي بالقرب من النيل فأمامها قرابة الساعتين قبل أن تضع أمينة الإفطار. فتحت النافذة

فدخل نور بدايات اليوم ونسمة خفيفة.

وقفت كاثرين أمام مرآة الحمام. لمست وجهها، نظرت إلى كفيها وذراعيها، لقد اسمر جلدها مؤخرا.

أمعنت النظر في عينيها.

إنها ليست شبحا.

وهي ليست ليدي شالوت.

أنا كاثرين هيثكليف.

كاثرين إرنشو.

كاثرين.

(**) قصيدة «حسناء شالوت» هي أغنية قصصية طويلة كتبها الشاعر الإنجليزي لورد ألفريد تنيسون عام ١٨٣٣. والترجمة العربية للقصيدة أعدَّها مشكورًا للرواية دكتور محمد عناني.

٧

دخلت مريم المطبخ في العاشرة صباحا لتعد فنجان قهوتها. لم يكن قد مرّ على نزول أمينة وكاثرين من البيت إلا أقل من ساعتين إلا أن الوقت بدا لها طويلا كأنه سنون. أطبق الصمت على أركان البيت وذكَّرها بأيام الاكتئاب الممطوطة التي لا تنتهي. منذ مجيء أمينة وكاثرين لم يخلُ البيت منهما في نفس اللحظة، فإما يكون ثلاثتهن معا وإما تظل أمينة مع مريم في فترات غياب كاثرين. لكن اليوم لدى كاثرين مقابلة في مدرسة بمصر الجديدة، وأمينة تستكمل جولاتها الاستطلاعية بحثا عن عمل.

فارت كنكة القهوة واندلقت الفقاقيع البنية فوق صاج البوتاجاز. على مريم أن تنظفها وتطرد رائحة الشياط قبل أن تأتي أمينة. أعدت كنكة أخرى وهدأت النار من تحتها وهي تدور بعينيها في أركان المطبخ. كم تغيرت ملامحه في الفترة الأخيرة! برطمانات التوابل نظيفة ومرتبة بنظام في الدواليب التي خرجت من بطنها أطنان من العلب الفارغة والتوابل منتهية الصلاحية والملح الذي تكلَّس والسكر الذي أكل منه النمل وشبع. لمع رخام الحوض وبان لونه الأبيض، حتى النافذة أصبحت تُدخل نورا أقوى بعد أن غسلت أمينة الزجاج وأعادته إلى مكانه.

أخذت الفنجان وجرجرت قدميها إلى صالة البيت. ألقت بجسدها فوق الكنبة وهي تشعر برغبة في البكاء. يبدو أن أمينة

جادة في موضوع البحث عن عمل والرحيل إلى بيت جديد، إنها لا تتوقف عن جمع المعلومات والنزول إلى كل مكان تعتقد أنها ستجد فيه عملا كما لو كانت مكاتب التوظيف ستتلقف خبراتها الفذة في لف محشي ورق العنب وتخليل الباذنجان!

مريم لا تفهم هذا العناد. هل تظنين يا أمينة أنك ستعثرين على شغل بتلك البساطة؟ قال: «ننزل ندور على شغل» قال! أطلعتها مريم على نسب البطالة وحال الاقتصاد المصري المضروب بالصُّرم القديمة، لكن أمينة، يا ساتر عليها عندما تقرر شيئا، قولي ساعتها ما تشائين يا مريم، فهي سوف تطرق رأسها بخجل وتشيح بيدها وتقول: «كفايه عليكِ يا بنتي مصاريف الشهر اللي فات. أكل ولبس وفسح وتلفونات. عموما بلاش مقاطعة. لما نلاقي شغل الأول!».

عاد البيت إلى صمته وكآبته. أصغت مريم السمع كأنها تنتظر أن تسمع ضحكة كاثرين في الشرفة أو صوت أمينة تغني: «وافضل أمنّي الروح برضاه ألقاه جفاني وزاد حرماني»! ماذا سيكون عليه حالها لو أنهما رحلتا بالفعل؟ لقد نسيت مريم أو تناست موضوع أوهام وضلالات «الذُّهان»، توارت الفكرة في كواليس دماغها التي امتلأت بالألوان والروائح والكلام وأغنيات أسمهان وعبد الوهاب؛ ما دفع بشبح الاكتئاب إلى الانزواء بعيدا. لا شك أنه يقهقه الآن وهو يفرك يديه متأهبا لاستعادة مملكته في أركان بيت «سيد قشطة».

أخذت فنجان القهوة واتجهت إلى حجرة المكتب، إلى الموقع الذي تعرفه جيدا في المكتبة الضخمة، هناك في الناحية اليسرى بجانب النافذة.

أخرجت «آنا كارنينا»(***) وجلست إلى مكتب أبيها.

كانت في الثالثة عشرة حين مات.

مات في حادثة.

بابا مات!

لم تحزن مريم، ليس لأنها لم تكن تحبه؛ لكن لأن كل ما شغل بالها في تلك اللحظة هو سؤال واحد: هل ستتركني أنا وأمي نعيش وجها لوجه؟

سيطرت عليها الفكرة. سيغيب أبوها ولن تجد من تجري إليه لتشتكي علقة أكلتها دون مبرر أو تأتيه باكية مستعطفة ألا يتركها مع أمها ويسافر. لن يأتي أبوها لنجدتها! لم تقل له قط إنها تخاف من أمها، لم تقل له حتى في الأوقات التي تتوقف فيها عن الصراخ في وجهها أو السخرية منها، حتى في صمتها إن ناهد مخيفة. لو كانت تعرف أنه سيموت لأخبرته، ولسألته أيضا كيف تزوج تلك المرأة، وكيف تحمَّل العيش معها عشرين عاما؟!

في اليوم التالي لموته دخلت مريم بهدوء إلى مكتبته، جلست على الأرض في ركنها المفضل منذ كانت طفلة. كان أبوها يسمح لها بالتواجد معه في أوقات عمله شرط أن تلتزم الهدوء. يجلس إلى

المكتب ويتركها تلتقط ما تشاء من الكتب وتقرأ. يرفع وجهه أحيانا من فوق الأوراق وينظر إليها من وراء نظارته الطبية المستديرة، يبتسم ويعود إلى ما بين يديه. في المساء كان يختار كتابا ويقرأ لها منه وهو يغير من نبرة صوته مع اختلاف شخوص الحكاية فتقهقه مريم.

تفقدت أرفف المكتبة التي تحتوي على الروايات وسحبت «آنا كارنينا»، هي نفس النسخة التي تلمس الآن غلافها القديم متآكل الأطراف. عادت إلى غرفتها وأغلقت الباب في وجه أمها وقوافل المعزين. لا تريد أن تسمع للمرة الألف قصة الحادث على الطريق الزراعي، وصوت ناهد وهي تزفر بأسى مزيف من بين نهنهاتها: «أحمد كان في طريقه لمناقشة دكتوراه في آداب الزقازيق. الإسعاف اتأخر..! مات أحمد ومش هيعيش ويشوفها بتدخل الجامعة وتتجوز.. إهئ إهئ...». نصبت أمها ليالي العزاء الطويلة، جعلت من نفسها بطلة فيلم تراجيدي فاجع فتنقلت ببراعة بين نوبات البكاء الهستيري وذكريات الحب الجميل، كيف كان أحمد يحبها ويموت في دباديب أهلها، على الرغم من أن أرشيف ذكريات مريم يخلو تماما من مشاهد تؤكد هذا الكلام. نظرت مريم الصغيرة إليها وفكرت أن بإمكان ناهد منافسة ميمي شكيب في أدوار الشر.

على الرغم من صغر سنها كانت مريم تعرف أن أمها كاذبة، وأن نبع الدموع المتجدد لم يكن على موت أبيها غدرا؛ ولكن لأن حياتها ستفقد أهم أركانها والمصدر الأساسي للتباهي كونها زوجة

الدكتور فلان؛ الناقد الأدبي وأستاذ الأدب الإنجليزي وأحد أهم....

انهمكت مريم في القراءة، بعد بضعة فصول كانت قد تركت دراما العزاء وراءها ودلفت بهدوء إلى الدوامة:

«على الرغم من الموت، كان يشعر باحتياج للحياة، وللحب. شعر أن الحب هو منقذه من اليأس، وأن هذا الحب، تحت تهديد اليأس، قد أصبح أقوى وأكثر نقاء. لم يكد لغز الموت العصي على الفهم يمر أمام عينيه، حتى بزغ أمامه لغز آخر على نفس الدرجة من الغرابة يدعوه إلى الحب وإلى الحياة»(****).

تركت مريم نفسها للدوران الخفيف، إنها الآن في روسيا ١٨٧٠، تتنقل بين موسكو وسانت بيتسبرج. هذه هي آنا، وليفين، وكيتي، وفيرونسكي. إنهم لا يرونها، لكنها هناك، تتلصص بمتعة على ما يحدث وراء الأبواب المغلقة: ارتباك فيرونسكي وعيناه المثبتتان على الباب الذي ستدخل آنا منه في هذه اللحظة، الزوج الذي يصر أن يظهر مع امرأته كل يوم حتى لا يشك الخدم أن هناك خلافا زوجيّا، صراع آنا بين قلبها المفتون وتقاليد سانت بيتسبرج. وآنا.. عيناها مثبتتان على العربة الثانية للقطار، وفي نفس اللحظة التي كانت المساحة الشاغرة بين عجلات القطار أمام عينيها، قذفت بالحقيبة الحمراء من يدها، أعادت رأسها إلى مكانه فوق الكتفين، نزلت على يديها تحت العربة، وبحركة خفيفة كأنها ستقوم فورا نزلت على ركبتيها. في اللحظة التي أصابها الفزع مما تفعله: أين أنا؟ ماذا أفعل؟ ولماذا؟ حاولت أن تقوم، أن ترجع إلى الوراء، لكن شيئا ضخما وبلا قلب خبطها وألقى بها إلى الخلف.

لا تعرف مريم لمَ اختارت تلك الرواية تحديدا، ولا تتذكر ما الذي فهمته فتاة في الثالثة عشرة من حكاية عن الحب والخيانة والحياة والموت. لم تفهم كل ما قرأت لكنها تتذكر جيدا كيف تحركت أحاسيسها بشكل لم تخبره من قبل، ذاقت الحزن والانكسار والحماقة والعشق المجنون كأنما كانت تستكشف في نفسها غابة المشاعر المجهولة.

عندما انتهت مريم من «آنا كارنينا» كان قد مرَّ على وفاة أبيها أكثر من أسبوع. تسحبت من غرفتها ودخلت حجرة مكتبه مرة أخرى، أغلقت الباب بالمفتاح حتى لا تقتحم ناهد خلوتها. كانت الغرفة معتمة وذات رائحة عطنة. فتحت النافذة فدخلت الشمس إلى المكتب وغطت الأوراق المتناثرة فوقه. مسحت التراب من فوق الكتب والورق الأبيض غير المسطر الذي يحمل خط يده الكبير. لملمت ملفات الأوراق ووضعتها في دواليب المكتبة السفلية. جلست على كرسيه الجلد وقتا طويلا، ثم قامت إلى المكتبة لتأتي برواية جديدة. التقطت «موسم الهجرة إلى الشمال» التي كان قد اشتراها أبوها قبل موته في عام ١٩٦٦، ولم يقرأ فيها إلا خمسا وثلاثين صفحة. تركت مريم الريشة الفضية التي يُعلِّم بها الصفحات في مكانها حتى الآن.

في مراهقتها عثرت مريم على كهف سري تختبئ فيه من شرور العالم. ربما كان هذا هروبا، لكن المؤكد هو أن ما قرأته في الكهف قد غيّرها إلى الأبد. لقد اتخذت وقتها قرارا أن تصبح مريمَ جديدة،

مريمَ لا علاقة لها بتلك الانطوائية المنبوذة التي يتجنبها بنات وأولاد المدرسة لأن الحبة عندها قبة هائلة، فهي تسيء فهم الكلام وتجعل من المزاح العادي مصيبة.

في الصف الأول الثانوي قررت مريم أن تعيد تشكيل نفسها من جديد وكان لها ما أرادت. أصبح لها أصحاب أخيرا وبعد طول انتظار، بل إنها بعد فترة من الاضطلاع بدور استشاري العلاقات العاطفية والمحلل النفسي لعُقد وكلاكيع الطفولة، أصبحت قبلة الحيارى والمعذبين من شعب المدرسة الذي تَوَّجَها حكيمة الحكماء التي لا يخلو جرابها من فكرة أو مخرج أو حيلة.

تعرف مريم أن كل رواية أسلمت نفسها لها وتمتعت بالعيش في عالمها، كانت تملأ جزءا من فراغ موحش داخلها. عام وراء عام كانت مريم تخطو بعيدا عن سنوات العذاب مع أمها، وتترك وراءها آلام الضرب والقسوة والسخرية التي تركت داخلها شروخا تمتد بطول جسدها وعرضه.

دقت ساعة الصالة الواحدة ظهرا. أفاقت مريم من شرودها ونظرت حولها. لقد شملت أمينة الحجرة برعايتها، رتبت أكوام الكتب والكراكيب في الأركان، أزاحت أطنان التراب التي تراكمت فوق أرفف المكتبة دون أن تخل بمكان كتاب. لم يطرأ على الغرفة أي تغيير باستثناء رزمة جديدة من الكتب تركتها أمينة على طرف المكتب لزوم الاستعارة. إن أمينة تلتهم الكتب بسرعة عجيبة!

تتبعت مريم نور الشمس الذي دخل من النافذة ورسم مثلثا كبيرا من الضوء فوق الأرض والكنبة والجدار. في قلب الضوء أحست كأنها ترى أباها. كان يجلس على طرف الكنبة وينظر نحوها. نظرت مريم إليه طويلا. تأملت عينيه اللتين بلون الزيتون الأخضر وشاربه القصير ودقة الحسن الخفيفة في ذقنه وشعره الأسود القصير. كيف تتذكره بهذه الدقة وهي التي تخلصت من كل الصور منذ وقت بعيد!

هل تعرف أنك لم تأتني قط في الأحلام؟

عموما أنا لا أرى أحلاما عادية. كلها كوابيس، وفي معظمها تحتل ناهد موقع البطولة. إنها تُصر على زيارتي بشكل منتظم. أحيانا أتذكر الكابوس كاملا، وفي أحيان أخرى لا أرى إلا عينيها.

هل قلتُ لكَ إنني حاولت الانتحار أكثر من مرة؟

هو شيء يشعرني بالخجل، بإمكانك أن تعتبر هذا اعترافا.

تقلص مثلث الضوء واختفت صورة أبيها وتركتها تفكر أنها لم تقف للحظة كي تستوعب أنه مات. خمسة وأربعون عاما مضت والحكاية ترقد داخل صندوق أسود قذفت به مريم في أبعد مكان داخلها ونسيت أين خبأته.

قامت من جلستها. أعادت «آنا كارنينا» إلى مكانها في المكتبة، ثم نزلت على ركبتيها وفتحت أحد خزانات المكتبة التي لا تتذكر محتوياتها. اندلقت كومات من الورق على الأرض. بعضها مكتوب

على الآلة الكاتبة والآخر بخط يد أبيها. مدت يدها إلى ملف ورقي أصفر كتب أبوها على غلافه بقلم أزرق سميك «رسائل فيرجينيا وولف». تصفحت الأوراق. لم تكن تعرف أنه يترجم لوولف، ولا إن كان قد انتهى من الترجمة أم لا. كان أبوها يحب كتاباتها، لكن مريم كانت تجد صعوبة في قراءتها. لم تكمل لها إلا كتابا واحدا كانت فيه البطلة معجبة بشجاعة الجندي الذي أقدم على الانتحار. «كم هو رائع ألا نخاف!». تذكرت هذا السطر من الرواية التي لا تذكر اسمها، وعادت تنظر إلى ركن الكنبة حيث جلس أبوها.

أنا في السابعة والخمسين ولم أستوعب موتك بعد!

عمري الآن سبعة وخمسون عاما!

كان أبوها قد مات في مثل هذا العمر بالضبط!

(***) رواية ليو تولستوي التي كتبها على حلقات بين أعوام ١٨٧٣-١٨٧٧.

(****) «آنا كارنينا»، ليو تولستوي.

٨

القرافة يا أمينة!

دمدم صوت مريم الداخلي دون أن تنطق بكلمة.

فتحت أمينة باب البيت ذا الشراعة الحديد والزجاج المغبش بينما ساعة الحائط الخشبية القديمة تدق الخامسة إلا الربع صباحا. ألقت نظرة على بسطة السلم كي تتأكد أن البواب مسحها بعد أن وبختها بالأمس: «بلاش كروتة يا عم مهني!». حلف الرجل ساعتها أيمانات مغلظة أنه يمسح السلم مرتين في اليوم، لكن القطط وأطفال العمارة الأشقياء يوسِّخونه.

أخرجت من المطبخ حقيبة «الشُّريك» و«المنين» المخبوز خصيصا لتلك الرحلة في فرن بوتاجاز مريم. مع كل كيس من الخبيز وضعت كبشة تمر. حملت كاثرين الحقيبة وخرجت من الباب. أما مريم فقد حاولت مداراة ما تشعره من قرف واستغراب وهي تجرجر جسدها المصعوق من الاستيقاظ في الرابعة والنصف فجرا بعد نوم لم يتعدَّ الساعتين. ما هذه الرغبة السخيفة التي تملكت أمينة؟ لماذا الإصرار؟! لولا أن التربة التي سيذهبون إليها هي لأهل مريم ما وافقت على الذهاب.

احمدي ربنا يا مريم أن أمينة لا تزال معكِ في البيت. أهون الأضرار أن تذهبي إلى القرافة!

دخل بهن التاكسي إلى «البساتين». قالت كاثرين إنه اسم شاعري لجبَّانة؛ وهو ما جعل مريم تفكر في الاسم للمرة الأولى. دار السائق في الشوارع الضيقة حتى وصل إلى البوابة المنشودة. من فوق اسم «عائلة سلامة» تكسَّرت بعض حروف الآية: (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضيَّة).

جرى نحوهم سربٌ من الأطفال وهم يزيطون بصوت كفيل بإيقاظ الموتى. نظرت كاثرين إليهم بفضول، أما مريم فقد أشاحت بوجهها في استهجان. فتحت أمينة الحقيبة ووزعت عليهم بعض الأكياس. في غضون دقائق كان عم «عيد» التُّربي قد حضر بعد استدعائه من قبل أحد الأطفال. لم يُخفِ الرجل استغرابه لزيارة الدكتورة. لقد جاءت هنا مع دفن الهانم من عامين تقريبا ولم يرها ثانية. لكنه لم يقصر في الترحيب بها، بالإضافة إلى شكاوى تخص قبر سعادة البيه الدكتور وأخيه والبيه الكبير الذي نشعت فيه المياه وسقطت قشور الطلاء....

قاطعته أمينة بشخطة صغيرة: «الزرع ماله عطشان كده يا عم عيد؟ روح الله يخليك هات ميه. بسرعة!».

تجمد لسان الرجل ونظر إلى أمينة برهبة. ذهب وعاد بجردل ماء بينما سيل التوبيخ مستمر: «روح دي ولا مش روح يا عم عيد؟! الدكتورة هتتكفل بالترميمات، لكن هتيجي كمان تسقي الشجر!».

واكتمل المشهد بظهور الشيخ حسنين فجأة كأنما كان يختبئ في

أحد القبور. تربع وبدأ في تلاوة آيات من سورة البقرة. استمعت كاثرين إلى النغمة وحروف الكلام الممطوطة.

(وبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلَّما رُزقوا منها من ثمره رزقًا قالوا هذا الذي رُزقنا من قبلُ وأوتوا به متشابهًا ولهم فيها أزواج مطهَّرةٌ وهم فيها خالدون).

ابتسمت كاثرين لنفسها وهي تفكر في كل الأساطير اللطيفة التي خلقها الإنسان. المسيح المخلِّص. الله السميع العليم. بوذا المستنير الذي يدرك كل شيء. لن تنسى أبدا الذعر الذي انتاب أمينة عندما أخبرتها أن البشر قد اخترعوا الرب كي يُهدئوا من خوفهم ويفسروا لغز الموت. كان لابد أن نصدق أن هناك من نكلمه ويسمعنا ويعدنا بخلاص وجنة أبدية في مقابل الصبر على البلاء. امتقع وجه أمينة وهي تسمعها، هزت رأسها وأشاحت بيدها وهي تستغفر الله نيابة عنها وتؤكد أن هذا الكلام حرام. حرام يا كاتي!

(لا يُكلِّف الله نفسًا إلا وُسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت).

انقبض صدر مريم ونبضت رقبتها بالألم. لقد جاءت إلى أمها بقدميها بعد أن ظنت يوم أن دفنتها في منتصف ديسمبر عام ٢٠٠٨ أنها لن تقترب من هذا المكان ثانية إلا مع موتها هي.

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربَّنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربَّنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا

واغفرْ لنا وارحمْنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين).

قالت أمينة: «صدق الله العظيم. ربنا يبارك لك يا شيخ حسنين».

تصرَّفت أمينة كأنها سيدة البيت. شكرت الرجل وأعطته من أكياس الشُّريك والتمر وبعض المال الذي أخذته من مريم. رافقته حتى باب التربة وعادت للجلوس بجانب مريم وكاثرين. كان «عيد» قد أتى إليهن بأكواب الشاي الساخن، وفتحت أمينة كيسا آخر ومررته على كاثرين ومريم.

كان الهواء ناعما في ذلك الوقت المبكر من الصباح وكاثرين مسترخية تسند رأسها إلى الحائط المتقشر، فبدا لمريم كأنها زارت هذا القبر ألف مرة، على العكس من حالها البائس، والذي ازداد بؤسا عندما أدركت أنها نسيت إحضار أدوية الصداع والضغط.

يلعن أبو شكلك يا مريم!

انتبهت على يد أمينة تلمس كتفها فارتجفت. فوجئت بتدافع الكلام من فمها دون تفكير: «أنا تعبانه يا أمينة، مش عارفه ده من قلة النوم ولَّا من وجودي هنا على بعد خطوة من أمي ولَّا من وجودك انتِ وكاثرين معايا، ولَّا يمكن لأني مش قادره أصدق إن شخصيتين اتكتبوا في روايات عايشين معايا في البيت من خمس أسابيع! الشيء المرعب هو إن جزء مني مصدق. وده معناه حاجة واحدة، إن أنا... اتجننت..!».

شعرت مريم بصدرها يرتفع وينخفض كأنها قد جرت أميالا،

رأسها يغلي وخيوط العرق تتدافع فوق جبهتها وثنايا ظهرها.

نظرت أمينة إليها بعطف ثم أدارت عينيها نحو شاهد القبر، قالت بنبرة هادئة: «أنا عارفه إنك بتسألي عن أصلنا وفصلنا. تفتكري أنا ما سألتش نفسي بدل السؤال ألف! أنا يمكن شكلي هادي، بس ساعات راسي بيبقى عامل زي الطابونه الخربانه. أنا هنا فعلا! طب إزاي؟ صوت جوايا بيضحك على عبطي ويقول لي: وهي دي أول مرة يا أمينة! أنا حكيت لك إني كنت مع كاتي في بيت مافيهوش غير ستات. لما سألتيني عن مكانه ما ردتش. عارفه ليه يا مريم؟».

نظرت مريم إليها في صمت.

«لإننا ما نعرفش هو فين!».

في أحد الأيام صحت أمينة من نوم بدا لها عميقا وطويلا. فتحت عينيها في سرير ليس بسريرها وبيت ليس ببيتها. خرجت من الغرفة وتجولت في المكان كما لو كانت في حلم. سرعان ما أدركت أنها في بيت ينتصب فوق تلّ صخري وسط خلاء بلا نهاية. تلك كانت أغرب لحظات حياتها. لو كانت قد رأت مائة عفريت والعياذ بالله، لكان الموضوع أرحم. لمست جسدها وهي تتمتم: «أنا... أنا أمينة بنت الشيخ عبد السلام الخضيري... حية!»

مرَّ يوم وراء يوم وأسبوع تلو أسبوع وأدركت أمينة أن هذا ليس بحلم. لم يكن أمامها إلا أن تتعرف على المكان، على البيت الذي امتلأ بنساء من كل صنف ولون ولسان، نساءٌ لم تستغرب إحداهن

وجودها كأنما كانت هناك دوما. هي فقط من كانت تتساءل.

من هؤلاء؟

أين أنا؟

ابتسمت أمينة وهي تتابع «عيد» يضع أمامهن فناجين القهوة وأكواب الماء البارد ويرفع صينية الشاي ويمضي. أراحت رأسها إلى الجدار الحجري ورنت إلى السماء. كانت مريم قد بدأت تنسى ألم رقبتها ومخالب الصداع.

لا تعرف أمينة من أين تبدأ، فالبيت لم يكن مجرد بيت، بل كان شيئا ضخما وفخما ولا سرايا عابدين في زمانها. ضحكت أمينة وهي توضِّح لمريم أنها لم تدخلها قط، لكنها كانت تسمع الحكايات وترى الصور. كانت حجارة البيت دبشا رماديّا وفوقه سبعة أبراج ويقف وحيدا على حرف تلّ عالٍ كأنه جزء من الصخرة المبني فوقها. في الداخل غرف بلا عدد، هذا غير الغرف السحرية، هناك واحدة تحت السلم الخشبي الكبير، وأخرى في نهاية طرقة الدور الثاني، وهي الغرفة التي اكتشفتها عزيزة بالصدفة لأن بابها كان بنفس لون الحائط الرمادي ودون مقبض. يحتوي الدور الأرضي على عدة صالونات وحجرة المكتبة ومطبخ كالساحة التي يرمح فيها الخيل رهوانا. هذا غير القبو الذي كانت تخافه أمينة فمن أدراها من هم ساكنوه من الجن أو العفاريت الزرق!

يشكِّل جدار البيت الشرقي خطّا مستقيما مع طرف التلّ العالي،

فلو حدث مثلا أن أوقعت إحدى النساء شيئا من نافذتها فالعوض على الله. أما الناحية الغربية فهي مفتوحة على حديقة شاسعة قد يقضي الواحد نصف يوم كي يمشيها. في قلب الحديقة نافورة مرمر عثرت عليها أمينة مصادفة تحت تلّ صغير من الحشائش البرية. بعد زمن من مجيئها نظفتها أمينة ورممت الشروخ وغسلت المواسير من الصدأ فعادت كالعروس يوم زفافها. وهناك سلم حجري متآكل من الزمن ومن مياه المطر يقود إلى أسفل التلّ.

أين أنا؟

لم تكن أمينة تعلم أن هذا السؤال البسيط سيظل عالقا بلا إجابة حتى هذه اللحظة التي تجلس فيها أمينة في تُربة أهل مريم. لقد دارت على قاطنات البيت واحدة تلو الأخرى.

يعني يا أوفيليا(*****) يا بنتي إنتِ هنا من قبلي بكتير زي ما بتقولي. ما تعرفيش إحنا في أنهي بلد من بلاد الله؟

ابتسمت أوفيليا بعينيها التائهتين، أمسكت بكتفيّ أمينة بيدين مثلجتين وكلمتها كمن تحايل طفلة: «ما هذا السؤال الساذج؟ هل لو عرفتِ فسيتغير أي شيء؟ لماذا ننبش عن الشقاء بأيدينا؟»، ثم ارتفع صوتها مؤنبا: «أتعرفين يا أمينة، أنتِ مثل هاملت الذي لا تنتهي أسئلته، ضجيج بلا طحين؟»، ثم تركتها ومشت وهي تردد: «ضجيج بلا طحين» وتضحك.

كان على أمينة أن تعرف أنها لن تأخذ منها حقّا ولا باطلا.

بعد أيام، لا بل بعد أسابيع من الحيرة والتخبط، خرجت أمينة إلى الحديقة الملاصقة للمطبخ كي تأتي ببضع حبات من الطماطم. توقفت للحظة ونظرت إلى الثمرة في يدها التي ضوَّى لونها الأحمر في نور الشمس. مرت بأطراف أصابعها فوق جلدها الناعم المشدود الذي يكاد ينفجر بالحياة.

«الحمد لله».

قالتها وتلفتت حولها كمن ترى المكان لأول مرة. ما كل هذا الأخضر؟ كأنها أرض الله البكر. التلال تمتد من حولها حتى تلاقي السماء، والسماء لم ترَ أمينة شيئا يشبهها، كأنها إنسان يتنفس وتتغير سحنته بين دقيقة وأخرى. تلك الأشجار الضخمة، كأنها كانت هنا منذ الأزل، والبراح ممتد بلا نهاية! على مرمى البصر لم تلمح أمينة أثرا لإنسان. لم تكن هناك إلا الطيور في السماء ومجموعات خراف متناثرة فوق العشب وأحصنة برية ترمح بين التلال كأن الأرض أرضها.

«الله!».

ظل قلب أمينة وشفتاها يرددون الكلمة بلا توقف.

هل هذه هي الجنة التي وصفها الرسول فقال: «ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر»؟! لكن الحيرة تملكتها. هل في الجنة بيوت مثل بيوتنا، حتى لو كانت بيوتا كالسرايا؟ هل يرطن الناس هناك بلغات شتى لكنهم يفهمون بعضهم بعضا؟ لماذا

لا يوجد صنف الرجال هنا؟ هل في الجنة مكتبة؟

والمكتبة في حد ذاتها حكاية. لقد قادتها قدماها بسهولة إلى مكان الكتب العربية. لا تعرف أمينة كيف عاد إليها ما تعلمته طفلة في الكُتَّاب. بعد فترة قصيرة أصبحت تلتهم الكتب كأن عالمًا سحريًا قد انفتح أمامها. قرأت الجبرتي وطه حسين والمنفلوطي، والتهمت كل ما وجدته مكتوبا عن عرابي باشا ومذكرات سعد زغلول وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس ورضوى عاشور. القائمة أكبر من أن تتذكرها أمينة الآن. بعد بضع سنوات سوف تتعلم أمينة الإنجليزية وتبدأ في استكشاف جزء جديد في المكتبة. لم تعد تستغرب رغبتها في الانتهاء من مهام المطبخ واليوم في أوله كي تعود لكتاب بين يديها. حتى في أوقات الربيع والصيف حين تخرج مع باقي النساء إلى الغابة كانت تصطحب معها كتابا.

«لحد ما جه اليوم الصعب يا مريم».

«صعب؟!».

سكتت أمينة كي تلتقط أنفاسها. شربت جرعات من كوب الماء وهي تنظر نحو كاثرين التي ابتسمت لها، وعادت تنظر إلى مريم: «يومها كان مطر ورعد من صباحية ربنا. السما كانت ضلمة في عزّ الضهر وأنا عينيَّ بتتنقل بين «قنديل أم هاشم»(******) اللي باقراه والزعابيت اللي شايفاها من باب المكتبة الإزاز ولساني بيترحَّم على شمس مصر وقعدتي مع اللبلاب فوق السطوح. خلصت الكتاب

وقمت أدوَّر ع اللي بعده. إيدي وقعت على كتاب مش عارفه إزاي ما شفتوش م الأول. ده حتى عنوانه كان مفروض يناديني. لقيت في «بين القصرين» حكايتي! إيه ده؟ ده أنا..! وده البيت الكبير والعيال والإنجليز وسعد باشا والمظاهرات و...!».

قرأت أمينة والأسئلة تدق رأسها كمطارق حي النحاسين. من كتبَ حكايتي؟ هل هو أحد أصحاب كمال، أم هو كمال نفسه؟ ألم يكن له شغل ولا شاغل إلا الكتب!

والكتاب.. الكتاب يقول إنها قد ماتت! لكنها تتنفس وتأكل وتشرب وتحلم بالبيت الكبير والعيال ورائحة الخبيز! ما الموت؟ هل هذه هي الجنة؟ نادت على كاثرين فجاءت تجري منزعجة: «فيه إيه يا أمينة؟». حكت لها وهي تمسك بالكتاب وجسدها كله يرتعش. أخذتها كاثرين من يدها بهدوء وأنزلت كتابا من فوق الرف: «مرتفعات وذرنج». وضعت في يدها النسخة القديمة ذات الورق المصفر التي حملت تاريخ أول طبعة ١٨٤٧ وقالت: «هنا أنا مت وأنا عندي ١٩ سنة. بس فضلت شبح هايم بيلف حوالين المرتفعات عشرين سنة كمان» وضحكت. أضافت كاثرين أن كل واحدة من نساء «بيت السيرينت» لهن حكايات مكتوبة.

نظرت أمينة إلى كاثرين في ذهول: «وإيه السيرينت ده كمان؟».

ابتسمت كاثرين وقالت إن السيرينتات هن نساء. نساء يا أمينة. وسرعان ما تجهمت سحنتها وهي تؤكد أن على أمينة أن تحذر

منهن. نعم. إياكِ والإنصات إلى أي أغانٍ قد تسمعينها في هواء منتصف النهار أو في ليالي المحاق!

لم تفهم أمينة شيئا مما تقوله كاثرين. كانت الأرض تميد بها.

ما هذا المكان؟ من الذي أتى بكل هؤلاء النساء هنا؟ ما هذا الخرف الذي تحكيه كاثرين؟ هل يمكن يا أمينة أن يكون هذا البيت غير حقيقي؟! أو ربما أن كل هؤلاء لسن إلا أشباحا تهيم على وجوهها في الخلاء!

هل هي وكاثرين ولوسي وأوفيليا وكل الأخريات مجرد حكايات؟!

تركت أمينة الكتابين ومشت في البيت كالمجاذيب. تلمست الحيطان واللوحات والكنب والبيانو وجسد الهارب. قرصت ذراعها فأحست بالألم وازرق جلدها، خرجت للحديقة، اتجهت نحو شجرة البلوط وألصقت وجهها بالجذع الضخم كأنها تحتمي به. التفتت إلى البيت وراءها، كان واقفا ينظر إليها دونما اكتراث وعند النافورة وقفت كاثرين تنظر إليها بشفقة.

أراحت أمينة رأسها إلى حائط المدفن وتنفست. ظلت عينا مريم مثبتتين عليها وهي تشعر كأنها تهبط في عمق بحر سحيق، لا هي تستطيع الطفو إلى أعلى ولا حتى بإمكانها أن تلمس بقدميها أرضا صلبة وحقيقية.

قالت مريم: «تعرفي، من ساعة ما قابلتك وأنا حاسَّه إنك مختلفة

عن أمينة اللي في «بين القصرين» كإنك حد تاني!».

ابتسمت عينا أمينة العسليتان: «حد تاني إزاي يعني؟».

«إنتِ مش ساذجة وعلى نياتك زي الست اللي في الرواية».

ضحكت أمينة وهي تسأل مريم إن كانت تعرف عدد السنوات التي تفصلها عن تلك الأمينة.

«بما إننا طلعنا دلوقتِ في ٢٠١٠ دول يبقوا ٦٦ سنة. يعني قد اللي عشته من ساعة ما اتولدت لحد ما ربنا افتكرني بعد الحرب بسنة. واللي مرَّ عليَّ في بيت السيرينت ما يكفيهوش ثلاثية عشان يتكتب. كفايه أقول لك إني لما فكرت أتعلم إنجليزي كنت حاسَّه كإني باخون فهمي. أخدت وقت عشان أفهم الفرق بين اللي ضربوا ابني بالرصاص واللي كتبوا الكتب اللي قريتها».

«وانتِ وكاثرين، واضح إنكم كنتم أصحاب هناك».

ضحكت أمينة: «أصحاب! أنا كنت باخد بالي منها لما تتعب. بس طول ما هي زي الفل تلاقيها واخده في وشها وطايحه في الخلا طول النهار! زي ما انتِ شايفاها هنا كده».

رفعت كاثرين وجهها نحو أمينة بابتسامة لم تفهمها مريم.

الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن....

علا صوت أذان العصر فابتلع صوت أمينة وأسئلة مريم.

خارج باب المدفن، جلس عم «عيد» متعجبا من تلك الزيارة

الطويلة. فكر أن يترك مكانه ويذهب للصلاة، لكنه خاف أن تحتاجه الدكتورة في شيء فلا تجده، كما أنها ربما تمشي دون أن تمنحه النفحة، فقرر أن يصلي لاحقا.

انتهى الأذان فقام «عيد» واقترب بهدوء. دفع الباب الحديدي القديم فوجده خفيفا ولم يحدث صريره المعتاد، من الداخل لفحت وجهه هبات هواء بارد كأننا في عز يناير ورائحة مسك. نظر يبحث بعينيه عن النساء الثلاث.

رأى حوش التربة الصغير ملونا بشكل عجيب؛ أشجار كبيرة زاهية الخضرة تعلو فوق السور وتتمايل مع الهواء وشجيرات بزهور حمراء وبيضاء كثيرة جدًّا، أكثر مما رأى «عيد» في أي وقت من أوقات حياته الطويلة. والسماء كانت زرقاء تبين فيها سحب بيضاء تحوطها هالة من البرتقالي الخفيف. عاد بعينيه إلى الساحة ورأى التربة مزدحمة بعدد لا يحصى من النساء. يا سبحان الله! كن يتكلمن ويضحكن وفي أياديهن كئوس شراب وردي وشفاف وأحمر غامق كدم الغزال!

شعر عم «عيد» بالأرض تدور من تحت قدميه بعنف. أغمض عينيه وفتحهما وقد تخشَّب في مكانه. كان قلبه ينتفض بين ضلوعه كمن رأى عفريتًا، ثم انتبه فجأة على الدكتورة والست الأجنبية تمرقان من الباب إلى الخارج ومن ورائهما ظهرت الست أمينة، دست في يده بعض المال وهي تقول: «خلي بالك م الزرع يا عم عيد. هنعدي نطمن كل فترة. فوتّك بعافية».

(*****) أوفيليا هي حبيبة هاملت في مسرحية وليام شيكسبير «هاملت»، والتي كتبها في تاريخ غير معلوم بدقة ولكنه يقع بين ١٥٩٩-١٦٠٢.
(******) رواية «قنديل أم هاشم» ليحيى حقي، صدرت عام ١٩٤٠.

٩

بعد منتصف الليل بقليل كانت أمينة وكاثرين نائمتين، بينما مريم ترقد في سريرها بعينين مفتوحتين عن آخرهما ودماغ غير قادر على استكمال القراءة.

«في عصر لا يفتقر إلى النوابغ والسفلة، عاش في فرنسا في القرن الثامن عشر رجل من أكثر الكائنات نبوغا و**سفالة**»(*******).

بعد أن كانت مريم قد وصلت إلى الصفحة الثلاثين، عادت إلى الصفحة الأولى من رواية «العطر». قرأتها ثانية ثم أغلقت الكتاب وألقته جانبا. كانت الكلمات تنزلق أمام عينيها فلا يتبقى لها أثر ويتحتم عليها العودة إلى الوراء. إنها عاجزة عن التركيز، عقلها مشغول بما حكته أمينة يوم زيارة القرافة. على مدار الأيام الماضية، ظل شريط الكلام يعيد نفسه في رأسها مصحوبا بأسئلة عن بيت لا يستطيع أصحابه تحديد مكانه، عن مكان بلا زمن لا يشيخ أناسه ولا يموتون!

تذكرت وجه كاثرين وهي تتابع الحكاية، الصور التي رأتها في عينيها ورفضها أن تتكلم عن السيرينتات عندما طلبت منها أمينة أن تفسر لمريم من هن. سكتت كاثرين فقالت أمينة إن كثيرات من نساء البيت يعتقدن أن تلك الحوريات يعشن في البحيرة التي في الغابة، وإنهن وراء اختفاء بعض النساء اللاتي خرجن للبحث عن مصدر أغنيات يسمعنها في الليل ولم يعدن، ثم أشاحت بيدها

وقالت: إن كل هذه أوهام يا مريم، أوهام. إنها لم تصدق يوما هذا الكلام، فلا هي سمعت شيئا ولا رأت من البيت إلا كل الخير.

جذبت مريم الموبايل وفتحت الإنترنت. كتبت Sirens، وداست على زر «بحث». ظهرت لها صورة تمثال صغير الحجم لامرأة بجناحي طائر، وقدمين تشبهان أقدام الطيور. تقول الموسوعة البريطانية إن السيرينت في الأساطير الإغريقية هي نصف امرأة نصف طائر كانت تغوي البحارة وتقودهم إلى الهلاك بأغنيتها الساحرة. في الإلياذة نعرف كيف أنقذت الساحرة «سيرسي» البطل «أوديسيوس» من الموت. لقد نصحته بأن يغلق آذان كل طاقم بحارته بشمع العسل حتى لا يسمعوا الأغنية في أثناء عبورهم بالقرب من الجزيرة التي تسكنها السيرينتات. أوديسيوس نفسه، كم كان يودُّ لو سمع تلك الأغنية، لكنه طلب من البحارة أن يقيدوه إلى ساري السفينة حتى لا يتمكن من تحويل مسار السفينة لو أنه سمع أغنية الغواية. لكنه سمعها وظل يتوسل إلى طاقم السفينة كي يفكوا وثاقه فرفضوا ونجا «أوديسيوس».

قلَّبت مريم في صفحات الإنترنت التي أشارت إلى روايات متعددة عنهن، لكنها تحمل خيوطا مشتركة من عينة أنهن موسيقيات، لهن أصوات خلابة، متمردات، قاتلات وأن صوت سرينة الخطر يعود بجذوره إلى عالم السيرينتات.

لكن ما العلاقة بين السيرينتات والبيت الذي تتحدث عنه أمينة؟

اعتدلت مريم في السرير وهي تكرر السؤال في رأسها. استغربت أنها أخذت الموضوع بهذه الجدية كأنها ستجد في إجابة السؤال مفتاح لغز أمينة وكاثرين!

تعدت الساعة الثالثة فجرا ومريم تدور في دوامة دماغها وتنظر بين حين وآخر إلى الكتاب المقلوب على وجهه بزهق. لماذا لم تعد قادرة على الاندماج في رواية؟ إن «جرينويل» بطل «العطر» لم يقصِّر معها. حاول قدر استطاعته أن يرمي بشباك حكايته حولها. ربما لو كانت مريم في أيام الكهف السري، حين كانت تقفز بسهولة إلى عالم الروايات وتبقى هناك كما يحلو لها، لعاشت مع تلك الرواية أياما لا تنسى. كانت سوف تتتبع بشغف مسيرة حياة «جرينول» الذي ولد في سوق السمك، ونجح أن يجعل من نفسه شخصا غير مثير للاهتمام؛ فتركه الناس وحاله. كان هذا بالتحديد هو ما يطمح إليه، فهكذا سيبدأ رحلته المجنونة في اكتشاف العطر؛ وسيلة الإقناع الأقوى من اللغة ومن الشكل والمشاعر والإرادة؛ تلك المادة من السحر الخالص التي لا يمكن ردعها، فهي تدخل إلى صدورنا كما الهواء، تملؤنا وتستحوذ علينا.

هل لا تزال روحكِ تهفو إلى الكهف السري يا مريم؟!

زفرت بضيق وحرارة الجو تكبس على أنفاسها. تكاد تشعر أنها في قلب أغسطس وليس في الأيام الأولى من يونيو!

رقدت في السرير وبحلقت في السقف. ليس ثمة أمل في النوم.

قلَّبت في علب وشرائط الأدوية بجانبها بحثا عن المنوم. لكن يدها توقفت وصوت أمينة يتردد في دماغها: «أهي البلابيع دي هي اللي بتهد حيلك، وتخليكِ عامله زي الخضار الدبلان».

اهتز صدرها بضحكة مكتومة.

أحست بخيوط العرق الرفيعة تسرح فوق رقبتها وكتل اللحم في ظهرها. هل تدير المكيف؟ لكن نظرة واحدة نحو العلبة الحديدية الصدئة التي تراكم التراب على حوافها وسوَّدها، كانت كفيلة بأن تثنيها عن عزمها. إن أزيزه فقط سوف يطيِّر النوم من عيون سكان الروضة أجمعين، وبالطبع ستصبح أمينة وكاثرين أوائل الضحايا.

عادت تبحلق في السقف وأحست كما لو كانت ترى ملامح باهتة لبيت السيرينتات.هل لو دققت بما يكفي فسترى النساء يتحركن في الحديقة المحيطة بالبيت؟ ضحكت وهي تفكر أنها قد تخطت أبواب الجنون ودخلت سالمة غانمة إلى عالم الضلالات، ولتنعمي هناك يا مريم بالسلام المنشود!

ترررررررررن

انتفضت على رنين الموبايل.

ظاظا!

«السلام عليكم يا مريم. صحيتك؟».

لظاظا أسئلة غبية أو متغابية، فهي تعرف أن مريم لا تنام إلا نادرا.

لم ترد.

في الحقيقة لم تكن ظاظا في انتظار الرد، فقد بدأت فورا في الرغي الهستيري: «اسكتي يا مريم اليومين اللي فاتوا كانوا حاجة صعبة. ماسورة الميه ضربت في فيلا مارينا، وسيبك من السفر لوحدي، ما انتِ عارفه طبعا إن فتحي شايل إيده من كل حاجة، مش دي المشكلة، تتصوري الماسورة دي هتكلفنا كام؟ ٨ آلاف جنيه يا مريم. ٨٢٥٠ كمان! تخيلي! قال إيه شبكة الصرف كلها فيها مشكلة! أنا مش عارفه ألاقيها من السبَّاك ولا من دكتور الأسنان الحرامي! تتصوري الأسبوع اللي فات....».

توارى صوت ظاظا أمام الطنين الذي شعرت به مريم في دماغها. أخذت تسب وتلعن غباءها الذي جعلها تفتح الخط وهي تعرف ما ينتظرها. لم تسألها ظاظا قط عن حالها، إلا من باب سد الخانة، «وانت عامله إيه يا مريم؟»، وما إن يأتيها الرد المحفوظ: «تمام الحمد لـ...»؛ حتى يطمئن قلبها وتعود إلى قفش خيط الكلام. وظاظا كلامها لا يخرج أبدا عن الشكوى. لديها قفة ممتلئة بتشكيلة متنوعة من الكوارث متعددة الأحجام والألوان تلقيها فوق دماغ مريم، ثم تغلق الهاتف وتعود إلى ممارسة حياتها بشكل عادي.

علا صوت الطنين. هل تغلق الهاتف وتلقي التهمة على شبكة المحمول الرديئة والرأسماليين أولاد الكلب؟ لقد فعلتها من قبل. لكنها انتبهت على اسم «يزيد» وتغير نبرة ظاظا، فقد تراجع صوت البلدوزر الذي يطحن الأدمغة وظهر صوت امرأة على حافة

البكاء. رفعت مريم من صوتها بعصبية كي توقف الكلام: «ظاظا، الخط كان بيقطع، ماله يزيد؟».

مريم تحب يزيد منذ أن شاهدت خروج رأسه من رحم ظاظا منذ ثمانية وعشرين عاما وكانت هي أول من احتضنه بعد أن حمموه وأعطوه لها حتى تفيق أمه من البنج. لا تزال تتذكر كفيه المنمنمتين وعظامه اللينة وسخونة جسده فوق كفيها.

كررت ظاظا الكلام بصوت مرتعش: «باقول لك يزيد.. يزيد يا مريم بيحب بنت زميلته في الشغل».

«طب دي حاجة جميلة يا ظاظا، مخضوضة ليه؟».

ردت ظاظا بحنق: «البنت مش ملتزمة!».

«مش ملتزمة تجاهه؟!».

عادت نبرة البلدوزر إلى صوت ظاظا: «إنتِ بتتريقي عليَّ يا مريم؟ البنت مش متدينة التدين الصحيح. أنا مش طالبه نقاب. بس دي حتى مش محجبة و...!».

صرخت مريم: «بس.. بس يا شيخة. إنتِ مين؟ انتِ بقيتِ مين يا ظريفة؟! أحا!».

لم تعرف مريم إن كانت هي من أغلق الخط في وجه ظاظا، أم أن ظاظا لم تتحمل ثقل الـ«أحا» فكتمت النفس وعادت لتنكفئ على جراحها. انتهت المكالمة ومريم دمها قد فار وصعد كالصاروخ الأرض ـ جو ليضرب نافوخها.

مدت يدها إلى شريط المهدئ وابتلعت حبتين. أغمضت عينيها وحاولت أن تتنفس. عادت إليها اللحظة التي رأت فيها ظاظا للمرة الأولى. عند باب المشرحة، نظرت مريم ذات الثامنة عشر عاما إلى البنت ذات الشعر القصير جدًّا التي ترتدي بلوزة برتقالية وتتكلم بصوت عالٍ وسط مجموعة من زملاء الدفعة. تمنت لو كان لديها تماسك ظاظاً وتلك العينان اللتان تعرفان جيدا ما تريد صاحبتهما. أصبحتا صديقتين وتبادلتا الكتب والأسرار، فظاظا هي أول من عرف عن اللحظة العجيبة التي شعرت فيها مريم أنها تحب ناجي. من كان يتصور أنهما سيصبحان عاشقين بعد أربع سنوات صداقة!

كما تابعت ظاظا أيضا خوازيق أم مريم من أجل إفشال العلاقة بدءا من السخرية من ناجي أمام كل من هب ودب: «أيوه دكتور صحيح، بس ابن نجار من شبرا! لو كان أبوها عايش...!»، ووصولا إلى ادعائها أن ناجي قد تحرش بها وأنها حاولت أن تخفي الأمر عن مريم حتى لا تجرحها، لكنها شعرت أن عليها أن تحكي ما حدث ولمريم القرار الأخير!

الشيء المضحك هو أن ناجي قد مات من زمن بعيد وناهد هي التي عاشت كي تناكفها وتسمم حياتها.

لكن ظاظا.. صاحبتي، كيف أصبحت تلك المرأة البائسة!

على الرغم من أنهما على اتصال فإن مريم تعرف أنها فقدت ظاظا.

انقطع الخيط الأخير الذي يربطها بذاك الزمن. من قبله تقطعت خيوط مع شلة الكلية؛ منهم من هاجر ونفد بجلده من البلد؛ ومنهم من كبر وأصبحت له اهتمامات الكبار، عيادات ومستشفيات وفيلات في منتجعات البحر الأبيض والأحمر والبنفسجي والكاروهات!

لقد صنعوا حياة يا مريم. كونك تحتقرين اختياراتهم فـ«طظ».

إلهي يحرقك يا ظاظا. قلَّبتِ عليَّ مواجع بلا أي لازمة. ناجي وناهد وعفاريت زرق!

مدت يدها إلى الكتاب مرة أخرى. فتحته بشكل عشوائي. كان «جرينويل» يتلصص على الصبية ذات الرائحة المنعشة التي لا تشبه تأثير الليمون أو الرُّمَّان، رائحة تجمع بين الأثيرية والمادة، كأنها حرير وفي نفس الوقت هي كعكة غارقة في اللبن المحلَّى بالعسل. قرأت بضعة أسطر وأغلقت الكتاب. نظرت إلى السقف تقتفي أثر بيت السيرينت. لم يكن هناك إلا لون الطلاء المصفر وخطوط مبهمة متداخلة.

أشارت ساعة الحائط إلى الرابعة والنصف صباحا. أطفأت نور الأباجورة وصدرها يمتلئ بالدموع، لكنها لم تبكِ.

(*******) رواية «العطر» نشرت عام ١٩٨٥، وهي للكاتب الألماني باتريك زوسكند.

١٠

بيت مريم في جزيرة الروضة

١٠ يونيو ٢٠١٠

خمسة إلا ربع الفجر.

اصطبحنا وصبح المُلك لله.

قلت أكتب شويه عشان أرتب دماغي. الفترة اللي فاتت، ما عملتش حاجة غير التدوير على شغل. قلت أركز الأول على المدارس. ابتديت بالقريب. جبت من البواب كشف حالة عن سكان العمارة، ورحت خبَّطت على الست إيمان اللي في نفس الدور، عزمتها تشرب معايا فنجان قهوة، لكن أصرت هي اللي تعزمني. شكلها كانت مستغربة إن حد من طرف الدكتورة مريم بيخبط على بابها. واضح إنهم ما يعرفوش بعض كويس.

دخلت في الموضوع على طول. قلت لها إن أنا وكاترين بندوَّر على شغل في التدريس. أخدت منها معلومات عن مدرسة عيالها، أصلها وفصلها وإن كانت تعرف تسأل حد من مدرسين ولادها عن المرتبات، وطلبت منها رقم الإدارة عشان آخد ميعاد وأروح أقابلهم. وإيمان عرفتني على أمهات تانية. قابلت ييجي عشر ستات

ولادهم في ست مدارس متنتورة في القاهرة شمال ويمين. عملت قايمة بالمدارس وبدأت أخبط ع الأبواب. فيه منهم اللي ما ردش عليَّ، وفيه اللي قالوا إن سني كبيرة، وما عنديش قال إيه «سيرة ذاتية» في التدريس! وأنا أجيب لهم سيرة منين؟! ولَّا يمكن أكتب لهم ٦٦ سنة، تلات أرباعهم في بيت أحمد عبد الجواد، و٦٦ تانيين في حته ما اعرفش مكانها، وكل خبراتي الإدارية تنحصر في تنظيم شغل المطبخ وأمور العيشة. هم يبكِّي وهم يضحَّك. لكن كذا مدرسة كانوا مهتمين بكاتي. أول ما يسمعوا إنها إنجليزية يطلبوا يقابلوها. راحت مقابلتين منهم، والناس قالوا إنهم عايزينها. قالت لهم هتفكر. وعندها النهارده مقابلة الساعة ١١ الصبح في مدرسة في الدقي. بس شكلها ميّاله أكتر للمدرسة البعيدة. سألت مريم: فين القطامية دي؟ راحت مطلعالي خريطة على الكمبيوتر وفرجتني. دي في آخر بلاد المسلمين! كاتي قالت: بس يا أمينة بيدفعوا مرتب كبير. قلت لها: طب والمشوار؟ قالت هتروح وتيجي في أتوبيس المدرسة. قلت اللي فيه الخير يقدمه ربنا واحنا محتاجين كل مليم. وكمان لو الشغل ده جه، هيلهيها شويه عن العفاريت اللي بتتنطط في دماغها، شويه حكاية الست شالوت، وشويه هيثكليف وإدجار وأخوها المفتري. إمبارح قالت لي:

تتصوري يا أمينة من ساعة ما جينا وأنا ما حلمتش بالمرتفعات! ٥ أسابيع يا أمينة!

قلت يا رب يا كريم. ده الحلم من دول أقله هيقلب مزاجها كام يوم، يا إما والعياذ بالله يصيبها بالحمى إياها. عمري ما أنسى أول معرفتي بيها في بيت السيرينت. كنت معدية من قدام أوضتها رايحه الحمَّام بالليل وسمعتها بتزعق وتعيط: «لو أنا ارتكبت خطأ فأنا بادفع حياتي ثمن.. فاهم.. حياتي». خبّطت على الباب، ما ردتش. قلت ما بدهاش، دخلت لقيتها نايمه بتهذي، جسمها كان سخن زي النار وبيترعش. نزلت جري ع المطبخ عملت خلطة الأعشاب بتاعة الحمى ورجعت شربتهالها. بعد ييجي ٣ أو ٤ أيام فاقت وطلبت تاكل. الله لا يرجعها أيام.

المهم، وأنا بألف ع المدارس بأدوَّر برضه على شقق للإيجار. عرفت من بوابين الروضة إن الإيجارات هنا غالية جدّا، بالآلاف. هو إحنا لما نشتغل هنكسب كام عشان ندفع كام ألف في إيجار! ثم أنا أصلا عايزه أجاور. أول ما الفكرة جت في بالي ما كدبتش خبر. رحت نازله دوغري ع السيدة عيشة والسيدة زينب. الشقق إيجارها معقول، بس مخوخة ومحتاجة ترميم. فيه شقة في السيدة عيشة أرضيتها كانت بتتهز وأنا ماشيه لدرجة إني خفت أقع فوق دماغ

السكان اللي تحت. في السيدة زينب شفت شقة عجبتني. قلبي راح لها من وأنا تحت البلكونة. بس طلعت مش معروضة للإيجار. بعد الأب والأم ما ربنا افتكرهم، ابنهم قفل الشقة وعايش في مدينة نصر. قلت لصاحب القهوة اللي شاورلي عليها: هات لي رقم الراجل ينوبك ثواب. طلع مش عنده. رحت طالعه العمارة وخبطت ع الشقة اللي جنبها، طلعت لي ست أميرة اسمها أم محمود. لقيت معاها نمرة الباشمهندس صاحب الشقة. هكلمه النهارده، بس لما الساعة تيجي ٩ ولا ١٠ كده.

بعد ما نزلت يومها من عند الست أم محمود، رجلي كانت بتاكلني عشان أروح النحاسين.

قلت لنفسي: معقول يا أمينة، بينك وبين بيتك فركة كعب وما بتفكريش تروحي!

وقفت شويه في باب الخلق، رجلي عايزه تحوِّد ع السكرية ومنها على بين القصرين وقلبي بيرفَّص في صدري كأنه مش عايزني أروح. كنت متلخبطة. يعني ممكن.. يعني احتمال أقابل في الشارع خديجة ولا كمال ولا فهمي، بس فهمي مات! ضحكت على عبطي. ما انتِ كمان مُتِّ يا أمينة!

أول يوم جينا طلعت على بين القصرين، بس ما عرفتش ألاقي

البيت.

هو إبره في كوم قش يا أمينة؟ ده بيت طويل عريض!

أنا عارفه بقى! ما أنا كمان ما عرفتش ما عرفتش ألاقي قبر فهمي، وأنا اللي كنت زمان رايحه جايه عليه كل يوم! لما ما لقيتوش قلت أروح تربة أهل مريم، وأهو ربك رب قلوب.

فضلت متسمرة شويتين والأفكار بتترزع في دماغي، وبعدين ركبت للروضة.

الساعة جت ٦.٣٠. عايزه أقوم أحضَّر الفطار قبل ما كاتي تقوم.

آه، كنت هانسى أكتب عن حلم امبارح.

حلمت بسي السيد. كنا في أوضتنا في بيت بين القصرين. كان راجع مصهلل من قعدة الأنس وشارب له كاسين خمرة. قعد يرغي معايا عن الوفد المصري، سعد باشا زغلول وعبد العزيز بك فهمي وعلي باشا شعراوي اللي راحوا دار الحماية النهارده، وقابلوا نائب الملك «للمطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال». قالها كده بصوت فخم. وأنا كنت قاعدة قدامه، باتأمل عينيه الشارده والابتسامة الخفيفة اللي على وشه. كان عامل نفسه مركز في الكلام الكبير اللي بيقوله. لكن أنا عارفه إن دماغه كانت هناك، مع العوالم. بس في الحلم، أنا ما كنتش أمينة بتاعة زمان، كنت أمينة بتاعة

النهارده. قعدتي ع الأرض قدامه كانت متغيرة، عينيَّ وانا بابص عليه ومستنية يبص هو كمان في عينيَّ كانت متغيرة. أستنى إنه ياخد باله.. أبدا! طبعا ما هو كان ملهي بالمسخرة اللي في دماغه.

إيييه.. الله يصبحك بالخير يا خويا.

١١

عند باب المدرسة في «القطامية» سألت كاثرين موظف الأمن عن مكتب الموارد البشرية. لقد وصلت قبل موعدها بعشر دقائق وهو ما سيتيح لها التمشي بهدوء في الممر المظلَّل بأشجار الجهنمية ذات الزهور البيضاء. عليها أن تدخل إلى المقابلة بثبات. صحيح أن لديها عرضين للعمل، لكنها تبني آمالا على مرتب هذه الوظيفة الذي سيضمن استقلالها هي وأمينة في بيت يخصهما. لم تخبُر كاثرين مثل هذا الشعور من قبل، أن تكون مسئولة عن نفسها، بل عن آخرين، فلقد كان دوما حولها أناس يتولون تلك المهمة من بين مهامّ أخرى. ابتسمت ووجه مربيتها «نيللي دين» يمر أمامها. على الرغم من أنها خبيثة وعنيدة كالبغلة، فإنها كانت تلملم ما تكسَّر وراءها أو تطيب خاطر ضحايا مزاجها الشرس.

المدرسة كبيرة، فيها سلسلة من المباني ومساحات خضراء وملاعب، لكنها أيضا بعيدة جدّا. لو حصلت على الوظيفة فسوف تقضي في المواصلات أربع ساعات يوميّا، عليها أن تفكر في قائمة بالكتب التي ستشتريها من أجل الرحلة اليومية. ولماذا تشتري كتبا؟ ستستعير من مكتبة مريم وتدخر من مرتبها كي تشتري تذكرة سفر إلى إنجلترا. هل بإمكانها حقّا أن تركب طائرة وتجد نفسها هناك! ابتسمت وهي تدخل إلى المبنى الزجاجي، ثم إلى الحجرة التي جلس في صدارتها موظف ضخم بشارب كثيف

ونظارة سميكة العدسات.

على مدار الشهر الماضي أَلَّفت كاثرين لنفسها قصة حياة جديدة بطلتها فتاة إنجليزية تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما أنهت دراستها الجامعية في جامعة «برايتون» وعملت بالتدريس أربع سنوات، ثم قررت أن تجوب العالم، وها هي تبدأ بمصر التي تنوي قضاء ما لا يقل عن أربع أو خمس سنوات فيها. لذا عندما بدأ مدير الموارد البشرية السيد حسين عبد المتعال في توجيه أسئلته لها، كان في جعبتها رصيد ضخم من الردود التي تدفقت بتلقائية أبهرتها هي شخصيًّا. ابتلعت ابتسامة أوشكت على الإفلات منها. قال الرجل إن المدرسة بحاجة إلى مدرسين للمدرسة الصيفية، وقبل بدايات العام الدراسي ستنظر الإدارة في تجديد العقد. كادت كاثرين أن تقفز من مقعدها وتطير في هواء الحجرة وهي تصرخ ابتهاجا، لكنها رسمت على وجهها ابتسامة رصينة وهي تنصت للرجل يقول: «إحنا بنعمل عقد سنة واحدة قابلة للتجديد، وإن شاء الله يتجدد...». التفت نحو الباب ورفع صوته بالنداء: «يوسف.. يا مستر يوسف». دخل إلى الحجرة شاب ثلاثيني بشعر أسود وخصلات مجعدة تصل إلى آخر رقبته. ابتسم وسلَّم على كاثرين والسيد عبد المتعال يقوم بمهمة التعريف: «مستر يوسف مدرس الدراما في المدرسة. مس كاثرين ـ إنجليزية ـ مدرسة إنجليزي وتاريخ، هتبقى معانا إن شاء الله». قام عبد المتعال من جلسته فظهر جسده الطويل ذو الكرش المهيبة، أوصلها إلى باب الحجرة وهو

يطلب من يوسف أن يصحبها إلى مسز هنرك، المسئولة عن تدريس اللغة الإنجليزية.

خارج المبنى وقفت كاثرين تنفض عن جسدها برودة التكييف، أغمضت عينيها ورفعت وجهها لنور الشمس الذي افترش المكان. على الرغم من أنها لم تشعر بالتوتر في المقابلة فإنها تنفست بارتياح. عليها أن تهاتف أمينة وتطلعها على الخبر السعيد. مرق بجانبها مجموعة من التلاميذ في الرابعة أو الخامسة عشرة. كانوا يجرون وراء زميل لهم وهم يسبّونه ويضحكون. ابتسم يوسف وقال إن أغلبية أطفال المدرسة مدللون وأشقياء، وهو يعتقد أنهم قد يظنون كاثرين في مثل عمرهم؛ لذا فهو يوصيها بالحزم. أشار إلى الطابق الأرضي حيث مسرح المدرسة وصالة الجمنازيوم، في الطابق الثاني إلى أقصى اليمين توجد غرفة المدرسين، لكنه سيصحبها الآن إلى قسم اللغة الإنجليزية وهناك... تراجع صوت يوسف عندما سمعت كاثرين لحنا مألوفا. توقفت فجأة عن المشي وأصغت السمع.

كانت في غرفتها تنسج لوحتها السحرية

ليلا ونهارا وبألوان زاهية وشجية

ولقد سمعت همسات للناس خفية

تحكي أن ستحل عليها اللعنة ذات عشية

إن تركت ما تنسجه لتشاهد قلعة كاميلوت

لم تعرف ما تلك اللعنة أبدا
ولذا لا تتوقف عن نسج اللوحة دأبا
ولغير اللوحة لا تأبه أو تعرف سببا
حسناء جزيرة شالوت.

سرت في جسدها رجفة قوية فأحاطت نفسها بذراعيها. شعرت أنها قد تلقت ركلة أطاحت بها إلى الخلاء المقفر المحيط ببيت السيرينت حيث كانت تسمع هذه الأغنية. انتبهت إلى يوسف الذي وقف في مواجهتها، وبدا أنه يسألها شيئا لم تسمعه. التقطت أنفاسها وهي تطلب منه أن يكرر كلامه.

«كنت بأسألك إنتِ كويسه؟».

«مين اللي بيغني الأغنية دي؟».

نظر يوسف إليها متسائلا، قال إنه لا يسمع إلا صوت الهواء الصحراوي الساخن يصفِّر في أذنيه وضحك. أشارت له أن يصمت للحظة، أصغت السمع. كانت الأغنية قد اختفت!

لماذا تأتيها شالوت الآن؟

شعرت بالتوتر يتجمع في عضلات ظهرها ويتحرك تحت جلدها.

اقترح يوسف الذهاب إلى الكافيتريا كي ترتاح من الشمس وتأكل شيئا. هزت كاثرين رأسها بالرفض. قال إنها لا تبدو على ما يرام فوجهها شاحب والعرق يتصبب منها. قاطعته مؤكدة أنها بخير

وأشاحت بوجهها بعيدا. إنها لا تحب أن يفترض أحدهم أنه يعرف مصلحتها أو يرشدها. في كل مرة تعامل معها «إدجار» بهذه الطريقة كانت تشعر بالغضب وتود لو قذفت رأسه بإحدى المزهريات الكريستال في بيته الأرستقراطي الصامت. في سنوات زواجهما القصيرة لم تشعر كاثرين للحظة أنه يتعامل معها كند. في تدليله لها أو رفضه أحد طلباتها أو حتى اقتراحه أن يخرجا معا للنزهة في حديقة البيت، كان كالأب الذي يعرف مصلحة الصغار. نظرت إلى يوسف كأنها تعتذر عن خشونة غير مبررة واستكملت المشي.

دخلا إلى مبنى من أربعة أدوار حيث فصول الإعدادي والثانوي. صعدت وراءه الدرج إلى الدور الثاني وهي تتأمل اللوحات التي رسمها الأطفال على الجدران. استدار وسألها: «منين في إنجلترا؟».

«يوركشير. عمركْ رحتها؟».

قال: «لا» وابتسم وهو يشير إلى حجرة مسز هنريك. أعطاها رقم تلفونه لو احتاجت السؤال عن أي شيء وتركها للحاق باجتماع.

في الطريق إلى البيت، كانت كاثرين صامتة وقلبها ثقيلا. على الطريق الدائري تتابعت عن يمينها كتل البيوت الممتدة بلا نهاية؛ ما جعل جسد المدينة يبدو كوحش خرافي لا يمكن الإلمام بأبعاده. نزلت في شارع الروضة ومشت إلى شارع المقياس، وقفت قليلا أسفل البناية، نظرت إلى السماء التي توارت شمسها مع اقتراب الغروب، ثم استدارت يمينا واتجهت نحو النيل.

كاثرين تحب هذه البقعة عند كورنيش الروضة، خطوات قبل التفاف النيل حول الجزيرة. النهر هنا عريض جدّا وقوي، وهي تحب الجلوس على السور الحجري وتأمل الشمس تسقط وراء غابة البيوت. مريم.. كم هي محظوظة بالقرب من النهر، مجرد خطوات! لكني لا أراها تأتي إلى النيل، لا أعتقد أنها تشعر بوجوده، كما أنها لا ترفع عينيها أبدا إلى السماء. إنه شيء لا أفهمه بالمرة. لكن يا كاثي لو كنتِ أنتِ التي ولدت وعاشت هنا، لظننتِ أن العالم قد خُلق من الأسمنت.

جلست على السور.

كان لون الماء فضيّا قاتما كأنه زئبق. تنفست وهي تفكر في شعورها بالثقل وفي هذا اليوم تحديدا! ماذا بكِ يا كاثي؟

ولقد سمعت همسات للناس خفية

تحكي أن ستحل عليها اللعنة ذات عشية

إن تركت ما تنسجه لتشاهد قلعة كاميلوت

شالوت! لقد ظننتُ أنني تركتها ورائي! لكنها جاءتني في الحلم عند مجيئي وها أنا أسمع في رأسي صوت السيرينتات ينوح بالحكاية!

كاثرين إن صدرك منقبض وعاجز عن التقاط النَّفَس. ماذا بكِ؟

لا أعرف. لقد توقعتُ أن أكون سعيدة، أن أظل سعيدة كما كنت عندما عرفت بقبولي في المدرسة؛ فهذا يعني أنني سأظل هنا لبعض

الوقت.

هل هذا هو ما يخيفكِ؟

ربما بداخلي خوف دفين، أخاف البقاء هنا، لكنني أخاف أكثر أن أجد نفسي ثانية في بيت السيرينت، أن أكتشف أن الأسابيع الماضية لم تكن إلا حلما طويلا سأفيق منه على المكان البائس الذي لا تعرفه الخرائط.

أفهم تماما خوفك من الرجوع إلى هناك. لكن لمَ تخافين البقاء؟

ربما لأن هنا ـ تحت هذه الشمس ـ أشعر بالعري التام، فليس ثمة غيمات من الأوهام أختفي وراءها لأعيش حكايتي، ليس ثمة بقعة واحدة أنعزل فيها وأنطلق في مطاردة الأشباح التي تسكن رأسي.

ولماذا تريدين العيش في الأوهام بينما الحياة هنا بين يديك، حقيقية ودافئة كشمس هذا البلد؟ هل تشتهين الوهم لأنه الشيء الوحيد الذي تعرفينه جيدا كصاحب قديم؟

لكنني في نفس اللحظة مندفعة نحو الحياة بقوة مجنونة!

هل شعرت شالوت بشيء كهذا وهي تترك مغزلها وتخرج إلى العالم مدفوعة بقوة لا تعبأ باللعنات المسطورة؟ ليس لدى كاثرين شك أن شالوت كانت مرتعبة، لكن أجراس الحياة ندَّاهة لا رادَّ لغوايتها.

لو كنتُ لا أزال مؤمنة لذهبت إلى إحدى الكنائس وأوقدت شمعة وأحنيت رأسي أمام المسيح المصلوب: «أرنا مجدك لا كما

موسى بل بالروح لنعاين بالإيمان مجدك في هياكل أجسادنا وأعمالنا التي قد سبقت فأعددتها لنا لكي نسلك فيها. يراها الناس فيمجدونك»، وكنتُ سأخرج مرتاحة ومطمئنة.

ابتسمت كاثرين لنفسها. ربما هذا هو التغير الوحيد الذي طرأ عليَّ في سنوات بيت السيرينت، أن أدرك أن ليس ثمة رب، أن أفتش داخل نفسي عن من يقوم بهذا الدور.

وهل عثرتِ عليه يا كاثي؟

ازداد ثقل قلبها. نظرت إلى الماء وتساءلت: لماذا لا تعود الحياة بسيطة؟

وهل كانت بسيطة في يوم ما؟!

هل كان زواجك من إدجار شيئا بسيطا أيتها البلهاء؟!

هل دعوة هيثكليف عليك أن تفيقي على عذاب أليم شيء بسيط؟ وماذا عن كل تلك السنوات التي قضيتها شبحا هائما حول المرتفعات! ناهيكِ عن جحيم بيت السيرينت.

راقبت كاثرين تتابع موجات النهر الصغيرة، أنصتت إلى بقبقة الماء وهو يلمس الشاطئ بخفة وتنفست. لقد ماتت ليدي شالوت في مركب صغير حمله ماء نهر كان أصغر من هذا بلا شك. في حلمها الأخير كانت هي ليدي شالوت!

كل اثنين معا ينطلقان

لكن الغادة ليس لها صَبٌّ ولهان

يخلص في الحب لها بين الفرسان
حسناء جزيرة شالوت.

لطالما اعتقدت كاثرين أنها لا تختلف عن تلك المرأة التي كُتب عليها أن تشتغل على مغزلها دون أن تنظر أبدا إلى العالم خارج قلعتها. لو تركت محبسها فستحل عليها لعنة، لا أحد يعرف ما هي، لكن الجميع بمن فيهم «شالوت» يعرفون بوجودها. كاثرين أيضا لا حياة لها خارجِ المرتفعات، حتى لو عاشت ألف حياة أخرى فسيظل قلبها يحوِّم حول البيت الصخري المكشوف للرياح من كل جانب ويبكي: «أدخلوني.. أدخلوني..!».

كاثي افهمي، ربما كان هذا منطقيّا في بيت السيرينت، أن تكوني تلك المرأة التي لا وجود لها إلا في حكاية واحدة. في تلك السنوات المملة لم يكن ثمة شيء يحدث فعلا، لا شيء إلا الخلاء وهؤلاء النساء، كل واحدة تحمل حكايتها صليبا فوق ظهرها. وأنتِ ـ مثلهن ـ كنتِ حبيسة الحكاية التي في المرآة، تمزع قلبك بين رجلين وانفجارات الغضب وطعم الموت. لكن الآن ما عذركِ؟ ها! ردي! أليست هذه هي الحياة التي مزقت قلبك تمنيا لها؟

غابت الشمس فقامت كاثرين من جلستها واتجهت إلى البيت. كانت تشعر بالضياع كأنها نجم خرج عن مداره فأخذ يتهاوى نحو الأرض، لا هو يملك التحكم في السقوط ولا يعلم أين سيحط.

١٢

صحت أمينة من نومها على أنفاسها المضطربة واحتباس صوتها.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

استهدي بالله يا أمينة. إنه حلم. مجرد حلم!

أستغفر الله... أستغفر الله العظيم.

لم ترَ فهمي في الحلم، لكن الآخرين ماتوا أمام عينيها، واحدا تلو الآخر. لا يزال دويّ الرصاص المرعب يطن في أذنيها. انطلقت الرصاصة الأولى وأعقبتها لحظة صمت ثم علا الهتاف، جأرت الحناجر بجنون كأنما قد أصابتهم جميعا لوثة.

نزلت أمينة من السرير وهي تضع يدها فوق قلبها تهدئ من خفقانه. اتجهت إلى حجرة كاثرين وفتحت الباب بهدوء. وجدتها نائمة والكتاب المفتوح فوق صدرها يعلو ويهبط مع أنفاسها. سحبت الكتاب ووضعته جانبا، أطفأت الأباجورة وأغلقت الباب وراءها. اتجهت إلى المطبخ وهي تتلو آية «الكرسي» في سرِّها. أخذت زجاجة مياه باردة وخرجت إلى الشرفة.

في الثالثة فجرا كان شارع المقياس صامتا وصوت الكراكات التي تهدم الفيلا المجاورة لمريم لم يبدأ بعد. اهدئي يا أمينة واحمدي الله على نعمته الواسعة. تذكري أنك بعد يومين سوف تنتقلين أنتِ وكاثرين إلى شقتكما الجديدة. أليس هذا شيئا رائعا؟ استندت أمينة

إلى سور الشرفة وانفجرت في البكاء. جرجرت جسدها إلى المقعد البامبو وهي تكتم صوت نشيجها. كان الحلم يعيد نفسه في خيالها.

عند الجامع الأزهر كانت تسير في بحر موَّاج بالبشر. أفواج وراء أفواج. رفرفت فوقهم الأعلام الحمراء ذات الأهلة والنجوم الثلاثة وهم يتحركون إلى الأمام. جلجلت الحناجر بالهتاف: «الاستقلال التام أو الموت الزؤام.. الاستقلال التام أو...».

لم تستغرب وجودها في مظاهرة كأن هذا أمر عاديّ. صحيح أن سي السيد فد خطر على بالها، لكنها طمأنت نفسها أنه جالس الآن في الدكان ولن يعود قبل الظهر، كما أنه لن يتصور أبدا أنها قد خرجت، بل إنها تتقدم مجموعة النساء، تهتف وهن يرددن وراءها. ثم رأت مريم. كانت واقفة على رصيف الشارع تتابع ما يحدث بعينين زائغتين.

منذ أيام قبض الإنجليز على سعد باشا واثنين من زملائه ونفوهم إلى جزيرة مالطا. امتلأت الشوارع المحيطة بالجامع الأزهر بالغضب وبفيض من الناس غطَّى كل شبر في المكان. لم تتصور أمينة أن الشارع الضيق بإمكانه أن يتسع لكل هذه الآلاف. بانت عمم الأزهرية وطرابيش الأفندية في كتل وسط الجمع. طلبة وعمال وصنايعية ونساء والأعلام تخفق فوق الرؤوس. وسط الهتاف سمعت أمينة دويّا صمَّ أذنيها ورأت ساري العلم في المقدمة يميل. مرت بالجمع لحظة صمت، لحظة واحدة شعرت بها أمينة دهرا، كأن الكون قد توقف عن الحركة، ثم.. علا هتاف كالزئير.

كان العلم يهبط ببطء نحو الأرض حين امتدت يد ورفعته، وارتفعت أيادٍ تحمل الشهيد خارج المظاهرة. هوى قلب أمينة إلى الأرض. إنها تريد اللحاق بالولد، لكن الجمع يندفع ويدفعها معه إلى الأمام.

«نموت نموت ويحيا الوطن.. نموت نموت وتحيا..».

سمعت دويَّ الرصاصة الثانية، لم ترَ مَنْ ضغط الزناد، لكنها شاهدت ساري العلم يقع مرة أخرى وتتلقفه إحدى الأيادي. ثلاث عشرة طلقة وثلاثة عشر شابًا يقع غارقا في الدماء، وأمينة تصرخ بجنون والهدير يعلو ويرتفع فوق أهلة المآذن.

انتبهت على نسمة لطيفة تهز أوراق الشجرة أمامها وتمس وجهها. مسحت أمينة دموعها. مدد يا سيدنا الحسين! مدد يا آل البيت!

دخلت إلى المطبخ لتأتي بالسبرتاية وعدة القهوة. لقد طار النوم من عينيها ولم يتبقَّ إلا القليل على صلاة الفجر على أي حال.

لماذا لم ترَ فهمي في الحلم؟

بعد خبر عودة سعد باشا من المنفى اعترف لها فهمي أنه كان يخرج في المظاهرات. وقع قلب أمينة في قدميها، وبختته واتهمته أنه لا يحبها. كانت مذهولة أن بإمكان فهمي أن يفعل شيئا كهذا في الخفاء، أن يخاطر بحياته ويخرج للإنجليز بعد ما رأى بعينيه رصاصهم يحصد الأرواح بلا رحمة. كتمت الدموع وفهمي يرجوها: «نينه، ما تكدريش صفونا بحزن ما لوش لازمه». في

اليوم التالي خرج فهمي يحتفل مع باقي المصريين برجوع سعد. كان يوم هدنة والعساكر الذين كانوا فيما سبق يقتلون المتظاهرين وقفوا يحمونهم.

مشى فهمي وسط الجموع. قلبه يخفق وعيناه تحنان للدموع. كان يشعر أنه قطرة في بحر. امتلأ الميدان والشوارع المفضية إليه - عباس ونوبار والفجالة - بآلاف من البشر. وتمنى فهمي لو أنه قد دعا أباه ليحضر المشهد الجليل الذي تخشع له القلوب وتطمئن. بدت لعينيه مصر مظاهرة واحدة، بل رجلا واحدا، بل هتافا واحدا. تتابعت طوابير الطوائف طويلا، طويلا جدّا، حتى خيل إليه أن الطلائع ستشارف عابدين قبل أن يتزحزح هو وجماعته من أمام باب المحطة. امتلأت نفسه بمنظر الألوف الحاشدة قوة إلى قوة وطمأنينة إلى طمأنينة، كأنها دروع منصوبة حواليه، قوة متماسكة لا ينفذ منها الرصاص. ثم بدأت الفرقعة وساد الهرج. سمع فهمي فرقعة ثانية وشعر بحركة اضطراب تسري بين المتظاهرين وافدة من الأمام كالموجة الثقيلة... اضطراب وارتباك وارتطام، صيحات فزع وغضب وأنين، فكر فهمي في الهرب، فلو لم يقتله الرصاص فسيموت من قوة التدافع. وكان آخر ما وقعت عليه عيناه هو باب حديقة ميدان الأوبرا والشجرة السامقة التي ترقص بلا هوادة والسماء الهادئة الباسمة التي يقطر منها السلام.

عندما قرأت أمينة هذه الصفحات في «بين القصرين» كاد قلبها يتوقف من شدة الألم، فلم تكن تتخيل أن تعرف في يوم ما كيف

مات فهمي، أن تشعر كأنها كانت معه وسط الجموع، تسمع الهتاف الواحد وينتفض قلبها فرحا بانتصار الثورة، ثم ينفلق نصفين وهي تشاهد ابنها يقع وعيناه شاخصتان إلى السماء. لقد انطبعت تلك السطور في عقلها كلمة كلمة وحرفا حرفا.

قبل موته بأيام قال لها فهمي وعيناه تلتمعان: «الأم الوطنية حقّا تزغرد لاستشهاد ابنها».

لا يا فهمي لم أزغرد!

انطلق صوت أذان الفجر فتركت فنجان القهوة الفارغ من يدها واتجهت إلى سور الشرفة. شعرت بنسمة هواء طري تدخل صدرها. مرق وجه فهمي أمامها واختفى. إنها لم تره في الحلم، لكنها تعرف أنه يرد لها الزيارة. ألم تذهب إلى المدافن وتقرأ له الفاتحة؟

لم أعثر على تربتك بعدُ يا فهمي، لكن كل شيء بأوان يا ضنايا.

رفعت وجهها إلى السماء. ها هو ضوء النهار يبزغ ويذكِّر أمينة بالشروق في بيت السيرينت حين كانت تجلس في الحديقة تنتظر النور الأحمر يشق خيطا رفيعا عند التقاء التلال بالسماء. دخلت إلى صالة بيت مريم وهي تتمتم بالحمد لله كأنها تطيِّب وجع قلبها.

الحمد لله.

بعد يومين ستنتقلين يا أمينة إلى شقة بجوار ضريح الطاهرة، ستجاورين أم العواجز.

ابتسمت وهي تأتي بالمبخرة كي تشعل بخور المسك وأحست براحة تأتي من بعيد وتقترب من قلبها كسربٍ صغير من الحمام.

١٣

«يالَّا يا مريم اصحي. الساعة بقت ٩ وعايزين نفطر».

سمعت مريم نداء أمينة فلم تتحرك من السرير. لن تعرف أمينة أنها لم تنم طوال الليل. قضت ساعاته المملة تبحلق في السقف بدماغ شاغر من أي شيء. هذا أهون من التفكير في رحيل أمينة وكاثرين من هنا بعد يوم واحد. لا تريد مريم أن تسأل نفسها عن كل هذا القدر من المأساوية الذي أسبغته على الحدث. فلترحل الاثنتان من حيث جاءتا، ما الذي يضيرك في هذا يا مريم؟ ودَّت لو كان الأمر بهذه البساطة.

لقد ذهبت بقدميها منذ أسبوع لتوقِّع لهما عقد الشقة باسمها؛ نظرا إلى عدم امتلاكهما أوراق هوية. من ساعتها وهي صامتة متجهمة لا تكاد تتكلم. لم تحاول إخفاء مزاجها السيئ كأنها تعاقبهما على جُرم تعرفانه جيدا.

«مريم!».

سمعت صوت كاثرين مصحوبا بنقرات خفيفة على باب الغرفة. لا شك أن أمينة أرسلتها كي تجرجر مريم من سريرها. فلتأتِ أمينة بجيش من البشر، ستظل مريم راقدة مثل «سيد قشطة» تبحلق في الفراغ. فتحت كاثرين الباب وأطلت برأسها الصغير وشعرها المبتلّ بالعرق من مشي الصباح. صدرت عن مريم حركة خفيفة

توحي بأنها ستقوم، لكن أمينة لم تمهلها. دخلت بخطوة سريعة واتجهت إلى شيش النافذة كي تفتحه. قفزت مريم من السرير قبل أن تداهمها الشمس. لقد انتصرت أمينة!

«الصبح ده بركة يا مريم. جربي كده تصحي الفجر وتاخدي اليوم من أوله».

كم تضحكيني يا أمينة! أنا لا أعرف نهارا من ليل. تداخلا من زمان وأصبحا كتلة واحدة وجهها يشبه قفاها. إنه أنتِ وكاثرين من ذكَّرني أن بعض الناس ينامون في التاسعة مساء ويصحون عند الفجر يكتبون يومياتهم أو يمشون في شوارع القاهرة بلا هدف!

اتجهت مريم إلى الحمَّام وهي تبرطم في سرِّها، لحقت أمينة بها في الطرقة وهي تقول: «استني يا مريم. مالك بتجري كده ليه!».

توقفت مريم ونظرت إليها شَزْرا. ما الذي تريدينه يا أمينة؟ انسيني الآن واذهبي لكاثرين حدثيها عن بيت السيدة زينب والست أم محمود جارتكما و«البلكونة اللي تشرح القلب»!

دست أمينة في يدها أوراقا وقالت: «أنا لقيتهم جوه كتاب من اللي استلفتهم منك».

تركتها وعادت إلى الحجرة التي أغرقها نور الشمس.

وقفت مريم في مكانها وهي تنظر إلى الأوراق المطبقة في يدها. عندما فتحتها رأت خط ناجي الكبير والقلم الحبر الأزرق الذي كان يكتب به دوما. أعادت تطبيقها وقلبها ينسحب نحو الأرض.

كيف نجا هذا الجواب من المذبحة التي نفذتها مريم منذ أكثر من عشرين عاما؟ إنها لا تتذكر توقيت الحدث، ربما كان بعد خروجها من المستشفى وفقدانها الجنين الذي مات بعد أبيه بأسابيع. لا تعرف لو عاد الزمن بها إلى الوراء هل كانت ستفعل ما فعلته؟ لكنها تعرف أنها كانت كالمخمورة وهي تلملم الصور والأوراق وتضعها في حوض المطبخ وترمي فوقها عود الكبريت. بعينين زجاجيتين وقفت تنظر إلى اللهب وهو يكبر ويأكل وجه أمها المبتسم وجسد أبيها وهو يرفع مريم ذات الأشهر التسعة إلى فوق، حتى صورة زفافها لم تنجُ. امتدت النار لتزحف على جوابات ناجي لها، امتلأ المطبخ بالدخان الذي أتى بناهد وفي ذيلها الخادمة التي فتحت ماء الحوض ثم جذبت مريم إلى الخارج بينما صراخ ناهد يلاحقها: «إنتِ اتجننتِ خلاص! بتحرقي صور أبوكِ يا مريم! عايزه تحرقي البيت وتحرقينا! اتجننتِ.. اتجنن...!».

على مائدة الإفطار استمعت إلى حديث أمينة وكاثرين بنصف دماغ. كان الكلام بالطبع عن خطة أمينة لتنظيف الشقة الجديدة ومراجعة قائمة المشتريات العاجلة من فوط وملاءات وحاجيات الحمام. بين الحين والآخر كانت مريم تشعر بثقل الورقات الثلاث في جيب فستانها. هل ستقرأ الجواب؟

تقرأ أو لا تقرأ. ذاك هو السؤال!

لم تكن مريم تتصور صعوبة هذا القرار. ظلت طوال اليوم تلف وتدور حول نفسها في البيت، تدخل غرفتها وتعود إلى الصالة

ومنها إلى المطبخ ثم الشرفة لدرجة أنها بدأت تلهث كأنها تجري ماراثون. عندما تعبت ارتمت فوق سريرها وامتدت يدها إلى جيبها تخرج الأوراق.

مريم.. ميمي.. ماريكا

أكتب لك الآن من غرفتي في بيتنا في «قوص». درجة الحرارة تعدت الأربعين والناموس قد أكل نصف لحمي وأنا لا أشعر بالعيد على الرغم من الكحك الذي أتت به خالتي إلى البيت وصوت البمب الذي يفرقعه العيال في الحارة. عدت لتوي من ساعات أربع قضيتها مع حامد. ضحكنا كثيرا على النكات التي جمعتها خصيصا من أجله. دخلت زوجته ووجدتنا نضحك فزغرت لي كأنها تؤنبني. كدت أطبق في زمارة رقبتها وألقي بها خارج الباب لولا أن كليْنا ـ حامد وأنا ـ كنا نجلس على الدكة خارج البيت بالفعل. المرأة النكدية! إنها تعرف أن حامد سيموت ـ أصبحت مسألة أسابيع ـ هل تستكثر عليه أن يضحك، أم أنها تريده أن يبدأ في تلقي العزاء في نفسه؟

لقد أطلعتكِ على الأشعات الأسبوع الماضي يا مريم قبل سفري هنا لإجازة العيد. خلاص تمكَّن السرطان تماما ووصلنا للمرحلة الأخيرة.

حامد لا ينام من شدة الألم. قبل أن أمشي أعطيته حقنة مورفين حتى يتمكن من النوم بضع ساعات. عندما خرجتُ من عنده قبل الفجر لم أشعر برغبة في النوم ولا في العودة إلى حجرتي فتمشيت إلى الترعة وجلست هناك. كنت آتي هنا كثيرا مع حامد لنصطاد. على الرغم من الأيام الطوال التي قضيناها نمارس فضيلة الصبر كما علمونا في المدرسة، لم نصطد شيئا عليه القيمة قط. قفزت إلى عقلي صور كثيرة، كلها لحظات عادية من أيام المدرسة ولعب الكرة في الحارة أمام بيته والمرة التي تعاركنا فيها بالأيدي عندما اكتشفنا أننا نحب نفس البنت. ربما كنا وقتها في العاشرة. لم أكن أتصور يا مريم أنني سأصبح مثل البخيل الذي يجمع ملاليم الذكريات على أنها ذهب وياقوت ومرجان علي بابا!

أنا ميلودرامي هذا الصباح. لكنني أعرف أنك عندما تقرئين هذا الجواب سأكون معك في البيت. لم أقرر بعد إن كنت سأتركه هذه المرة في برطمان الشاي، أم داخل درج التسريحة، أم في مكان جديد لم أترك لكِ فيه جوابات من قبل. سوف أفكر لاحقا. المهم أنك لن تعرفي أنني حزين إلا وأنا معك.

وأنا معك يا مريم تبدو كل الأشياء.. تمام. حتى موت صديق طفولتي. في الحقيقة لست متأكدا من ذلك. عليَّ أن أنتظر وأرى. لكن ما أنا متأكد منه هو أنك صديقتي وحبيبتي وماريكا التي تحكي لي الحكايات وأضحك معها كثيرا.

كنت أتمنى لو أنكِ قابلت ماريكا التي أسميتكِ على اسمها. كانت جارتنا في شبرا منذ أن أتى أبي إلى القاهرة وفتح ورشة النجارة. عندما كنت في الثانية عشرة كانت هي في السبعين ربما. لن أنسى أبدا كيف كانت تطل علينا في الصباح من نافذتها بوجهها الصغير المنكمش وأنفها الذي يشبه المنقار والمنديل الأحمر الذي تربطه دوما على رأسها، تشخط فينا أن نتوقف عن الصياح ونحن نلعب وإلا رمت علينا جردلا ممتلئا بمياه المسح الوسخة. لم تنفذ تهديدها قط، بل على العكس، كنا نعرف أن مزاجها سيتبدل في المساء وتلم كل أطفال الشارع لتحكي لنا حكايات وهي تطعمنا البرتقال والموز. كان اسمها ماري، لكننا أطلقنا عليها ماريكا، لا أعرف مَنْ مِنْ عيال الشارع أعطاها هذا الاسم، لكنه بدا لنا مضحكا. هي أيضا كانت تضحكنا عندما تشخط فينا. لم أكن أعرف أنني أحبها إلا عندما ماتت وأنا في إعدادي طب. لا أزال أحبها. لكنني أحبك أنتِ أيضا، أحيانا.

أراكِ تبتسمين، وأنا أحب ابتسامتكِ.

كنت أظن أنني لن أتمكن من الانتهاء من «بالأمس حلمت بك» في هذه الزيارة لأنني جئتُ من أجل حامد؛ حتى أقضي معه أطول وقت ممكن. عليَّ أن أشكرك أنك صممت أن آخذه معي وأنتِ تقولين إنني سأشعر بالندم إن رغبت في القراءة ولم أجد معي كتبا. هذا هو ما حدث بالضبط. في اللحظة التي تركت حامد بالأمس انتابتني رغبة في البكاء. ذهبت إلى الترعة كما أخبرتك، ثم عدت إلى غرفتي وظللت أقرأ حتى الصباح.

تعرفين طبعا أن مع كل كتاب أقرؤه، مع كل كتاب سوف أقرؤه، أجدكِ معي.

قبل أن أعرفك كانت الكتب تعني شيئا واحدا: المذاكرة وحلم الطب. في سنوات الكلية الأولى قبل أن أحبك، كنتُ أقرأ الكتب التي تحضرينها لي من أجلك؛ من أجل ألا يصبح منظري أمامك سيئا، تستطيعين القول إن القراءة كانت من أجل الحفاظ على ماء الوجه. بعد فترة أدركت أنني أحب الكلام معك عن رواية ربما أكثر من الرواية نفسها، كأنك تنفخين الروح في الحكاية وأنتِ تفكرين فيها معي. ثم بدأت أسعى للكتب بنفسي، بل أبحث عن الجديد حتى أفاجئك. هل تذكرين اليوم الذي أحضرت لك مجموعة تشيكوف الكاملة؟ لن أنسى عينيك وأنت تنظرين إلى الوليمة الفاخرة.

أتعرفين أنني لا أحلم أن نترك لأطفالنا مالا كثيرا؟ سوف نترك لهم مكتبة كبيرة مثل مكتبة أبيك. سيبحثون فيها ويتساءلون أي كتب قرأناها أنا وأنتِ معا.

يبدو أنني أعاني أعراضا رومانسية خفيفة هذا الصباح. أسمع ضحكتك العالية وأنتِ تقولين: ميلودرامي ورومانسي!

أتيتُ معي بكتب الزمالة ولم أذاكر. الامتحانات دمها ثقيل، وغرور بعض آلهة الطب الذي كان يجب أن أعتاد عليه بعد كل هذه السنوات يستفزني. عندما أصبح في مثل

عمرهم لا أريد أن أكون شخصا ساديّا يتلذذ بتعذيب الضحايا. لا أعرف في هذه اللحظة ما أريد أن أكونه وقتها. دعيني أفكر قليلا. مممممم! آه من الممكن أن أدخل بعض التغيير في منهج دراسة الطب النفسي. سوف أضيف مادة تنمي الخيال فتصبح المذاكرة هي مشاهدة فيلم أو قراءة قصة. ألا تبدو فكرة جيدة؟ نريد معالجين نفسيين لديهم خيال مثلما لديهم معرفة بالطب ونظريات علم النفس حتى يتمكنوا من الدخول إلى المناطق السفلية المظلمة لـ«اللاوعى». ما رأيك في هذه الخطة يا ماريكا؟ فكري إلى حين أن نتباحث في الأمر.

أنظر بقرف إلى كومة الكتب أمامي وأردد قولك المأثور: «الزمالة علينا حق».

أضحك بصوت عالٍ في غرفتي، لو سمعتني عمتي الآن لقالت إن عِشرة المجانين قد أفقدتني عقلي، لكنها ملهية الآن في مشاهدة الحلقة الأخيرة من مسلسل «الشهد والدموع» وحشو الحمام الذي سآكله مع حامد على الغداء. على الرغم من أن زوجته تتعامل معي كأنني ضرتها فإنها قالت لي أول أمس إن حامد يأكل أفضل بعض الشيء عندما آتي إلى «قوص».

أراكِ عند عودتي في آخر أيام العيد.

الميلودرامي الرومانسي،

ناجي.

٢٠ يونيو ١٩٨٥

١٤

جاء اليوم المنتظر وتدفق في عروق أمينة حماس يوم العيد. جاء بعد انتظار أسبوع كامل منذ أبرمت الاتفاق مع المهندس صاحب شقة السيدة زينب، ودفعت له شهرين مقدما وشهرا آخر تأمينا، وأتت بمريم كي تمضي عقد الشقة باسمها وأمسكت في يدها المفتاح والسعادة تملأ قلبها.

ودت أمينة لو تذهب في اليوم التالي كي تفتح الشقة وتنظفها حتى إن عادت كاثرين من المدرسة على البيت الجديد وجدته جاهزا لاستقبالها. لكن كاثرين أصرت على الانتقال في يوم الجمعة، فهكذا سيكون باستطاعتها المساعدة، وربما تنجح أيضا في تجنيد أحد زملائها للمهمة. ساعتها اتهمت أمينة نفسها سرّا بالأنانية، فهذا هو بيت كاثرين أيضا، ألن تتوقفي عن التعامل معها كطفلة يا أمينة؟

على مائدة الإفطار في بيت الروضة لم تنطق مريم حرفا. ظلت تبحلق في طبقها وتقتطع لقيمات صغيرة وتلوكها طويلا. أحست أمينة بغصة في قلبها. تركت الرغيف من يدها ونظرت إلى مريم، قالت: «إحنا هنكون جنبك بخطوتين. هو إحنا لينا مين غيرك؟ بصي يا مريم، بصراحة أنا عمري ما كنت ضيفة حتى لو متشاله ع الراس زي ما انتِ عامله معانا. في بين القصرين كنت ست الدار. والسيرينت كان برضه بيتي ومطرحي».

لم ترفع مريم رأسها عن الطبق. لم تَبدُ منها حركة تدل أنها قد سمعت أمينة. أحست أنها لو فتحت فمها فستبكي. تشعر أنها كالطفل الذي تمتع بلعبة جديدة لبضعة أيام ثم اختطفوها منه. حاولت أن تبتسم، لكن الابتسام يدفع إلى عينيها بدموع لن تسمح لها بالإفلات. كانت تشعر بتوهة وضياع، لا تستطيع تصور البيت يعود إلى صمته ولا أن تنزلق مرة أخرى إلى الدوران في الفراغ. إنها لا تصدق أن ما فات منذ مجيء أمينة وكاثرين لا يتعدى الأسابيع الستة! بدا لها ذلك الوقت زمنا مشحونا وممتلئا؛ وهو ما جعل سنوات الاكتئاب تبدو كذكرى باهتة حدثت لشخص آخر. انتبهتْ على كاثرين تقف في مواجهتها وتبتسم في صمت، لكنها لم ترفع عينيها.

في التاكسي أحست أمينة بقلبها ثقيلا. وجه مريم وصمتها والدموع المحبوسة في عينيها لا يفارقون خيالها. عقدت النية على رؤيتها في الغد، سوف تدعوها على الغداء، كما أنها لن تترك اليوم يمضي دون أن تهاتفها عدة مرات.

أنزلها التاكسي على باب حارة البرنس عزيز. اتجهت أمينة إلى البيت وهي ترفع وجهها نحو الدور الثاني حيث وقفت أم محمود تلوح من شرفتها وصوتها يُسمع الحارة كلها: «يا ألف أهلا وسهلا يا ست أمينة. السيدة نورت. أنزل آخد منكم حاجة؟»، ثم التفتت إلى الوراء ونادت على ابنها أن يصحو. صعدت أمينة السلم بعد أن مسحت بعينيها مدخل البيت. فور انتهائها من تنظيف الشقة

سوف تضع صندوقا كبيرا في أحد الأركان وتنبه عيال العمارة أن يضعوا فيه القمامة.

عند باب الشقة طلبت من كاثرين الدخول بقدمها اليمنى. ابتسمت كاثرين وهي تلقي على الأرض بالحقيبة التي تحتوي ملابسهما والكمبيوتر والآي باد وبعض الأغراض. كان هواء البيت مشبعا بالرطوبة والعطن. فتحت أمينة نافذة الشرفة فدخل النور وكشف عن طبقات التراب وشبكات العناكب في السقف وعند الأركان.

«تعالي يا أم حنان، سلمي على خالتك أمينة».

التفتت أمينة إلى أم محمود تقدم لها الجارة التي تسكن شقة الدور الأرضي. كانت أم حنان بيضاء حلوة الملامح صغيرة الجسد، في الثلاثينيات من عمرها، تعمل في محل خياطة في عابدين ولديها ثلاثة أطفال.

قالت أمينة: «ربنا يبارك لك فيهم».

تبادلت معها أم حنان بعض جمل المجاملة وانطلقت لاستلام ما أتى به محمود؛ مقشتين وممسحة وجردل وقطع قماش قديمة ومنفضة. قالت أمينة إنه لم يكن هناك داعٍ للتعب، فهي تنوي شراء عدة نظافة. ردت أم محمود: «تشتروا إيهَ يا ست أمينة؟ كل سنة وانتِ طيبة، النهارده الجمعة ومحدش هيفتح إلا بعد الصلاة. هنكون إحنا خلصنا إن شاء الله». أردفت أن وردية ابنها في

التاكسي تبدأ في الثانية ظهرا، أي أنهم سينتفعون من وجود محمود لنصف يوم، سيحتاجونه في حمل الأشياء الثقيلة وزحزحة الأثاث. نظرت أمينة بتشكك إلى جسد محمود الهزيل الذي سرعان ما خيب ظنها. اتجه إلى حجرة النوم وحمل مرتبة السرير وألقى بها فوق سور الشرفة وبدأت أم حنان في هبدها بالمنفضة؛ وهو ما أثار زوابع الغبار في الحارة كلها.

في حجرة النوم التي خصصتها لكاثرين فتحت أمينة باب الدولاب وأغلقته عدة مرات ثم نادت على محمود. عليه أن ينزل لإحضار نجار كي يركِّب مفصلات جديدة لدولابيْ غرف النوم ويقوم بتزييت مقابض الأبواب والنوافذ. وَعَدها محمود بالنزول وإحضار عم حامد النجار بعد الصلاة. قاطعته أمينة: «تروح تقول لعم حامد من دلوقتِ، عشان ما يروحش كده ولا كده بعد الصلاة. وخليه يجيب معاه مسامير وغرا عشان الكنب المخوخ».

في الحادية عشرة صباحا كانت جنبات البيت تردد أصوات فتح الأبواب وغلقها وخبط أقمشة التنفيض فوق كراسي الأنتريه وحوارات المرأتين وهما يخلعان الستائر المجَرَّبة وصوت دلق مياه المسح فوق البلاط. ضحكت أمينة في سرِّها، فمن يسمع تلك الجلبة يتصور أنهم ينظفون قصر الزعفرانة. إن الشقة كلها لا تصل إلى نصف مساحة مجلس القهوة في بيت بين القصرين.

«يا ست أمينة، ضيوف».

خرجت أمينة من حجرة النوم على صوت أم محمود. عند الباب وقف شاب نحيل بشعر أسود طويل وفي يده أكياس من الخضراوات والفاكهة وصينية حلوى. قالت كاثرين: «يوسف، تعالَ أعرفك على أمينة». إنه زميلها مدرس المسرح. حلوة حكاية تدريس المسرح هذه! ابتسمت أمينة وشكرته: «ليه تتعب نفسك يا ابني؟ ما لهش لازمة». ثم دخلت وراء كاثرين إلى المطبخ لتسألها ماذا أخبرت يوسف عنهما. قالت له إنهما أصحاب من زمان. ضحكت أمينة: «أصحاب! ومن زمان! ده انتِ ما كملتيش العشرين، وأنا قربت أكمل حياتي كلها».

ابتسمت كاثرين بخبث وهي تنظر إلى أمينة: «ما كملتش العشرين!».

تركتهما أمينة في الصالة وذهبت إلى الحمَّام. لون الحوض لم يعد مسودا، لكنه أصفر، حتى بعد كل الصابون والكلور الذي صبته أم حنان عليه. أمسكت أمينة بقطعة السلك الألومنيوم ودعكت بقوة وأم حنان تؤكد أنها بذلت قصارى جهدها. من الواضح أن الزمن قد أكل على راحته طبقة البورسلين البيضاء.

عادت إلى المطبخ ووقفت أمام الثلاجة وعلى وجهها علامات الأسى. نادت يوسف وقالت: «البوتاجاز كويس، لكن التلاجة حالتها ضنك. ينفع تخطف رجلك لشارع عبد العزيز تشتري لنا تلاجة صغيرة بس نوعها كويس».

اتجه يوسف وكاثرين إلى باب الشقة فلاحقتهما أمينة بالنداء. طلبت منهما أن يتوجها أيضا إلى «الخيامية» ـ فركة كعب يا يوسف ـ لشراء قماش متين وحلو للكنب البلدي. أعطته الكسوة القديمة كي يفصِّل الرجل القماش على نفس المقاس، «خليه يعمله بسوستة عشان أعرف أغسلها»، ولو حدث أن وجدا أيضا كليما من الصوف الجيد فليشترياه. حذرتهما من شراء كليم غالي الثمن أو رخيص جدّا. شيء بين البينين. ومن «عمر أفندي» في شارع بورسعيد سيحتاجون ملاءات وفوطا من القطن المصري المحترم. انطلق يوسف وكاثرين، وهنأت أمينة نفسها على فكرة الكليم، فهو ليس بثقل السجاجيد ومن الممكن حمله وتنظيفه في الشرفة أو القذف به تحت الماء الجاري ليفرغ ما في بطنه من تراب.

في الواحدة والنصف ظهرا كان فريق العمل قد انتهى من التنظيف. أكدت أمينة على أم محمود وأم حنان أن تذهبا لإطعام العيال وتعودا قبل صلاة المغرب ليشربن القهوة معا. عندما أغلقت أمينة الباب وراءهما وقفت للحظات وهي تنظر حولها بسعادة. اتجهت إلى المبخرة وبدأت في تسخين الفحم وإخراج دفعة البخور الجديدة التي اشترتها خصيصا لهذه المناسبة. أحست أمينة أن اليوم عيد، كأنها دون أن تدري كانت تنتظر هذا اليوم منذ أن أتت إلى هنا في مايو الماضي. فاح العطر في أركان البيت وفاض خارج النوافذ المفتوحة.

«خلِّي المسك يروَّق مزاج البيت».

دارت في الغرف وهي تحرك المبخرة في دوائر صغيرة وتتلو آية الكرسي وتبسمل. انتهت من حجرتي النوم أولا، ثم اتجهت إلى الصالة، هناك تناهى إلى سمعها صوت عبد الوهاب. اتسعت ابتسامتها.

لما انتَ ناوي تغيب على طول
مش كنت آخر مرة تقول
أشوف خيالك في الوحدة جه قدَّامي
أكلمك واسمع حسك واشكي غرامي
واقوم أضمك ما لقاش غير أوهامي
لما أنت ناوي.

كانت الأغنية تأتي من راديو القهوة على ناصية الحارة. تذكرت الأوقات الطويلة التي قضتها تسمع أغنياته في بيت السيرينت، في المكتبة كانت تنتقل من كتاب لكتاب ومن أسطوانة لأخرى. لم تكن لتتصور أن تسمع هناك كل ما غناه عبد الوهاب بعد رحيلها عن بين القصرين. لكن هذه الأغنية تحديدا سمعتها لأول مرة في العشرينيات من جرامافون جارتها أم مريم. كانت تتربع فوق الكنبة البلدي تحت المشربية في حجرتها وهي تهز رأسها طربا وتردد: «أشوف خيالك في الوحدة جه قدامي...». شعرت بوخزة في قلبها. هل هذا معقول يا أمينة، أن يمر كل هذا الوقت ولا تذهبي إلى بين القصرين؟ إن بيتك لا يبعد عن السيدة زينب إلا

مسافة قصيرة، لكن لديكِ دوما مبررات جاهزة للتسويف. فتشتِ المقابر شبرا شبرا ولم تذهبي ولو مرة واحدة إلى البيت الذي عشتِ عمرك فيه!

لا تعرف أمينة لذلك سببا. إنها تسمع النداء، لكنها تلهي نفسها بألف شيء إلى أن ينساها ويروح لحاله.

مالك يا أمينة؟ هل أنت خائفة أن تجدي في البيت الكبير سكانا آخرين؟ أتخافين أن يكون البيت مجرد وهم في دماغك أو أن تكون حياتك في النحاسين حلما طويلا بعض الشيء، أم تظنين أنك ستجدين سي السيد في انتظار عودتك وعيناه تطقان بالشرر؟ يسكت للحظات ثم يقول وهو يجز على أسنانه: «كل ده تأخير يا أمينة!».

«يا أمينة تعالي».

انتشلها صوت كاثرين من دوامات دماغها. دخلت من الباب وهي تحمل شجرتين صغيرتين في أصص حمراء، ويوسف في ذيلها يكاد لا يبين من وراء شجرة مسك أطول منه. تتالى دخول بنات أم حنان الثلاث بأكياس المشتريات وأصص زرع أخرى. ما كل هذا؟ امتلأت الصالة فجأة بشجيرات جهنمية ومسك الليل وياسمين وأصص ريحان ونعناع. أشارت كاثرين إلى كنزها الجديد وهي تقول بأنفاس متقطعة: «جبنا زرع لجوه البيت وللبلكونة». فكرت أمينة أين سيضعون كل هذا! قالت كاثرين: «واشترينا حمالات

حديد عشان الزرع يبقى بره السور». وقفت أمينة ساكتة مخطوفة القلب، ماذا تقول وقد وجدت نفسها فجأة في قلب غابة صغيرة! نظرت إلى الفروع الخضراء بعينين دامعتين وأحست أن قلبها ممتلئ بأشياء حلوة وكثيرة، أشياء تشبه تلك الشجيرات.

١٥

صحت مريم وهي تشعر بطعم الملح في حلقها وبضغط الماء حول جسدها كأنها لا تزال في الكابوس. كانت تغرق وكان رؤوف هناك. ما الذي أتى به إلى أحلامها! إنها لم تره لثلاثة عشر عاما، منذ أن انتهت تلك العلاقة التعيسة وكسرت وراءها مجموعة منتقاة من القلل!

تشعر كأنها لا تزال في الكابوس، قدماها مغروزتان بين أحجار ضخمة تغطيها الطحالب، وهي تحاول جاهدة أن تشد نفسها لأعلى، نحو بقعة الضوء الباهتة البعيدة. إنها تختنق وهي تفتح فمها لتصرخ فيدخل المزيد من الماء إلى حلقها. ثم رأت رؤوف. كان يمشي كالطاووس ومن حوله مجموعة من الناس كأنهم وفد دبلوماسي في الطريق إلى عشاء رسمي.

فكرت أن تنادي عليه. لا لن تفعلها.

لكنك تموتين يا مريم؟

كان قد قال لها: «لو احتجتِ أي حاجة يا مريم أنا موجود».

لن أمنحه سعادة أن يهب كالفارس النبيل لنجدتي! كفايه عليه ثماني سنوات من القرف. وافقتُ أن نتقابل سرّا، أن أعيش كاللصوص، ورفض هو أن يعطيني ما أريد. «طفل يعني جواز يا مريم وانتِ عارفه أنا مش هاعمل كده. أنا ما كدبتش عليكِ!».

مرت بها السنوات بين المحايلة والشجار وانتهت إلى كراهيته وكراهية نفسها. معذور يا مريم، لو كنتِ مكانه فهل ستضحين بمال عائلة الزوجة ونفوذها؟ هل تتخلين عن كونك تملكين كل شيء؛ أسرة وأطفال سعداء بملايين أهلهم، وعشيقة يستطيع التخلص منها حينما يشاء؟

ازداد خفقان قلبها. لا يوجد مكان يصلح للاختباء ومريم لا تستطيع زحزحة الأحجار، ثم واتتها فكرة عبقرية. ألقت بجسدها على الأرض وأغمضت عينها كما لو كانت ميتة. شعرت بيد تلمس كتفها، لكنها لم تفتح عينيها، ثم أحسَّت بالأحجار تتزحزح فتحرر قدميها. فتحت عينيها فرأت نساء ثلاثا؛ كاثرين وامرأة لا تعرفها مريم والثالثة كانت «هنية»، إحدى النزيلات القدامى في عنبر «حريم مطوَّر» في مستشفى العباسية. أمسكت النساء بذراعيها وجذبنها إلى فوق. كانوا يسحبونها لأعلى بسرعة كبيرة، قاع الماء يبعد وبقعة الضوء تقترب وتكبر إلى أن خرجت مريم إلى السطح بشهقة عميقة. لكن النساء لم يتركنها، ظللن يجذبنها إلى أعلى. أرادت مريم أن تقول إنهن جميعا في الهواء وإنها لا تريد أن تسقط. كاثرين، ماذا تفعلين! اتركي ذراعي. هنية، أنا الدكتورة مريم. أنا أكلمك فلماذا لا تنظرين إليَّ؟ ارتفع سرب النساء لأعلى ومريم تصرخ بلا صوت وترفس وتركل الهواء، كلما نظرت إلى أسفل رأت اليابسة تبتعد والفراغ يكبر ويتسع. فجأة وجدت نفسها تهوي من فوق.

صحت وروحها تسقط بعنف نحو الأرض.

بحلقت إلى السقف وهي تلتقط أنفاسها. رؤوف! لماذا تتذكره الآن؟ إن مجرد وجوده حتى لو في حلم لهو أمر مزعج.

وهنية!

إنها لم تفكر في رؤيتها منذ أن تركت المستشفى من عامين. كان جزء منها يحب تلك المرأة التي جاءت المستشفى بدلا من الذهاب إلى حبل المشنقة. قتلت زوجها. حكاية كلاسيكية، لكن مريم كانت ترى في هنية مريضة الفصام جانبا رقيقا. في بعض الأيام كانت مريم تنتهي من المرور على العنبر، ثم تجلس معها لبعض الوقت. تتحدث إليها دون أن تنتظر ردًّا وتوصيها ألا تتعب الممرضات في تناول الأدوية. تذكرت تلك المرة التي جلست معها دون كلمة واحدة، كيف نظرت إليها هنية بحنان كأنها ترى ما بداخلها وتربت كتفها. ارتبكت مريم وحوَّلت نظرها بعيدا. ربما كانت تتمنى لو أن ناهد أمها منحتها يوما نظرة كهذه.

قامت مريم من السرير بتثاقل. أزاحت بقدميها زجاجات المياه الفارغة والكتب. لقد عاد البيت إلى سابق حاله، الملابس فوق كرسي التسريحة وعلى الأرض، علب أدوية فارغة هنا وهناك، أكواب شاي وقهوة متروكة منذ أيام، كأن قنبلة قد ضربت الحجرة. لو رأت أمينة هذا المنظر!

لقد رحلت أمينة وجاء الصمت، صمتٌ مزعج يعج بالأصوات

المصطخبة في دماغها وبالكوابيس.

كانت بحاجة أن تسمع صوت أمينة الآن.

هل يعود إليها مجددا هذا الواحد في المائة من الشك أن أمينة وكاثرين هما من صنع خيالها؟

كم هي عجيبة لحظة الهوس هذه حين تستبد بالعقل فكرة صغيرة وخبيثة، مجرد بذرة لا تلبث أن تنمو من تلقاء نفسها كسرطان متوحش وتكبر حتى تبتلع العقل كله. هكذا يجن البشر. صح يا دكتورة؟

دق جرس الباب. من سيأتيها في العاشرة والنصف صباحا؟

وقفت أمينة عند الباب بضفيرتها الفضية الطويلة والشامة المبتسمة في وجهها وفي يدها إصيص من الريحان. لم تعرف مريم هل تشعر بالسعادة لأنها كانت تتمنى سماع صوت أمينة فوجدتها أمامها، أم تنفجر في البكاء وهي تحكي لها عن الغرق، أم تجري إلى الداخل تحاول لململة...

«صباح الفل يا مريم، قلت آجي أشرب معاكِ فنجان قهوة وبعدين آخدك معايا السجل المدني».

وقفت مريم صامتة في منتصف الصالة، بينما أمينة تمسح المكان سريعا بعينيها وهي تقول: «مش تسأليني إيه موضوع السجل المدني ده؟».

ودت مريم لو تمهلها أمينة دقائق، مجرد دقائق كي تحقق الانتقال

السلمي من الغرق ورؤوف إلى ما يحدث الآن. استكملت أمينة الكلام بينما مريم تجرجر جسدها وراءها من منضدة الصالة وما فوقها من أشلاء إلى غرفة النوم ولملمة الملابس والجري بالغسيل إلى الحَمَّام عودة إلى المطبخ والمأساة الإغريقية التي تجلت في أركانه، ثم أخرجت أمينة كيسا كبيرا للقمامة وبدأت في دلق بقايا الطعام في بطنه. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد فتحت أمينة الثلاجة وبدأت فرز محتوياتها. حلة البامية التي نما العفن على وجهها وقطع الجبن الجافة وحبات الطماطم التي اسودت وانكمش حجمها، كل هذا انتهى إلى المقبرة البلاستيكية السوداء. لم تنطق أمينة بكلمة تبكيت كما توقعت مريم. كانت تفعل كل هذا وهي تحكي عن شقة السيدة وأشجار الياسمين ومسك الليل وأم محمود ويوسف زميل كاثرين الذي وقف معهم وقفة رجال. جلست مريم على كرسي المطبخ المعدني دون أن تنطق. تركت نفسها لسيل التفاصيل الذي بدأ يسحبها بهدوء من فقاعة الخدر.

بعد ساعة من حضور أمينة كان البيت قد غيَّر من جلده. ارتاح نور الصباح فوق الحيطان واندفعت نسمات رطبة من النوافذ المفتوحة وبدأت تلف الغرف وعبقت رائحة البن الأركان. ارتمت مريم فوق الكرسي تلتقط أنفاسها كأنما هي التي قامت بهذا الجهد الجبار. قالت أمينة إنها ذهبت من يومين لاستخراج رقم قومي، قالوا لها على الأوراق المطلوبة فأوضحت أنها ساقط قيد وأن...

قاطعتها مريم: «عرفتِ منين موضوع ساقط القيد يا أمينة؟!».

«يا ستي اللي يسأل ما يتوهش. المهم إن الموظفين قرفوني، مش عارفه آخد منهم حق ولا باطل، قلت انتِ اللي هتساعديني».

لا تشعر مريم أنها تيقظت تماما. جزء منها لا يزال في عمق الماء يعافر كي ينجو وجزء ثانٍ يتأمل أمينة وهي تحكي عن الوظيفة التي اتفقت عليها في جمعية خيرية في السيدة زينب. سافرت المسئولة عن المطبخ لابنها في دبي، وتأخر تسليم الوجبات، وأصبحت سمعتهم لدى الزبائن طينا. توقفت مريم عن سماع التفاصيل ونظرت إلى أمينة. هل تحكي لها عن رؤوف والخذلان؟ عن هنية التي لم تعبر ببالها منذ سنين، أم تخبرها عن إحساسها بالغيرة منها؟! بيتٌ ورقم قومي ووظيفة يا أمينة! حياة تولد وتكبر في غضون شهرين!

«بصي يا مريم، النهارده مش هنلحق السجل المدني، بس انتِ هتقومي تلبسي ونطلع ع السيدة. مش يصح برضه تيجي تشوفي البيت. أنا وضبت لك سرير في أوضتي. انتِ بتضحكي على إيه؟ مش يمكن تكلميني يوم وتقوليلي: جاي لي مزاج يا أمينة أبيت معاكم النهارده؟».

هل تخبر أمينة أنها تكره بيت السيدة زينب ولا تريد أن تراه؟

«وعايزه بعد إذنك أستلف منك كتب جديدة».

جرجرت مريم نفسها وراء أمينة إلى غرفة المكتب. وقفت تنظر إليها وهي تعيد الكتب التي قرأتها إلى أماكنها وتتفحص الأرفف، وتأكدت أنها بالفعل تشعر بالغيرة من أمينة.

١٦

«أدخلوني.. أنا كاثرين.. أدخلوني...!».

أحست كاثرين أن خيوط الزمن تنزلق من بين يديها. لم تعد تعرف إن كانت لا تزال تدور حول بيت المرتفعات تصرخ أن يفتحوا لها، أم أنها في غرفتها في بيت السيدة زينب! كان جسدها يرتجف، لكنها تشعر ببرودة الكمادات فوق رأسها وتسمع صوت أمينة كأنما يأتي من حفرة عميقة. كانت تستعيذ بالله وتقرأ القرآن.

جسد كاثرين ساخن كأن الجحيم يعيش تحت جلدها وجزء من عقلها يتمنى أن يكون هذا حلما حتى لو كان بإدجار وبموتها. لو أنه حلم فستصحو منه وتعود إلى حياتها. مرت دقائق وهي تزحف بصعوبة خارج حلمها، لكنها كانت دهرا. عقلها ـ الذي كان كالبالونة المنتفخة بالهواء ـ بدأ يهبط بهدوء إلى وجه أمينة ومن ورائه نافذة الغرفة وأصوات الحارة. خرج صوتها مبحوحا وهي تقول لأمينة: «أول مرة أرجع للأحلام دي من ٣ شهور!».

في الحلم كان الهواء خارج البيت باردا وصفير الرياح يعلو ويتداخل مع حركة فروع الصفصاف في معزوفة تنذر بالشؤم. على الرغم من أن الساعة كانت الخامسة مساء فإن سماء «يوركشير» أظلمت كما لو أن أحدهم قد ألقى عليها بطانية رمادية لم يلبث لونها أن اسودَّ مع امتلائها بزخات المطر. في الداخل كانت نيران المدفأة تتراقص فترسم أشباحا باهتة على الحيطان الأنيقة. كاثرين

ممددة فوق السرير، عيناها لا تحيدان عن تراقص الظلال وقلبها ينبض بخفوت، بين كل نبضة وأخرى مسافة من الوقت والتردد. لقد ولّى النهار. رحل مبكرا ولا أحد يعلم متى سيعود! وهي متعبة جدّا، مريضة إلى حد الموت، والموت يجلس في ركن الغرفة، امرأة ملتفة بعباءة من القطيفة حالكة السواد تنظر نحو كاثرين بعينين لونهما أخضر غامق كأعشاب البحر.

أدارت كاثرين عينيها بعيدا عن المرأة، وشاهدت جسدها يطفو في الفراغ الضبابي للغرفة وينظر إلى شبحها الراقد فوق السرير.

ليس ثمة قمر هذا المساء، الوادي غارق في ظلام المحاق، لكنها ترى ضوءا ينبعث من غرفتها في بيت المرتفعات. نعم، أرى الضوء بوضوح، ألا ترونه؟ ها هو سريرها الخشبي الذي يبدو كالصندوق الكبير، هذا هو باب السرير والقفل والإنجيل الملقى على حافة النافذة والذي كتبت على هوامشه اسمها، كاثرين إرنشو.. كاثرين هيثكليف.. كاثرين لينتون.. كاثرين هيث...! انظري يا نيللي، هذه غرفتي والشمعة الموقدة داخلها والأشجار التي تحتك بالنافذة مع اشتداد الرياح! هل ترين الشمعة الأخرى في سندرة «جوزيف»؟ إن «جوزيف» يصحو حتى وقت متأخر. إنه ينتظر عودتي حتى يغلق البوابة. سوف ينتظر «جوزيف» بعض الوقت فالرحلة صعبة والقلب الذي يمشيها حزين ولا بد أن نمر في طريقنا بكنيسة «جيمرتون»!

آاااه... كاثرين هناك بالفعل، تسمع صدى صوتها يتردد حول

بيت المرتفعات، يدور ويلف حوله ويصطدم بجدرانه السميكة وزجاج النوافذ المغلقة. أدخلوني...!

عادت إلى غرفتها وإلى «إدجار» الذي يجلس بجانبها بجسده الرقيق ووجهه الأرستقراطي الناعم تحوطه هالة الشعر الأشقر. كانت عيناه حزينتين. لِمَ يبدو عليه أنه جالس في جنازتي هكذا؟ عجيب أمر هذا الرجل. أنا لم أمت بعد أيها الأبله! أحست برأسها ينصهر بحرارة الحمى.

ماذا تريدين منه يا كاثي؟ ألا تكفيكِ أنانيتك التي أسكنت البيت بالغربان السود منذ أن وطأته قدماكِ! يا لك من جاحدة معدومة الضمير. ماذا فعل هذا المسكين غير أن أحبكِ!

كاثرين تحبه أيضا. كاثرين تحب إدجار الجالس الآن على طرف السرير يحتضن يدها. رفعت إليه يدا مرتعشة وربتت وجهه. الموت ليس جميلا، لكنه يشبه الراحة، يشبه السكون التام الذي لا يعكر صفوه أنين قلبها.

دخلت «نيللي دين» الغرفة بجسدها المتين وصحن الحساء الساخن في يدها. أشاحت كاثرين بوجهها نحو نافذة الشرفة المطلة على الحديقة. سحقا لتلك الحديقة الكبيرة المنمقة المهذبة التي تشبه أصحاب البيت! لكن كاثرين ليست هنا، إنها تلف وتدور حول البيت الرابض رصينا ولامباليا فوق المرتفعات الخشنة وتلك النوافذ التي تشبه العيون الصغيرة المحفورة في الحجر. كان أجدادها يعرفون طبيعة الرياح في تلك المنطقة فخبئوا النوافذ في

عظام البيت العريضة. إنها الآن في المرتفعات ترفع وجهها نحو الاسم المحفور فوق الباب «إرنشو عام ١٥٠٠». «افتحوا.. أنا كاثرين..!».

انتبهت على «نيللي دين» تحشر الملعقة الفضية في فمها فيندفع الحساء إلى حلقها بلا طعم. نظرت إلى مربيتها بغضب. عليكم جميعا اللعنة، وأنت أولهم يا نيللي...!

كان إدجار صامتا. أمسك يدها الباردة بحنان بارد، ثم رفعها إلى فمه الرقيق وقبلها قبلة ـ مثل هذا الحساء ـ بلا طعم. حوَّلت نظرها إلى المرأة الجالسة في ركن الحجرة والتي كانت تهمهم بلحن خفيض. تعرف كاثرين أن قبل حلول الربيع القادم ستكون قد رقدت في أرض يوركشير السوداء الخشنة. ستنام دون أن يقدر أحدهم على أن يزعجها، لا إدجار ولا نيللي ولا الطفل الذي يصر على المجيء إلى الحياة على الرغم من عدم اكتراثها به ولا الملعون هيثكليف بالطبع. هيثكليف الذي سوف تكسر قلبه بموتها.

لن تتركه وحاله، ستفعل ما في وسعها كي يعيش تعيسا. لا شك أن الوغد ناكر الجميل هذا سوف يستكمل حياته من بعدها! لعنة الله عليك يا هيثكليف. لا.. لا.. نحِ الله جانبا. إنها لعنتي أنا.

«اشربي يا كاتي».

قرَّبت أمينة من فمها الكوب. نظرت كاثرين حولها فرأت صورة تلال «يوركشير» وصخرة «بنستون» المعلقة على حائط غرفتها.

حركت أصابع يديها كأنها تتأكد أنها لاتزال داخل جسدها. كانت أمينة قد رفعت جذعها وأسندته إلى ظهر السرير وبدأت تسقيها عصير الليمون بالعسل. سرت برودة السائل في حلقها. كان طعمه لذيذا. لم تحكِ لأمينة الحلم فقد سمعت تفاصيله أكثر من مرة في بيت السيرينت، بل إن بإمكان أمينة أن تعيد على مسامعها كل أحلامها حلما حلما.

«هي الساعة كام يا أمينة؟».

«مقربة على ١١ بالليل. إنتِ مانمتيش إلا ساعة وسمعتك بعدها بتصرخي فجيت جري».

«خلاص يا أمينة أنا كويسه. ده حلم».

ابتسمت أمينة وتنهدت: «الله يجازي شيطانك يا كاتي، وقعتِ قلبي في رجليَّ». ثم سكتت للحظة ولمعت عيناها وهي تقول:

«ماتيجي نروح البحر».

نظرت إليها كاثرين باستغراب. البحر؟

البحر! الآن؟

«أيوه، مش طول عمرك نفسك تروحي البحر! وبعدين بكره أجازة وما عندناش شغل».

قالتها أمينة والفكرة التي لا تعرف من أين جاءتها تكبر في دماغها بسرعة وتشعشع. أمسكت بالموبايل وضربت رقم مريم.

١٧

انطلقت السيارة «الفورد» موديل ١٩٧٩على الأسفلت ودواسة البنزين تزغرد مع كل ضغطة من قدم مريم. السيارة التي انطفأ لونها الفضي واجرَبَّ نفضت عن جسدها غبار السنوات والرقدة أمام باب بيت الروضة كأنها يتيمة. تمطأت وهي تنطلق خارجة من بوابات طريق مصر ـ إسكندرية الصحراوي. لا تصدق مريم أنها قد وافقت على السفر إلى الإسكندرية بعد منتصف الليل. لقد سحبت مفاتيح السيارة ببساطة، مرت على كاثرين وأمينة في السيدة زينب، ثم إلى طريق الإسكندرية. جلست أمينة إلى يمينها تدير مؤشر الراديو بين المحطات، وانشغلت كاثرين في الكنبة الخلفية بمتابعة موقع السيارة على خرائط جوجل.

نظرت أمينة إلى السيارات العملاقة التي تمرق كالسهام من الجانبين وأحست بدوخة خفيفة. إنها الآن تنطلق في قلب الصحراء من مدينة إلى مدينة وحدها مع امرأتين!

«يعني أنا كنت مخدوع فيكِ السنين دي كلها وأنا مش دريان!».

تردد في أذنيها صوت أحمد عبد الجواد حين كان يوبخها بعد زيارة سيدنا الحسين دون علمه. كان يتكلم بهدوء ومرارة وهو ما آلمها أكثر من أن يزعِّق فيها كعادته.

«إزاي ارتكبتِ الخطأ الكبير ده؟ كل ده عشان بعدت عن البلد

يوم واحد؟ ما عنديش غير كلمة واحدة. سيبي البيت فورا يا أمينة».

ابتسمت في سرِّها. الله يمسيك بالخير يا سي السيد.

قالت كاثرين: «مصر كبيرة جدًّا يا أمينة!».

«أيوه يا بنتي ومين سمعك!».

نظرت مريم إلى كاثرين في مرآة السيارة الأمامية وقالت بابتسامة صغيرة: «وإنجلترا كبيرة برضه يا كاتي».

«أنا ما اعرفش من إنجلترا غير التلال والأحراش في الأميال اللي بين بيت المرتفعات وبيت لينتون!».

قالت أمينة: «في بيت السيرينت ماكانتش بتبطل كلام عن البحر، البحر اللي محاوط إنجلترا من كل ناحية لكن عمرها ما راحت له! طب أنا وكان ممنوع أزور سيدنا الحسين اللي ف ريحنا، إنما إنتِ بقى يا بنت إرنشو؟» وضحكت.

سكتن عن الكلام وصوت الهواء يتدفق إلى داخل السيارة ويختلط بصوت الراديو. أنصتت أمينة إلى رجل يتحدث عن اعتصامات عمال مصنع غزل ونسيج يملكه رجل أعمال هارب. قالت: «هربان من إيه يا مريم؟». استمعت إلى مريم تحكي عن السرقات والنهب التي أصبحت أخبارا عادية وبدأت تعقد في ذهنها المقارنات.

مقارنات مرة واحدة يا أمينة؟ وهل كنتِ تدرين شيئا عَمَّا يدور خارج بيت النحاسين؟

من قال هذا؟ لقد كانت تتابع الأمور الكبيرة، تعرف عنها من عبد الجواد عندما يحكي في آخر الليل، وفي النهار كانت تستمع باهتمام لكلام فهمي وياسين. ثم إنها لم تكن بحاجة إلى من يروي لها ما يحدث في سنوات الحرب. ألم تعش مرار حربين؟ صحيح أنها لم تعانِ الفقر والجوع الذي جعل من أجنحة الدجاج وليمة للفقير، ولا خُطف أحد أبنائها ليحاربوا في صفوف الإنجليز، لكن الخوف في سنين الحرب يطال الجميع حتى لو كان الواحد وراء سبعة أبواب.

قطع صوت مريم خيط أفكارها: «الله يسامحك يا أمينة، أنا مش عايزه أعرف اللي بيحصل!».

«وده كلام يا مريم! ده حتى في أيامنا كان الواحد...».

«أيامك يا أمينة كان فيه ثورة ضد الاحتلال. دلوقت عندنا احتلال من غير ثورة. أيامك كان فيه برلمان بيتحدى الملك. أيامنا البرلمان بيمد حالة طوارئ سارية من ٢٩ سنة. أيامك كان طلعت حرب بيأسس اقتصاد وطني. أيامنا رجال الأعمال واكلينها والعة والناس بيعتصموا أيام وليالي قدام مجلس الزفت الشعب، والرئيس عايز يورث الخرابة لولي العهد!».

قالت أمينة إن البرلمان الذي تتحدث عنه مريم لم يكن يمثِّل إلا أقل القليل من الشعب، معظم المصريين كانوا تحت خط الفقر ولم يطلهم أبيض ولا أسود من برلمان أو ملك أو من جن أزرق. من

أين جئتِ يا مريم بهذا الكلام؟

قاطعهم صوت كاثرين: «البحر يا أمينة!».

كانت كاثرين قد فتحت الشباك عن آخره فتدفقت رائحة اليود إلى السيارة. أخذت نفسا عميقا وأخرجته مصحوبا بتنهيدة: « البحر...!».

اقتربت عقارب الساعة من الثالثة والنصف فجرا ومريم توقف السيارة في ساحة ركن السيارات في الشاطبي. اتكأت أمينة على ذراع مريم، ونزلت خطوتين إلى الصخرة الكبيرة تحت السور وتبعتهما كاثرين.

انبسط البحر أمامهن كسجادة سوداء هائلة الحجم، من فوقه تحركت السحب بكسل ونُعاس. كان هواء منتصف الصيف قويّا ومشبعا بالرطوبة. جلسن في صمت وهدير الموج يملأ أسماعهن، ينخفض للحظة ثم يعلو مع ارتطام موجة قوية بالصخور. أنصتت كاثرين إلى صوت الأمواج وأحست بالوقت يبطئ من سرعته كأنما قد أدرك فجأة أنه يجري بلا معنى ولا هدف.

أغمضت كاثرين عينيها ورذاذ الماء يلمس وجهها. لعقت الملح على شفتيها باستمتاع وهي تمر بيديها فوق تعريجات الصخرة تحتها. كان ملمس الطحالب زلقا وناعما كأنها جلد حيوان خرافي ينام منذ قرون عند حافة البحر. في دماغها رأت صورة البحر، كان أسودَ وممتدا حتى نهاية العالم. فوق سطحه تتابعت الأمواج فبدت

كصفوف من الخيول البيضاء تعدو بقوة نحو الشاطئ. كان منظرها جميلا لدرجة أن كاثرين أحست بانخطاف قلبها. ظلت للحظة تتابع تدفق موجات الخيول، ثم بدا لها أن هناك فارسا فوق أحدها. نعم، ها هو جسده ينتصب فوق السرج. انتفضت كاثرين واقفة.

هيثكليف!

هل هذا هو هيثكليف؟!

ارتفع الحصان فوق موجة ضخمة وعاد للهبوط. جرت كاثرين إلى الأسفل، قفزت فوق كتل الصخور حتى لمست قدماها حافة الماء. لوحت بيديها وهي تنادي. خاضت في الماء، تقدمت حتى وصل إلى ركبتيها، إلى وسطها، وبدأ الموج الثقيل يدفعها في شتى الاتجاهات، طعم الملح يغرق وجهها والماء يدخل إلى حلقها، لكنها لم تبالِ. الحركة عكس التيار صعبة، لكنها تتقدم إلى الداخل بقوة مجنونة. امشي. اسبحي. لكنني لا أعرف السباحة. لا يهم.. تحركي أيتها الحمقاء! هل هذا هو «هيثكليف»؟ أنا لا أرى وجهه في الظلام.

هيييييثكليف..!

انحرف الفارس إلى اليسار وخصلات شعره الطويل تطير إلى الوراء. حصانه يسابق الريح فوق الموج.

أنا كاثي يا هيثكليف!

بعثر هواء الفجر النداء. ألقى به مزقا تطايرت فوق رمال الشاطئ.

فتحت كاثرين عينيها على البحر وقد ازرق لونه مع نور بدايات النهار. كانت أمينة ومريم تجلسان متجاورتين على صخرة أسفلها قليلا تنظران إلى البحر. رفعت كاثرين عينيها نحو السماء. هل كانت هذه ليلة محاق؟ أمركِ عجيب يا كاثرين، تتساءلين عن اختفاء القمر بعد أن بدأ النهار! وما الذي يجعلك الآن تتذكرين المحاق ولياليه السوداء؟

لن تنسى كاثرين أبدا ذلك اليوم عندما خرجت تجوب التلال حول بيت السيرينت. عند الغروب سمعت في صوت الرياح نداء: «كاثي.. تعالي إليَّ.. كاثي...». هل يمكن أن يكون هذا هو صوت السيرينتات؟ بل هو صوت هيثكليف الذي لا يمكن أن تخطئه! لكزت الحصان وانطلقت تجري في اتجاه الصوت. عندما حلَّ الليل أدركت أنها فقدت طريقها، لم تبالِ، استمرت في جريها المجنون. في اليوم التالي خرجت نساء البيت يبحثن عنها ووجدنها مغشيّا عليها أسفل أحد التلال.

هل هيثكليف الذي رأته الآن هو صنيعة السيرينتات، مجرد سراب آخر في سلسلة السراب الأبدية؟

هيثكليف...! لو أنه لم يسترق السمع إليها في ذلك اليوم المشئوم!

كانت قد اختلت بمربيتها «نيللي دين» في المطبخ وأخبرتها أنها وافقت على الزواج من إدجار لينتون. بالطبع أحبه يا نيللي، فهو وسيم ورقيق المعشر وشاب ومرح وسيصبح غنيّا. لم تبدُ نيللي

مقتنعة بتلك الأسباب، ولم تفهم لمَ تبدو كاثرين تعسة هكذا إن كانت تحبه! لكن كاثرين تعرف في أعماقها أنها مخطئة في قرارها، فهذا هو ما عرفته من حلمها الذي حاولت نيللي أن تراوغ حتى لا تسمعه لأنها تتشاءم من حكي الأحلام. لكن كاثرين أصرت على أن تخبرها: لو أنني كنت في الجنة، لأصبحت بائسة. هزت نيللي رأسها توافقها: طبعا؛ لأنك لست أهلا لذلك، فالخاطئون يجدون في الجنة التعاسة والشقاء. استكملت كاثرين: حلمتُ أني كنت في الجنة، لم تبدُ مقرّا وسكنا لي، مزقت قلبي من البكاء كي أعود إلى الأرض، والملائكة غضبوا مني غضبا شديدا فطوَّحوا بي من السماء، سقطتُ فوق أحراش المرتفعات وصحوت وأنا أبكي فرحا.

لقد حكت لنيللي الحلم كي تخبرها سرَّها، أنا لم أخلق للزواج من إدجار لينتون، كما لم أخلق لأكون سعيدة في الجنة. لو أن أخي الشرير لم يهبط بهيثكليف إلى الدرك الأسفل ما فكرتُ في هذا الزواج. أما الآن فزواجي من هيثكليف سيحطُّ من مكانتي. لذلك لن يعرف هيثكليف أبدا كم أحبه. أنا لا أحبه لأنه وسيم يا نيللي؛ لكن لأنه أشبه بي مني وأقرب إلى قلبي من نفسي. مهما كانت طبيعة الشيء الذي تصنع منه الأرواح فإن روحي وروحه قد صنعتا من عنصر واحد. أما لينتون فالفرق بينه وبيننا كالفرق بين شعاع القمر والبرق أو بين الجليد والنار.

الخبيثة نيللي عرفت أن هيثكليف كان يسترق السمع، ورأته

يتسحب في هدوء من باب المطبخ بعد أن سمع كاثرين تقول إن الزواج منه سيحط من شأنها ولم تفتح فمها بكلمة. كان بإمكان كاثرين أن تلحقه قبل أن يهرب من المرتفعات ويتركها لخيار واحد، أن تتزوج لينتون!

أتاها صوت مريم: «يالّا يا كاثي عشان ناكل. أنا وأمينة جعانين».

انتبهت كاثرين من شرودها على ارتفاع قرص الشمس الذي جعل مريم وأمينة تبدوان كخيالي ظل. مسحت وجهها المبتلّ بالماء والملح وهي تنظر إلى الموجة التي اقتربت ثم ارتطمت بالصخر أسفلها. فردت جسدها فطقطقت عظام ظهرها وهي تنفض عنها أثر الجلسة الطويلة. مشت كاثرين بجانب أمينة ومريم على الكورنيش بينما الضوء الغامر يبتلع ملامح مطبخ بيت المرتفعات ووجه نيللي دين. شعرت هي أيضا بالجوع يقرص بطنها.

١٨

نزلت أمينة سلم البيت في السابعة والنصف صباحا بعد أن اطمأنت إلى تناول كاثرين إفطارها قبل النزول إلى سيارة المدرسة. منذ رحلة الإسكندرية وكاثرين صامتة أغلب الوقت، تقفشها أمينة أحيانا في حالة شرود؛ وهو ما يثير في قلبها القلق. لقد ظنت أمينة أن زيارة البحر سوف تسعدها، لكن سبحان الله، لقد قلبت مزاجها ورسمت على جبينها تقطيبة لم تفت أمينة التي خبَرت كاثرين وتقلباتها.

وقعت عيناها على زينة رمضان والفوانيس التي تزين سماء الحارة والحارات المجاورة.

والله زمان!

ابتسمت وهي تخطو نحو شارع بورسعيد حيث مقر جمعية «خير بلدنا». كانت قد استلمت العمل أول رمضان وهو ما بث في نفسها الراحة كأن الله يطمئنها. لا شك أنه يعرف عن القلق الذي ينهش قلبها على الصغيرة والكبيرة، القلق المزعج الذي أتقنت مراوغته بالانشغال في أمور الحياة. الحمد لله على كل شيء. تمتمت بها وهي تتنفس. كان الهواء حارّا مشبعا برطوبة أغسطس وهو ما جعلها تشعر بالعطش وهي لا تزال في أولى ساعات الصيام. هبت عليها رائحة مسك قوية من ناحية مسجد الطاهرة. شعرت بقوة تسري في ساقيها، ومن ساقيها إلى صدرها الذي انفتح لينهل من

الرائحة. تنفست بعمق استعدادًا للدخول إلى البناية الكبيرة حيث مقر الجمعية، فهناك تنتظرها أكوام القمامة التي تمرح فوقها القطط والعناكب المستقرة في الأركان وفوق نوافذ السلم المكسورة. لقد قضت الأيام الماضية تتقصى أثر المسئول عن نظافة البناية. سوف تحدِّث الحاجة «لولا» مديرة الجمعية اليوم في هذا الأمر. لا بد من الاتفاق مع بواب يتولى مهام النظافة، فلو كانت أمينة زبونة لدى الجميعة لأنِفت أن تشتري طعاما من مكان بهذا الشكل.

عند باب الأسانسير رأت «عطيات»، والتي تصر على أن يناديها الجميع بـ«الحاجة». الحاجة حاف من دون أسماء! فكرت أن في زمانها كانت «أمينة هانم». ماذا لو أنها طلبت من الناس أن ينادوها بـ«هانم» فقط؟ ضحكت أمينة في سرِّها.

«صباح الخير»، قالتها أمينة وهي تخطو نحو السلم كي تصعد الأدوار الستة على قدميها، فهي لا تحب هذا التابوت المعدني الصدئ. سمعت وراءها صوت عطيات: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

دخلت أمينة إلى شقة الإدارة وعلَّقت على الحائط الورقة التي كتبت فيها أسماء الموظفات واختصاص كل منهن. نظرت سميرة إلى الورقة بعينيها الجاحظتين من وراء النقاب الأسود الذي كانت الست هدى شعراوي قد رفعته عن وجهها عام ١٩١٩، والذي لم ترتدِهِ أمينة ومن عرفتهن من نساءٍ يوما. قالت لسميرة: «كده كل واحدة مننا تبقى عارفه مسئولياتها ومواعيد تسليم الشغل. إحنا في

رمضان والمطبخ بيقفل واحدة الضهر. يعني مفيش وقت نضيعه».

تجاهلت أمينة نظرة الاستغراب في عيني سميرة وانطلقت إلى الشقة المقابلة حيث المطبخ. كانت فاتن وأم أحمد وسندس منهمكات في حشو ورق العنب بأيادٍ سريعة مدربة، ينتهين من لف الإصبع ويضعنه بدقة بجانب باقي الأصابع الخضراء اللامعة في الأطباق الألومنيوم. مسحت أمينة المطبخ بعينيها تتأكد من نظافته، وعادت لتتفحص أرز المحشي المخلوط بالخضراوات والطماطم والديوك الرومي التي نامت منتفخة وسط التوابل والبصل، ثم توقفت عند علبة السمن.

«إيه ده؟ سمن صناعي!».

رفعت أم أحمد وجهها إليها ويداها مستمرتان في اللف: «سلامة النظر يا حاجة أمينة. ما احنا دايما بنطبخ بالسمن ده. إنما والله مرمِّل وطعمه ما يفرقش عن البلدي». خرجت أمينة وهي تشعر بالغيظ، إنهم يكسبون من بيع تلك الأطعمة نصف المطهوة ما يكفي أن يطبخن بسمن طبيعي. لن تسمح باستمرار هذا الوضع حتى لو وصل بها الأمر أن تشتري السمن من جيبها الخاص. سوف تحدث مديرة الجمعية في الأمر عندما تحضر وقت الظهر.

في غرفة الإدارة كانت الدادة «أم الهنا» تدور على المكاتب بفوطة صفراء مشبعة بالتراب والبقع، وكان صوت الشيخ الأخنف يصيح من موبايل الست عطيات محذرا النساء من الإثقال ماديّا

على الرجال؛ لأن في هذا «مخاااااالفة» للشرع. كان يمط الألف بشكل يضحك أمينة. على النساء ألا يطلبن مهرا ولا شبكة، حتى فستان الفرح معصية. أخذ الرجل يصيح بشكل جعل أمينة تفكر أن أحد عروقه على وشك أن يطق من شدة الانفعال: «لبس العروسة في ليلة زفافها ما يسمى «التشريعة» مخاااالفة، والتشريعة هي عبارة عن ثياب بيضاء طويلة غالية الثمن، وقد تكون معها قفازات وجوارب بيضاء اللون، وهذه من عادات النصارى القديمة عند عقد الزواج في الكنيسة، ولا يجوز لبسها لما فيها من التشبه بالكافرات؛ ولما فيها من الإسراف والتبذير حيث لا تلبسها المرأة إلا مرة واحدة في العمر، ولهذا أيتها المؤمنااااات....».

سددت أمينة لعطيات نظرة حادة وهي تطلب منها أن تخفض من الصوت؛ حتى تتمكن من التركيز في الأوراق التي بين يديها. بان في عينيّ عطيات نظرة استنكار ذكرت أمينة بعيني الست «ماكبث»(*******) التي تركتها وراءها في بيت السيرينت. كانت أمينة تخاف تلك المرأة وتتفادى نظرات عينيها التي تنطق بالشر. ما إن تراها تتبختر في بهو البيت كالملكة وتحتل مقعدها المفضل بجانب المدفأة حتى تترك أمينة المكان كله وتمشي. ما الذي أتى بتلك المرأة على بالها الآن؟ يا ستّار يا رب! زفرت أمينة بضيق وهي تشعر بصدرها ثقيلا كأن فوقه حجرا. كم تود لو استطاعت رؤية السماء! ويا سلام لو أنها اصطحبت نساء هذه الجمعية إلى مكان مفتوح لا يُسمع فيه كلام أو أصوات جعير تهدد السامعين بجهنم

وبئس المصير. سوف تجلسهن وتطلب منهن أن ينظرن إلى السماء دون كلمة واحدة.

في الثانية عشرة والنصف، عادت إلى المطبخ لتتابع تسليم الطلبات. كانت تفكر في شعورها بالاستغراب، أم هي غربة عن هذا المكان ونسائه يا أمينة؟ إنه شعور لم تألفه. حتى في بيت السيرينت لم تشعر بالغربة، فبعد أن مرت أوقات الخضَّة والتوهان، أصبح البيت بيتها، وشعرت مع مرور السنوات كأنها عاشت حياة طويلة عريضة في تلك القلعة الحجرية المغروزة في الصخر العالي، وأن حياتها الأولى كانت حلما جميلا استمر سنوات وانقضى بعد أن ترك في القلب ما ترك. وعلى الرغم من الجروح والحنين، أو ربما بسببها، انفتح قلب أمينة لرفيقات البيت. كانت ليلى[********] هي الأقرب إليها منذ أن ظهرت في بيت السيرينت بعد أمينة ببضع سنوات. مرت في خيالها عيناها السوداوان المبتسمتان وشعرها الأسود القصير وابتسامتها الحلوة. حكت لها ليلى عن حبيبها حسين وعن الحرية التي قضت عمرها تناضل من أجلها. عاد إلى أمينة ذلك الصباح الربيعي عندما كانت تشرب مع ليلى القهوة في مكتبة بيت السيرينت، وحكت لها ليلى عن إحساسها وهي تسير في مظاهرة تطالب بخروج الإنجليز من مصر. في اللحظة التي كانت فيها مجرد قطرة في بحر موَّاج بالبشر تبخر خوفها من الموت. «كنت باقول لنفسي يا أمينة إني لو مُت في مظاهرة فأنا واحدة من آلاف ماتوا، ولو عشت فأنا واحدة من ملايين اغتصبوا حقهم في

الحياة»(********). التبس الأمر على أمينة لوهلة ظنت فيها أن فهمي هو الذي يتكلم.

إن ليلى هي من اقترحت عليها موضوع الترجمة. دخلت عليها يوما فوجدتها تحكي لعزيزة(********) إحدى قصص تشيكوف القصيرة، فاقترحت أن تنقلها أمينة إلى العربية وتضعها في أرفف الترجمات. ضحكت أمينة وقتها وتضرَّج وجهها بالحمرة وهي تقول إنها لم تترجم شيئا في حياتها. قالت ليلى: «جرَّبي يا أمينة». لطالما اهتز قلبها بالفرح كلما رأت إحدى النساء تقرأ قصة أو مقالا عن ترجمة لها.

لماذا لم تأتِ ليلى معها إلى هنا في مايو الماضي بدلا من كاثرين؟

ولو أنكِ قد أتيت يا ليلى فكيف كنتِ سترين سميرة والحاجة عطيات؟ أتعرفين أنهم يذكِّرونني بحسين والمعجزة التي كان ينتظرها؟ كان يقول إن الحل هو «أن يحدث شيء هائل، شيء يهز هؤلاء الناس المحترمين المستقرين المطمئنين»، معجزة تجبرهم على تمزيق أكفانهم التي يستترون خلفها فيخافون المخاطرة ويتجنبونها لأنها قد تضرهم وتؤذي مصالحهم. يقول الواحد منهم إنه لن يفكر إلا في الأفكار التي يتقبلها المجتمع، ولن يرغب إلا فيما يرغبه الآخرون، ولن يشعر إلا بالمشاعر التي يستشعرها الآخرون «وتحت أكفانهم يعيشون، لا يحبون حبّا كبيرا، ولا يضحون تضحية كبيرة، ولا يحلِّقون في عالم الفكر والخيال والحس، ويتزوجون ويلدون قوالب متكررة»(********).

لقد استعارت أمينة نسخة مريم من «الباب المفتوح» كي تعيد قراءتها كلما أوحشتها ليلى.

«سلامو عليكو يا حاجة أمينة».

انتبهت أمينة على انصراف الست عطيات وباقي نساء الإدارة، وسمعت جلبة لململة الحلل وغسيل الأطباق تأتي من المطبخ. لم تشعر أمينة بالوقت، كأن مرور ليلى في بالها أوقف الزمن وخفَّف من ضيق صدرها. خرجت إلى الشارع وقد تلاشى إحساسها بالعطش والجوع. قررت أن تفاجئ مريم بالزيارة. ستذهب إليها وتجرجرها من البيت كي يتناولا الإفطار معا. لو رفضت مريم المجيء إلى السيدة زينب، فسوف تأخذها إلى أحد المطاعم وأمرها لله، فأمينة متأكدة أنهم أيضا يطبخون بسمن صناعي.

طلبت من التاكسي أن يُنزلها في شارع الروضة، هكذا سيكون بإمكانها أن تمشي تلك الخطوات بالقرب من النيل، مثل كاثرين. اقتربت من سور الكورنيش وتأملت صفحة النهر التي ضوَّت بنور الظهيرة. لم تحِن أمينة إلى النيل من قبل كأنه لم يكن موجودا في حياتها. لكنها الآن تشعر بقلبها يرق له. تمشت وهي تنظر إلى الماء وتفكر أنها في نعمة. النَّفَس الداخل إلى صدرها نعمة، والقلب الذي يخفق بين ضلوعها نعمة، ضحكة كاثرين والياسمين الذي أزهر في شرفة بيت السيدة زينب وصوت عيال الحارة وهم يلعبون نعمة. تحت شجرة عجوز تتهدل فروعها فوق الشاطئ وقفت أمينة تتنفس وتمسح حبات العرق من فوق جبينها. كان الإحساس

بفيض النعمة يملأ قلبها ويفيض ليفترش سطح النهر من حيث تقف وحتى الشاطئ الآخر.

كانت الساعة الثالثة ظهرا عندما دقت جرس باب مريم. لم يُفتح الباب ولم تسمع أمينة صوتا في الداخل. أخرجت الموبايل وضربت رقمها، كان الهاتف مغلقا. واصلت الضغط على الجرس وأضافت إليه خبطات كفها. سمعت عم مهني يخرج من غرفته وينظر إلى أعلى: «أهلا بالست الأميرة».

«هيَّ الدكتورة خرجت يا عم مهني؟».

«أبدا، دا أنا حتى ما لمحتش لها طرف من أول رمضان».

خرجت مدام إيمان من الشقة المواجهة فسلمت أمينة عليها وسألت عن أخبار نتيجة التوأم في الثانوية العامة. كانت على وشك سؤالها عن مريم عندما سمعت الباب يُفتح بحذر. شكرت أمينة الجارة وهي تمرق إلى الداخل حيث تقف مريم بعينين متورمتين بحجم الليمون البنزهير. قالت أمينة: «يالَّا البسي هننزل نفطر في السيدة زينب».

زمَّت مريم شفتيها وقالت: «أنا مش باصوم يا أمينة!».

ضحكت أمينة: «مش مهم. أنا صايمه لنا إحنا الاتنين».

«يا أمينة لسه كتير على ميعاد المدفع و...».

قاطعتها أمينة: «يبقى نقعدهم ع النيل بدل الحبسة في البيت. سبحان الله على أحوالك يا مريم، يعني سفر إسكندرية أسهل من

النزول من باب بيتك!».

وقفت أمينة في منتصف الصالة وأعلنت قرارها الحاسم، لن تتزحزح من مكانها إلا ورجلها على رجل مريم. سحبت الموبايل وضربت رقم كاثرين وطلبت منها أن تعزم يوسف على الإفطار معهم اليوم، رمضان كريم ويحب اللمَّة.

(********) السيدة ماكبث هي زوجة ماكبث في مسرحية وليام شيكسبير «ماكبث» التي نشرت عام ١٦٢٣.

(********) ليلى هي بطلة رواية «الباب المفتوح» للطيفة الزيات والتي نشرت عام ١٩٦٠.

(********) الباب المفتوح، بتصرف.

(********) عزيزة هي بطلة رواية «الحرام» ليوسف إدريس، والتي نشرت عام ١٩٥٩.

(********) الباب المفتوح، لطيفة الزيات، ١٩٦٠.

١٩

دخلت كاثرين الفصل ووضعت أوراقها والكمبيوتر فوق المكتب. ظلت واقفة إلى حين دخول كل التلاميذ وانتهاء الصياح والصفير الذي عادة ما يصحب دخول مجموعة الأشقياء الذين أعطوا أنفسهم لقب «الفرسان». إنهم خمسة من البلطجية المتنكرين في لباس أطفال، وهم المنفذون للعديد من العمليات الإجرامية ضد كل الكائنات الحية في محيط المدرسة؛ حيوانات وأشجار ومدرسين وأطفال، حتى الدكك الخشبية والأبواب والسور الحجري لم تسلم من أذاهم. دخل مؤمن زعيم العصابة وهو يلاحق نائبه تامر الشاذلي بالسِّباب ويضحكان. إنها بداية غير مبشرة ليوم صعب ستبدأ فيه كاثرين سلسلة من الدروس عن تاريخ إنجلترا. في الأسبوع الماضي طلبت منها مسز هنرك أن تولي اهتماما للأمر لأن هذه المادة سوف تؤهِّل التلاميذ للامتحان الذي سيأتيهم من «كامبردج» مع بداية العام الدراسي. كتبت كاثرين على السبورة تاريخ اليوم واسم الدرس وفتحت الكمبيوتر فظهر على شاشة البروجيكتور عنوان الملف «المجتمع الإنجليزي في القرن الثامن عشر».

دعونا نبدأ بالثورة الصناعية كي نفهم إلى أي مدى غيَّرت العالم. لأول مرة كان باستطاعة الإنجليز وبلدان أوروبا استخدام الماكينات والبخار والفحم لتوليد الطاقة. هل تعرفون أن السيارات

التي تركبونها والطائرات والكمبيوتر والهواتف المحمولة هي نتاج هذه اللحظة؟

يقول علماء تاريخ الاقتصاد إن الثورة الصناعية هي أهم حدث في تاريخ الإنسان منذ اكتشافه النار وتمكنه من استئناس الحيوانات. لماذا؟ لأنها غيَّرت من مستوى دخل عدد هائل من الناس. شهدت إنجلترا تصاعدا منتظما في عدد السكان ونسبة التعليم وامتلكت أعداد أكبر القدرة على القراءة. قلبت كاثرين صور العرض على الشاشة وتوقفت عند أغلفة كتب قديمة. أثارت كتابات فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت وجون لوك وسبينوزا ونيوتن عواصف التفكير والأسئلة. انظروا إلى هذا الرجل. إنه فولتير الذي أسهمت كتاباته في إشعال الثورة الفرنسية. ربما تتصورون أن «العدل» و«الإخاء» و«المساواة» هي كلمات عادية لأنكم تسمعونها كل يوم، لكنها كانت منذ مائتي عام أبعد ما يكون عن أذهان الناس. في القرن السادس عشر ـ زمن شيكسبير ـ كانوا يؤمنون بـ«سلم الوجود». انظروا إلى صورة هذا الهرم حيث الإنسان في المنتصف تقريبا، من تحته الحيوان وعالم الجماد، ومن فوقه طبقة النبلاء ثم الأمراء والملوك ثم الملائكة ومن بعدهم الرب.

توقفت كاثرين ونظرت إلى التلاميذ وعيناها تلتمعان. تصوروا ما الذي من الممكن أن يحدث عندما يتحطم سلم الوجود ويدرك البشر أن لهم دورا محوريّا. ماذا لو أدركوا أن العقل هو أداة التطور؟ كيف سيكون عليه حالنا لو اكتشفنا أننا مسئولون عن أنفسنا؟ هذه

مجرد عينة من الأسئلة التي كانت تتردد وقتها في الجامعات وصالونات البيوت والمقاهي. هل تعرفون أن المقاهي كانت اكتشافا جديدا وقتها؟

قاطعها مؤمن: «إيه ده ما كانش عندكم كافيهات؟»، وانفجر أصحابه في الضحك.

كظمت كاثرين غيظها وهي تقول إن بإمكانهم أن يسألوا ما يشاءون، لكن ليس هذا وقت المزاح! التفتت إلى البروجيكتور فظهرت الصورة التالية وفيها جملة قصيرة مكتوبة ببنط ضخم: «القرن الثامن عشر: عصر التنوير».

قاطعها صفير في آخر الفصل.

الأوغاد!

جزَّت على أسنانها وهي تفكر إن كانت ستتجاهل ما يحدث، أم...؟

حاولت أن تهدئ من غضبها. ذكَّرت نفسها أن عدم انتباه التلاميذ وتحديدا مجموعة الفرسان الوضيعة ليس عداء شخصيّا لها. إنهم يتخذون من الشغب مهنة. لقد سمعت نفس الشكوى من كل المدرسين الذين تعاملوا معهم. منذ أيام وضعوا لمسيو فرانسوا صمغا على المقعد. بالطبع كان الموقف مهينا والرجل يتحرَّك إلى غرفة المدرسين وقد التصق المقعد بمؤخرته. لم يعترف أحد بالفعلة فقرَّر معاقبة الفصل كله، لكن إدارة المدرسة أسقطت العقاب من

أجل خاطر المصاريف التي تدفع بالدولار.

أصرت كاثرين أن تستكمل الدرس. لن ينالوا منها.

يسمون القرن الثامن عشر «عصر التنوير» لأنه الوقت الذي انفتحت فيه أبواب الشك في المسلَّمات. كان من المنطقي أن يبدأ التمرد ضد المؤسسات وعلى رأسها الكنيسة. ترددت لأول مرة فكرة فصل الكنيسة عن الدولة. يقول جون لوك في «العقد الاجتماعي»: إن ضمير الفرد شأن يخصه وحده؛ إذ إن الشخص العاقل لا يمكن أن يسلم زمام أمره إلى حكومة أو إلى أي كيان آخر. تشكلت في هذا الوقت مجموعات تقدمية من المفكرين والمثقفين، منها مثلا «جمهورية الخطابات» انظروا ماذا يقولون: «وسط كل الحكومات التي تقرر مصير الإنسان، وفي قلب دول عديدة أغلبها فاسد، يوجد فضاء يهيمن منفردا على العقل. لذا نبجله باسم «الجمهورية» لأن لهذا الفضاء درجة من الاستقلالية؛ ولأن جوهره حرٌّ. إنه فضاء الموهبة والتفكر...». ستجدون هذا الكلام في صفحة...

قاطع كاثرين صوت شخرة. رفعت رأسها عن الورق مصعوقة. كان مؤمن وأصحابه يحاولون كتم ضحكاتهم. التقت عيناها بعيني مؤمن. ما هذه النظرة المتحدية في عيني الشيطان الصغير؟! انتابتها رجفة غضب شرخت قناع الهدوء. لقد نظر إليها كأنه يقول لها: «يا خيبتك! أنتِ no body. أنتِ هنا لأن أهلي يدفعون لك مرتبك».

تجمعت في رأس كاثرين سحب سوداء كثيفة تحولت في لحظة إلى

عاصفة هوجاء كأنها رياح ديسمبر تزوم في سماء يوركشير وتسحق بقسوة أشجار البلوط والعرعر القديمة. صرخت كاثرين في التلاميذ بأشياء لا تتذكرها، لكن يبدو أنها احتوت على شتائم بذيئة مستوحاة من سجل طفولتها الحافل والسنوات التي قضتها مع هيثكليف يجوبان البراري بلا رقيب كالحيوانات البرية.

في قلب ثورتها أدركت كاثرين أنها تصرخ بصوت مرعب وتقول أشياء لا يصح أن تقال لأطفال في الثالثة عشرة. لكن الأمر كان قد خرج عن سيطرتها. تحولت كاثرين إلى حيوان مطعون يصيح بصوت متحشرج وهو يلف حول الأطفال في دوائر عشوائية عنيفة.

اجتاحت الفصل برودة مفاجئة، وسمع الأطفال صفير رياح صَمَّ آذانهم كأنها عاصفة ثلجية في عز صيف القاهرة. التصقوا بأماكنهم كأنهم تحولوا إلى تماثيل.

امتدت يد كاثرين اليسرى تمسك باليمنى بقوة كي تمنعها من أن تهوي فوق وجه مؤمن. ستكون الصفعة عنيفة بما يكفي أن تلصقه بالحائط فتتهشم جمجمته ويخرج مخه المهترئ ليلطخ الحائط!

ثم التقت عيناها فجأة بعيني أميرة. بالأمس فقط كانت تلك العينان تبتسمان بخجل وأميرة تقرأ أمام يوسف سطورا من دور «أزميرالدا» في مسرحية «العاصفة»(*******). الآن يرتجف جسد البنت بعنف وصدرها يرتفع وينخفض كأنها على وشك البكاء.

اندفعت كاثرين خارج الفصل وقلبها ينتفض كأنه على وشك القفز خارج صدرها. جرت في طرقة المدرسة حتى غرفة المدرسين، خطفت حقيبتها ومرقت خارج الباب. أبطأت من جريها عندما سمعت الصوت في رأسها. كان كالنحيب.

فإذا باللوحة قد طارت وانطلقت ومضت

والمرآةُ من الجنب إلى الجنب انكسرت

لا يا شالوت، هذا ليس وقتكِ. اتركيني وحالي الآن!

لكن الأغنية ظلت تكرِّر نفسها في دماغ كاثرين من القطامية حتى بيت مريم.

تركت منسجها.. تركت لوحتها

وخطت خطوات لم تعدُ ثلاثا في غرفتها

فرأت زنبقة الماء بزهوتها

ورأت خُوذَته مع ريشتها

ورأت بالعينين القلعة في كاميلوت

فإذا باللوحة قد طارت وانطلقت ومضت

والمرآةُ من الجنب إلى الجنب انكسرت

«قد حلت تلك اللعنة بي» صرخت

غادة شالوت....

(********) مسرحية «العاصفة» هي إحدى المسرحيات الكوميدية لوليام شيكسبير، يرجح أنها كتبت في عامي ١٦١٠ و١٦١١.

٢٠

هدأت كاثرين مع الكوب الخامس من عصير الليمون الذي أعدته مريم لها عند وصولها إلى بيت الروضة. كانت قد هاتفت أمينة فور أن تركت المدرسة في العاشرة صباحا وتقاذفت من فمها أجزاءٌ من الحكاية ممتزجة بسيلٍ من السِّباب واللعنات. طلبت منها أمينة أن تتجه إلى مريم وسوفً تلحق بها هناك بعد انتهاء ساعات العمل. في الثالثة بعد الظهر كانت كاثرين قد حكت موقعة الفصل مرتين؛ مرة لمريم ومرة أخرى لأمينة. ظلت مقطبة، تصمت قليلا ثم تعود إلى البرطمة: «ابن القحبة الصغير! وقح! الولد يا مريم شرير...».

قالت أمينة: «أعوذ بالله يا كاتي، ده عيل مهما كان!».

حدجتها كاثرين بنظرة نارية ولم ترد.

سألت مريم إن كانت تعرف شيئا عن خلفية الولد، علاقته بوالديه، أي شيء من الممكن أن....

قاطعتها كاثرين: «أنا مش طبيبة نفسية يا مريم، أنا مُدرِّسة!».

هزَّت مريم رأسها وهي تؤكد أنها تعرف أن كاثرين مُدرِّسة، وما ستقوله ليس دفاعا عن أطفال يشخرون لمدرسيهم، لكن «العقد الاجتماعي! جمهورية الأدب وسلم الوجود يا كاثرين!». إن مريم لا تعتقد أن المادة كانت مناسبة لهؤلاء الأطفال. يبدو أن كاثرين كانت في كوكب والتلاميذ في كوكب آخر!

قالت كاثرين إنهم سيمتحنون في هذه المادة، كما أنها كانت تريدهم أن يكتشفوا الخيوط التي تربط حياتهم اليوم بما حدث في العالم منذ ثلثمائة عام، وانطلقت تحكي عن الصور التي جمعتها ومقاطع الأفلام الوثائقية.

دَقَّ موبايل كاثرين فقطع الحوار. نظرت إلى الشاشة. إنه يوسف يتصل للمرة الخامسة في خلال الساعات الماضية. أغلقت صوت الموبايل، لم يكن لديها ما تقوله. قامت من كرسيها وبدأت تخطو في صالة البيت من الجدار إلى الجدار.

تأملتها مريم. إن كاثرين عنيدة بشكل مستفز، عنيدة وترفض الإنصات إلى كل ما يتعارض مع رأيها، كما أنها متقلبة المزاج. تبدو في انتقالها من حال لحال كأنها أكثر من امرأة. الانفعالات العنيفة تأتي من شخص جامح ومتمرد على سياقات المعتاد والمفروض والجيد، أمر بديهي أن العاصفة لا تستأذن أحدا. وبعدها يحل هدوء مفاجئ وعميق كأنه الهواء يحوِّم خفيفا حول دير معزول على أطراف العالم. وهكذا يظل الطقس يتقلب على مزاجه ما بين زوابع وأعاصير ثم شمس مشرقة لطيفة تبتسم ببراءة كأنها لا تدري شيئا عن الدمار الذي خلَّفته وراءها.

قالت أمينة: «استهدي بالله يا كاتي. مالك بس؟».

توقفت كاثرين عن المشي ونظرت إلى أمينة:

«أنا كمان مش فاهمة مالي!».

تحركت نحو باب الشرفة. كان ظهرها لأمينة ومريم وعيناها تتشبثان ببقعة السماء الصغيرة في الخارج.

«في شتا ١٧٧٥ كنت عارفه إن قبل الربيع الجاي هاكون مُت. كنت عارفه إن الموت بيقرَّب وكنت باتمناه، لكن في نفس اللحظة كنت باتمنى الحياة بكل كياني!».

ثم وجدت كاثرين نفسها في الخلاء المحيط ببيت السيرينت. كان كل شيء غريبا وغير مفهوم، المكان ونساء المكان وغياب كل تفاصيل حياتها، لكن ما سيطر على دماغها هو فكرة واحدة. لقد تحررت أخيرا ولا شك أنها سوف تلتقي بهيثكليف، لا تعرف كيف أو متى، لكنها على يقين باجتماعهما مرة أخرى. مرت أيام وسنوات وكاثرين تتخبط بين البحث والرجاء والانتظار واليأس والغضب المجنون. كانت تعيش داخل دماغها لدرجة أنها لا تذكر ماذا كانت تفعل بالوقت. كان الوقت هناك أشبه بالهلام، أشبه بشيء رخو وبلا ملامح. تتذكر أشياء بالطبع مثل جولاتها مع حصانها في التلال لأميال طويلة والجلوس في البهو في ليالي الشتاء وبعض الخناقات مع نساء البيت. لكن أيّا كان ما يحدث، كانت كاثرين دوما في حالة انتظار، وكان الانتظار أشبه بالموت.

كلما طال الوقت أنشب الشك مخالبه في عقل كاثرين. هل وجودي حقيقي؟ لماذا لا يمر أناس في تلك البقعة المقفرة لا لشيء إلا لأرى صورتي في عيونهم فأعرف أنني لست بشبح؟

هل هذا هو الموت؟

ما الموت؟

هل هو مجرد مكان آخر وفكرة تضرب بجذورها في عقلها وتنمو مثل نبتة شيطانية متوحشة؟

في الشهور الماضية توارت تلك الأسئلة في ركن بعيد عن نور النهار في دماغها. لم تتبقَّ إلا بضعة أحلام مزعجة، لكنها لم تَعُدْ تشدها إلى جحيم الهذيان مثلما كان يحدث كثيرا في بيت السيرينت. تصحو بعدها وتمارس حياتها بشكل عادي. وحياتها هذه تنبض بالحياة لكن...

استدارت كاثرين ونظرت إلى مريم: «لكن إنتم كتير والأصوات عالية والحياة...!».

كان من الصعب على كاثرين أن تعثر على كلمات تعبر عمَّا يعتمل داخلها من اضطراب، كأن أحدهم قد قذف بها في ماكينة طحين تدور بعنف وتهرسها. كاثرين لا تريد أن تتمنى الموت ثانية. لقد كرهت الغياب، والغياب هو فقدان الإحساس بجسدها، على النقيض مما تشعره الآن. تريد أن تقول لمريم إنها ليست تعسة. أبدا. كيف تشعر بالتعاسة وجسدها الذي كان كالوعاء الفارغ يمتلئ أمام عينيها بكل هذا العنفوان؟ إنه شيء يشبه الحب بكثافته وحضوره المستمر والمزعج أحيانا كأنها لا تستطيع تحمل فوران جسدها بالحياة. أتعرفين يا مريم أنني أشعر أحيانا بنبضات قلبي تسرع وتضطرب وأنا أمشي في شارع بورسعيد عائدة إلى البيت، أو

عندما أجلس بالقرب من النيل؟ بالأمس كنت مع يوسف في مسرح المدرسة ووجدتني أتأمل وجوه الأطفال وهم يتلون سطورا من المسرحية، شعرت فجأة بأنفاسي تتسارع وتخرج في دفقات قوية كأنني جريت أميالا. جسدي يفور ويضطرب كموج بحر والوعاء يمتلئ حتى الحافة بلحظات صغيرة متتابعة، كأن.. كأن للوجود وطأة. هي ليست شيئا سيئا، بل ربما تكون مستوى أو عمقا آخر للوجود، كثيفا ومفعما. لكنها وطأة!

كان النور قد تراجع في صالة البيت مع اقتراب الغروب، وسرى في الغرفة صمت غريب وخفيف، بل ربما أن العالم نفسه هو الذي سكت فجأة كأن يدا خفية قد قطعت التيار الكهربائي. تك...

التفتت كاثرين على همهمات منغمة، ثم علا صوت أمينة ببطء كأنما يستأذن أولا قبل أن يخطو إلى الصمت. جلست كاثرين على الأرض بالقرب من أمينة وأراحت رأسها إلى الوراء.

انعصر قلب مريم، فالحياة هَمّ ثقيل والحقيقة الوحيدة الثابتة بعد الموت هي الألم!

علت النغمة، فبدا صوت أمينة نقيّا وعميقا كأنما يأتي من كهف مسحور تحت الماء:

يا عزيز عيني وانا بدي أروَّح بلدي
ليلة نمت فيها وصحيت ملقيتش بلدي

مرت دقائق فلم يعد في العالم إلا نساء ثلاث تجمعهن لحظة

واحدة، حادة وواضحة، فها هي صالة البيت وهذا هو باب الشرفة الزجاجي والستائر القديمة والكرسي ذو الساق المكسورة يستند إلى الحائط والأباجورة الخشب في الركن، لكن الحجرة بدت لكاثرين كما لو كانت بالونا شفافا وخفيفا يرتفع قليلا عن الأرض ويطفو في فراغ. سبح صوت أمينة ببطء ونعومة في الهواء، التفَّ حول نفسه كدوائر دخان البخور، لمس الحائط، وعاد...

بين أهلي وناسي وبقيت غريب يا بلدي

بلدي يا بلدي وانا بدي أروَّح بلدي

بلدي يا...

بلدي....

٢١

٩ سبتمبر ٢٠١٠

حارة البرنس عزيز ـ قلعة الكبش

الساعة ٧ الصبح

الدنيا هادية صباحية أول أيام العيد. العيال مهدودة في البيوت بعد ما فضلوا يلعبوا ويفرقعوا بمب لحد وش الفجر. نسمة هوا طرية عدت عليَّ وأنا في البلكونة باسقي الزرع.

الله على بخور المسك. هافف عليَّ من صالة البيت وبيجري ناحيتي.

بعد ما سقيت الزرع وعملت فنجان القهوة حسيت إني عايزه أكتب شويه في البلكونة.

كاتي نايمه بعد الهري والنكت في روحها إمبارح. رجعت لمرجوعها بنت إرنشو، قال إيه إحنا أحياء ولا أموات؟ جرى إيه يا بنتي، لزومه إيه تقليب المواجع واحنا زي الفل أهه!

تلفونها رن من شويه. قمت بصيت، لقيت اسم يوسف ع الشاشة. أكيد عايز يطمن عليها بعد اللي حصل في المدرسة. إمبارح واحنا عند مريم قعد يرن عليها ويبعت في رسايل وهي ما بتردش.

قام كلمني. طمنته على قد ما قدرت وأنا أصلا ماكنتش مطمنة. كان عايز ييجي وأنا قلت له بلاش. عرفت منه إن مفيش مشكلة حصلت بسبب اللي عملته كاتي في العيال. حكالي إزاي شافها داخله أوضة المدرسين زي العاصفة، وشها أحمر وعرقانه وعنيها زايغة. لما سألها فيه إيه؟ لا ردت عليه ولا شكلها سمعته أصلا. أخدت شنطتها وخرجت جري. عرف من مدرس الفرنساوي اللي حصل. أكَّد عليَّ أكتر من مرة لو احتجت أي حاجة أكلمه. دلوقتِ بيرن عليها تاني، وبصراحة عيب أرد على موبايل كاتي. أنا هكلمه من تلفوني وأقول له إنها نايمه. نامت على وش الفجر. لو قامت كويسه يبقى أزمة وعَدِّت وياما دقت ع الراس طبول.

أنا في أجازة العيد هاشتغل ع الترجمة اللي بدأتها من أسبوعين. فجأة طقت في دماغي أترجم خطابات فيرجينيا وولف. كنت لقيتها فوق مكتب مريم. الله يرحمه أبوها كان شكله راجل عالِم، مكتبته فيها أشكال وألوان. كان بيدرِّس أدب إنجليزي وبيترجم وله كتب باسمه؛ نقد أدبي وترجمة. مريم قالت لي إنه قبل ما يتوفى في حادثة عربية كان ابتدى ترجمة الخطابات دي، وإنها لقتهم بالصدفة من كام أسبوع. أنا دوَّرت وعرفت إن الكتاب ما حدش ترجمه. ده مجموعة مجلدات مش كتاب واحد. سبحان الله، كإني

جايه بعد كل العمر ده أكمِّل حاجة هو بدأها. مريم طلَّعت لي مخطوطة الترجمة بخط إيده وإدتهالي. قريتها وقلت لو فيه نصيب وعرفت أنشر الكتاب هاحط الجزء اللي هو ترجمه وأكتب اسمه قبل اسمي. «خطابات فيرجينيا وولف الكاملة»، ترجمة: دكتور أحمد سلامة وأمينة الخضيري. يا سلام، ده يبقى يوم فرح!

مريم ما كانتش تعرف إني باترجم. ضحكتْ وقلت لها إني ترجمت حاجات قصيرة كتير. الفكرة جت لي لما لقيتني مخنوقة من شغل الجمعية. قلت لنفسي: ليه لأ؟ أجرب على رأي ليلى. لو لقيت ناشر يبقى ممكن أسيب الشغل. لما ابتديت أترجم أخدت بالي إن أنا عشت عمر مع الست فيرجينيا ولا عرفتهاش. يمكن كنت باكش منها لأن لها قلبات مزاج غريبة. ممكن تبقى بتتكلم معايا وبعدين تسكتْ وتقعد مسهِّمة. وساعات كانت تقول حاجات مش فاهماها أو تكلم ناس مش موجودين معانا. لكن وأنا باترجم حاسَّه كإني ابتديت أعرفها وأشوف دماغها ماشيه إزاي. يا سبحان الله، دي كإنها كانت بتعصر روحها ع الورق، فالواحد يحس إن الكتابة لها تقل، ما ينفعش عينك تجري بسرعة فوق السطور. ده انتَ هتقف شويه قدام جملة واحدة تخليك تسرح وتفكر.

فينك يا ليلى دلوقتِ؟ كان نفسي أقول لك إني باترجم للست

فيرجينيا!

بصي بتقول إيه:

«إن وهم أن العالم قد تم تفصيله على مقاس كل آهة لنا، أن البشر موصولون معا باحتياجات مشتركة ومخاوف، لدرجة أن رعشة في معصم واحد سينتفض بسببها المعصم الآخر، أن مهما كانت غرابة تجربتك فإن أناسا آخرين قد عاشوا مثلها، وأن مهما ارتحلت بعيدا داخل عقلك فهناك شخص آخر قد سبقك إلى هناك، كل هذا ليس إلا وهما. نحن لا نعرف أرواحنا، ولننحِ جانبا فهم أرواح الآخرين. البشر لا يسيرون معا الطريق كله، فهناك غابة بِكر داخل كل منا، أرض ثلجية تصبح فيها حتى آثار أقدام الطيور شيئا مجهولا. وهناك نسير وحدنا، ونحب السير وحدنا. لذا فأن يحاوطنا التعاطف طوال الوقت، أن ترافقنا صحبة ما طوال الوقت، أن يفهمنا الآخرون دائما، لهو شيء لا يحتمل».

أخدت نفس طويل من ريحة المسك، وحسيت بصدري بيتفتح ويخرَّج النفس بالراحة.

«نحن لا نعرف أرواحنا».

في بين القصرين عمري ما سألت نفسي أنا مين. كنت مرات أحمد عبد الجواد وأم خديجة وعيشة وفهمي وكمال وياسين.

يمكن المرة الوحيدة في حياتي اللي ما بقيتش عارفه أنا مين كانت لما اطردت من البيت بعد زيارة سيدنا الحسين. الله يسامحك يا عبد الجواد. في الأيام السودا دي حسيت إن كل اللي كان رابطني بالدنيا، العيال والراجل والبيت، ما عادش موجود. زي ما أكون لقيت نفسي متشعلقة في حبال الهوا والسؤال بيلف حواليَّ من بعيد، بس أنا مش عارفه أمسكه.

لما رحت بيت السيرينت ما كانش عندي أكتر م الوقت. لقيتني باشوف اللي جوايا وأسأل أنا مين وأكتشف إني ما اعرفش روحي. أعرف حتت، بس فيه حتت ياما ما خطيتش فيها ولا خطرت لي على بال.

الكتب كانت بتخليني أكتشف حتت من الغابة اللي بتتكلم عنها الست فيرجينيا.

اكتشفت مثلا إني عارفه أعيش أهه من أول وجديد، عارفه آخد بالي من ناس تانية، عارفه أفهم وأشوف، وكل ما كنت أشوف زيادة أبقى عايزه أعرف أكتر.

شفت حياتي في بين القصرين وبعدين في السيرينت زي خيط لولي ملضوم حبة ورا حبة.

في يوم كنت قاعده مع عزيزة تحت شجرة أم الشعور اللي على شط

البحيرة. كنت باقراها حكايتها المكتوبة في «الحرام». الكلام ده كان قبل ما ليلى تعلمها القراية والكتابة. وقّفت قراية شويه وبصيت عليها لقيتها مسهِّمة. مالك يا عزيزة؟ قالت لي إنها أول مرة تفكر في حكايتها، في جدر البطاطا اللي كان السبب في إنها وقعت في الحرام. راحت الغيط تجيب بطاطا لجوزها العاجز استفرد بيها واحد دُونْ، هجم عليها ونام معاها غصب عنها. بعدها مرضت بالحمى وماتت وهي بتولد العيل. المصيبة اللي قطمت ضهرها هي إنها في وسط ما الراجل بينام معاها هي اتمتعت. بصت لي وقالت: «هو جدر البطاطا يا ست أمينة اللي كان السبب ولَّا الحرمان؟».

ساعتها أنا سكت وفكرت إن أنا ماكنتش محرومة، لكن طول عمري كنت باتكسف أتمتع. عشت ومت وأنا فاكره إن بنات الأصول عيب ينبسطوا.

ساعتها افتكرت لمَّا شفت جليلة العالمة يوم فرح عيشة وفهمت إن أنا يومها حسيت بالغيرة، بس كالعادة رميت الموضوع ورا ضهري وما أخدتش في بالي. لما سِكْرت جليلة وقَّفت غنا وقعدت تحكي للستات إزاي إن أبوها كان شيخ كُتَّاب من أهل البركة، وكان غيور وحاول تأديبها، لكنها كبرت بطبيعتها ست لعوب ولا بيهمها كإنها «رضعت الغنج في المهد»(*******) على حسب

قولها. قعدت تقربع من كاس الخمرة اللي في إيدها وهي بتحكي إزاي ما فلحش معاها تأديب، وأبوها مات و«اتكتب عليَّ إن شر الصفات اللي أبويا كان يوصفني بيها تبقى شعاري في الحياة.. آدي الدنيا.. ربنا يطعمكم خيرها ويكفيكم شرها ولا يحرمنا جميعا من الرجاله سواء في الحلال أو الحرام»(********). ورقعت جليلة ضحكة خليعة والستات اللي في الفرح ضحكوا.

وأنا قاعده مع عزيزة عند البحيرة فكرت واتأكدلي إن أنا غرت من الست دي. كان شكلها بتحب جسمها وبتحب الرجاله طبعا، واللي زي دي أكيد بتعرف تتمتع معاهم.

أنا كنت باقوم بعد كل مرة ينام فيها معايا عبد الجواد كإني عامله عمله من ورا أمي.

هو كان يضحك ويقول لي: إنتِ لسه بتتكسفي مني يا أمينة؟!

أنا كنت مكسوفه من جسمي كإنه مش بتاعي. كون إن جوزي ينام معايا فده عادي، كونه ينبسط خير وبركة. لكن إن أنا أبيِّن له مرة إن أنا انبسطت أو إن في أوقات تانية كتير إني ماانبسطتش، دي عمرها ما حصلت.

هُوَّ الراجل بينبسط أكتر مع ست عارفه تنبسط؟

ضحكت على عبطي. أمال هو بيروح لهم ليه برجليه، ويهلك في

صحته وفلوسه!

يعني أنا جايه أفهم الكلام ده بعد ما حياة بين القصرين عدت وراحت لحالها!

فقت من جوه دماغي على إيد عزيزة بتهزني، بابص لقيت الست مرات ماكبث جايه علينا. قلت: استر يا ستَّار. بس هي ماشافتناش. راحت ع الشط وهِيَّ بتكلم نفسها زي عوايدها وابتدت تغسل إيديها في الميه.

رجعت يومها على بيت السيرينت، وأنا بافكر في عزيزة اللي بتشوف حكايتها من أول وجديد، وفي الست ماكبث اللي بتلف زي التور في نفس الساقية.

بس الست دي شريرة يا أمينة!

هِيَّ صحيح شريرة، وَزِّت جوزها يقتل الملك وعملت اللي عايزاه وبقت ملكة، بس فضلت تندم وتتعذب من ساعة عملتها الهباب، بتشوف كوابيس وتمشي وهي نايمة وتفضل تغسل إيديها من بقعة الدم اللي ما بتروحش. موتت نفسها أستغفر الله. لأ وإيه، من ساعة ماجت بيت السيرينت من زمان أوي وهي زي ما هِيَّ، ولا حاجة اتغيرت!

أنا شكلي سرحت جامد. الساعة جت ٩.٣٠ وانا سامعه كاتي

صحيت وبتكركب في أوضتها. هاقوم أطمن عليها، وبعد الفطار هاكلم مريم أقول لها النهارده عيد ولازم تيجي تتغدى معانا وتدوق الكحك اللي خبزته مع ستات العمارة. ربنا يهديها وتوافق تنزل م البيت.

(********) «بين القصرين»، نجيب محفوظ، ١٩٥٦.
(********) نفس المصدر، بتصرف.

٢٢

اعتدلت مريم فوق كنبة الصالة. لقد غفت لدقائق وهي تقرأ، لكن الحلم كان طويلا وحقيقيّا لدرجة أنها لا تزال تشمُّ رائحة القهوة. لو كانت تكتب مثل أمينة لسجَّلت تفاصيله.

كان يوما شتويّا والوقت قبل المغرب، هكذا خمنت مريم من لون السماء خارج المشربية. وجدت نفسها في صالة بيت بين القصرين التي تتوسط حجرات النوم وحجرة الصالون. جلست على إحدى الأرائك، تحت قدميها حُصُر ملونة ومن السقف تدلى فانوس كبير بزجاج ملون يشعله مصباح غاز.

تربعت أمينة في مواجهتها على كنبة تتوسط الصالة وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت في جمرتها كنكة القهوة حتى منتصفها. جلست أم حنفي متأهبة بجانب الصينية النحاس التي رصَّت عليها فناجين أعضاء العائلة المسموح لهم بشرب القهوة: ياسين وفهمي وأمينة طبعا. كانت خديجة تستحث الصبيان كي يفرغوا لتقرأ لهم الفنجان، ثم استدارت لتوبخ كمال على كذباته العبيطة التي يحاول من خلالها جذب انتباه الكبار: «دا انت لو أهل النحاسين صدقوا حكاياتك، ما كانش فضل واحد منهم حيّ يا كمال. هتقول إيه لربنا لو حاسبك ع الكذب ده؟»(********). انبرى الولد الصغير ليؤكد أن ساعتها سيكون مضطرّا أن يقول لربنا الحقيقة: «السبب هو مناخير خديجة»(********). ضحكت خديجة وضحك ياسين

وهو يتأسى على ميراثهم الأغبر من أبيهم؛ تلك الأنف هائلة الحجم. على الرغم من أن خديجة شاركتهم الضحك فإن أمينة بان عليها الضيق، فهي لا تحب هذا الهجوم ضد ابنتها الكبرى لمجرد أنها ليست بجمال أختها. لذا قررت أن تعيد خيط الحديث إلى أوله. نظرت إلى ابنها وقالت: «كمال لا يمكن يحلف كدب أبدا»(*******). التفتت مريم إلى الناحية الأخرى من المجلس حيث انهمك فهمي وياسين في الكلام حول هجوم «هيندنرج» الأخير. «شكله كده ممكن يكون الهجوم الفاصل في الحرب». تداخلت الجمل في دماغ مريم.

«ولماذا تحبون الألمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقي قنابله علينا؟!».

«الألمان قصدوا الإنجليز بقنابلهم لا المصريين..».

«سوف ينهزم الإنجليز..».

«المهم أن نتخلص من كابوس الإنجليز...».

دارت مريم بعينيها بينهم، هل يرونها ولا يستغربون وجودها؟ ماذا لو سألتها خديجة طويلة اللسان: من أنتِ، وما الذي أتى بكِ هنا؟ انتبهت على صوت أمينة وهي تحكي لعائشة عن بيت الروضة: «السقف عالي، والبيبان أقواس عريضة بين الأوض، والبلاط من بتاعنا المنقوش الحلو وبلكونة ترد الروح. تتصوري يا عيشة إنهم هدوا بيت جميل من بتوع زمان بجنينة تشرح القلب

عشان يبنوا عمارة كبيرة هتسد الشمس عن بيت مريم! بس البلكونة قدامها شجرة عالية واصله لحد الدور الثالث. تحسي في البيت ده إن انتِ زي ما تكوني في خُن كده، بينه وبين الدوشة خطوتين، بس هادي وشِرِح وهواه حلو».

في الحلم، شعرت مريم بالسعادة لدرجة البكاء. لا، لم يكن شعورا بالسعادة وإنما بالراحة كأن باستطاعتها أن تتنفس.

ابتسمت مريم وقامت لتأتي بشيء تأكله من المطبخ، لكن رنين جرس الموبايل أعادها. هل تهاتفها أمينة في الواحدة صباحا؟ باظت أخلاقك يا أمينة منذ أن ذهبتِ إلى بيت السيدة وأصبحت تنامين بعد منتصف الليل. اتسعت ابتسامتها.

«أمينة».

«أمينة مين يا مريم؟!».

ظاظا!

لم تخفِ مريم دهشتها: «فيه إيه يا ظاظا؟ يزيد اتجوز البنت اللي «مش ملتزمة»؟».

فات على ظاظا سخرية مريم، قالت: «لأ.. أنيل. هيسافر يشتغل في فرع الشركة في أمريكا. أنا عارفه إنه عايز يهرب بالبت ويغور من وشي. ما تفكرنيش بقى».

لقد جُنت ظريفة بالتأكيد. إنها تهاتف مريم بعد منتصف الليل كي تخبرها أن يزيد...

«عموما أنا مش بكلمك عشان كده...».

أحست مريم بالقلق.

قالت ظاظا: «هنية...».

سكتت مريم.

«هنية.. البقاء لله. انتحرت. إحنا بلغنا القسم، وأنا في المستشفى دلوقتِ».

لا تذكر مريم كيف وصلت إلى غرفة النوم ولا كيف ارتدت ملابسها ووصلت إلى شارع الروضة، بل وجدت تاكسيّا وافق أن يُقِلَّها إلى العباسية.

جفنه.. ترم ترارارا ررم.. علم الغزل..ططم ططم طم.. طم..

ومن ال...عشق ما قتل...

نظرت مريم إلى وجه السائق في مرآة السيارة الأمامية. كان هادئ القسمات يهيم في عالم آخر لدرجة أن مريم شكت أنه واعٍ بوجودها. بدا لها مرتاحا كأنه في المكان الصحيح والزمنً الصحيح.

يا سلام! وما المكان الصحيح والزمان الصحيح يا دكتورة؟

تذكرت الحلم.

منذ دقائق كانت في مجلس القهوة وكانت تشعر بالراحة والآن...! الآن تحس ببداية نوبة صداع. منذ خرجت من البيت وهي تشعر بثقل الأصوات كأن دماغها كتلة من الأعصاب العارية. هذا

بالإضافة أن في الثانية صباحا شعب مصر متيقظ ومنهمك في عزف كونشرتو كلاكسات وشاكمانات موتوسيكلات وأغانٍ وآيات قرآن وأصوات خناقة على كوبري الملك الصالح و....

ومن العشق ما قتل.. ترام طم طم...

رأت وجه هنية. تذكرت تلك المرة التي سمعتها تغني في ركن الحديقة. هنية التي لا تنطق إلا نادرا كانت تغني! وقفت مريم في مكانها تنصت للصوت الناعم وطرأت على بالها فكرة مضحكة: أن هذا المكان بعنابره وعياداته ومرضاه ليس إلا ديكور فيلم ستظهر هنية في مشهد واحد فيه لتغني أغنيتها وتختفي.

في شارع صلاح سالم أحست مريم بخبط الشواكيش في رأسها، كان الصداع قد شرَّف بألف سلامة وارتفع ضغطها ولم تحضر معها الدواء. عندما تصل إلى المستشفى لا بد أن تتناول حبتين. أغلقت زجاج السيارة لتخفف من حدة الأصوات، وفكرت أن تطلب من السائق إغلاق شباكه أيضا لكنها سكتت.

أضواء السيارات تتعب عينيها وتثير الالتهاب السخيف الذي سيتحول سريعا إلى دموع حارقة. الضوء الأصفر للمبات الشارع يوجعها كأنه دبابيس مسننة ترشق نفسها في رأسها.

من مجلس القهوة إلى الشواكيش والدبابيس!

أغمضت عينيها كي تعود إلى الحلم، لكنها فشلت.

هنية انتحرت!

مالكِ يا مريم؟ إنها لم تمت في عز الشباب! هنية في التاسعة والستين وقد أخذت كفايتها من قرف الدنيا.

الانتحار يعني فشل المستشفى بتمريضه وأطبائه وتلك المنظومة العفنة التي تجعل من طبيب واحد مسئولا عن مائة مريض أحيانا. أحست مريم بالذنب. تذكرت نبرة صوت ظاظا والطريقة التي قالت بها الخبر كأن انتحار مريض عقلي هو شيء عادي! أراحت رأسها إلى الوراء وأغمضت عينيها.

عندما دخلت طب قصر العيني كانت تعرف جيدا أنها ستتخصص في الطب النفسي. كان رصيدها من الروايات هو المقدمة المنطقية لهذا الاختيار. في كهفها السري أحبت ناسا وكرهت ناسا وظل آخرون لغزا. سيكون بإمكانها أن تفهم نفسها، أن تساعد آخرين أن يعيشوا بشكل أفضل. سوف تعلِّمهم لعبتها المفضلة: كيف تعيد تشكيل نفسك كعجينة الصلصال، وعندما يعجبك صنع يديكَ انفخ فيه الروح؟

في مراهقتها قررت مريم أن تنحت مريمَ على مزاجها، سوف تسرق دور الرب. لن تكون مثل أمها مسيَّرة لمصير محتوم لا يمكنها الإفلات منه، ولا يمكن لضحاياها أيضا الهروب إلا ربما بمعجزة مثل تلك التي حققتها مريم في أحد الأوقات.

لكن المعجزة كانت بالونة ملونة وجميلة سيمر الزمن بعد سنوات ليفقأها ويستكمل طريقه وهو يقهقه.

(********) «بين القصرين»، بتصرف.
(********) «بين القصرين»، بتصرف.
(********) نفس المصدر، بتصرف.

٢٣

دخلت مريم من بوابة المستشفى الحديدية فداهمتها رائحة الفينيك والبول وأجهزت على بقايا الحلم، كأن مجلس القهوة لم يكن إلا ذكرى غائمة حدثت لشخص آخر. جرجرت قدميها في الطرقة الطويلة كأنها تسير عكس حركة الزمن، نحو كل السنوات التي عاشتها هنا بحلوها وبهزائمها التي بلا عدد. الحوائط كالحة كما هي، وهلاوس المرضى وبقايا أحلامهم عالقة في الأركان كخيوط العنكبوت.

في العنبر جلست المريضات في مجموعات صغيرة يلفها الصمت. اقتربت مريم من السرير الشاغر. منذ ساعات قليلة كان جسد هنية هنا، ينبض ويتعذب ويحس ويودِّع في كل يوم حلمه بالحياة. تلفتت حولها فقد هُيِّئ إليها أنها تسمع لحنا يشبه ذلك الذي كانت تغنيه هنية!

دخلت ممرضات الدور وهم يقدمن رجلا ويؤخرن الأخرى. ألقوا عليها السلام مصحوبا بهمهمات خمنت مريم أن المقصود بها هو تعزيتها. استعادت بسرعة قناع الأطباء بينما عقلها يتقافز كالمجنون بين الأفكار، لدرجة أن مريم لا تتبين فكرة واحدة بوضوح إلا ربما إحساسها بالاحتياج إلى حضن! نعم، إنها تريد أن تخبئ رأسها في صدر شخص آخر وتغمض عينيها وتطمئن نفسها أنها لا تحسد هنية على شجاعتها. باي باي أيها العالم الوسخ.

أوروفوار.. تك.. من قطع النور؟ وأهلا وسهلا بالراحة الأبدية.
أبدية!

سمعت صوت ظاظا يقترب: «يا دكتورة إيمان، عايزين صورة من المحضر». يبدو أن النقاب الأسود فوق وجهها لم ينجح أن يعمل كفلترٍ للصوت. دخلت ظاظا العنبر وسحبت مريم من يدها إلى الخارج.

كان المكتب مزدحما بالأطباء وهيئة التمريض. الحمد لله، فتلك الجلبة كفيلة بإجهاض أي احتمال أن تختار ظاظا هذا الوقت تحديدا كي تفتح أحد مواضيعها المفضلة. ليس الآن، أنا أحذركِ، لا أريد أن أسمع كلمة واحدة منكِ وأتساءل للمرة الألف: من هذه المرأة النواحة الكاذبة؟

نعم، أنتِ كاذبة يا ظاظا. تكذبين على نفسك، وتخافين أن تظهري حقيقتك للعالم!

وما حقيقتها يا مريم؟

ليس هذا وقته. لكن أقسم بالله، لو فكرت ظاظا أن تفتح بكابورت خرائها لأمسكت رأسها وأغرقته في نفس الخراء.

«إيه اللي حصل؟»، تساءلت مريم بنبرة هادئة.

أخرجت ظاظا فنجان القهوة من تحت نقابها وقالت:

«في الأغلب هنية وقَّفت الدواء. خنقت نفسها».

في الأغلب!

أمممم... وفي الأغلب أيضا عددنا قليل وليس لدينا إمكانات لعلاج حقيقي، ودورنا لا يتعدى أن نكتب «البلابيع» للمرضى ونتأكد أنهم يزدرونها، في الأغلب نحن نجلس مرتاحين على مؤخراتنا خارج الزمن. إحنا كُهنة يا ظاظا.. كُهنة!

قالت ظاظا مداعبة: «شكلك خلعتِ وريحتِ دماغك م الوَش ده. يا بختك يا مريم».

يا بختك يا مريم!

نظرتْ مريم إليها في صمت.

لقد أصبح جلدكِ سميكا يا ظاظا، جبلَّة!

قامت مريم دون أن تلمس القهوة وسارت بخطوات ثقيلة نحو الثلاجة. مع كل خطوة كانت الرائحة تقترب وتعلق بلسانها. أحست بتقلص معدتها كأنها لم تقضِ عمرها كله بصحبة الأخ العزيز المدعو «فورمالين». سحبت درج الثلاجة حيث يرقد جسد هنية. بدا وجهها هادئا مرتاحا وقد انفكت التقطيبة.

لم تدرك مريم أن هنية تحتل مكانا في قلبها إلا الآن! حتى عندما حلمت بها... الحلم! لقد جذبتها هنية من عمق الماء وظلت تشدها في الهواء إلى أعلى ومريم تصرخ كي تتركها. ماذا كنتِ تخبرينني يا هنية؟

هل لو كانت لا تزال في المستشفى ما ماتت هنية؟

ولماذا تساعدينهم يا مريم على التشبث بالحياة؟ لماذا نُصر على استكمال مشوار الألم؟ أهو قسم «أبيقورس» الذي نطقته وقلبك يتراقص بسعادة ملكة الصلصال؟

لا تتذكر مريم خروجها من بوابة المستشفى. وجدت نفسها داخل تاكسي يُقلها إلى السيدة زينب في الرابعة صباحا ومسام جلدها تنضح برائحة الفورمالين والبول.

عشان تبطلي تاكلي جلاس وتدوِّبي في قلوب الناس.. ترا رام طم طم...

هل طلبت من مجنون عبد الوهاب أن ينتظرها؟

أحست بشفتيها جافتين وبجسدها مخدرا كأنها تحت تأثير حقنة بنج، نفس الشعور بالتنميل، نفس البرودة وفقدان الإحساس بأطرافها.

متعرفيش إني أقدر أقرا أفكارك؟ ترا رام طم طم.. ومن عينيكِ...

لقد نسيت أن تطلب من ظاظا دواء الضغط. أراحت رأسها الثقيل إلى الوراء وأغمضت عينيها. رأت وجه أمها وقد ارتسمت في عينيها تلك الابتسامة المستهزئة.

ألا تشبعين أبدا يا ناهد؟ ألن تحسي ولو مرة بالارتواء من دمي؟

خلاص، قلت لك من زمان إنك انتصرتِ..!

وأنا التي كنت أظن أن بإمكاني أن أهرب منكِ؟

عندما مات ناجي عدتُ للعيش معك. كان قراري بالطبع هو عكس ذلك، لكنك كثَّفتِ من مؤامراتك. فشل إلحاح إخوتك في إقناعي بالعودة إلى البيت؛ من أجل مصلحتي بالطبع، كوني قد عانيت انهيارا عصبيّا والجميع قلق أن أبقى وحدي دون رعاية. وفشلوا مرة ثانية في استعطافي: أمك كبرت يا مريم، وحرام أن تُترك وحدها! لكنك في مضمار الشر أستاذة ورئيسة قسم، قررتِ أن تمرضي، ذهبتُ إليكِ، ولا أعرف كيف جرت الأيام سنينَ وأصبح بقاؤنا معا سجنا مؤبدا. لم تكوني قلقة عليَّ لا سمح الله، ولا كنتِ تحتاجينني. كنتِ تريدين أن أظل أمام عينيكِ لتتأكدي في كل لحظة من تعاستي. هل تعرفين أنني كنت أعود من العيادة وقد رسمت على وجهي ابتسامة لمجرد أن أغيظك؟ كنت أُرفع من صوتي وأنا أهاتف ظاظا وأضحك بلا سبب لكي أحرق قلبكِ.

تصورتُ أن بإمكاني أن أتحرر منكِ في حياتك، فانتهى الأمر بأن استكملتِ انتصاراتكِ عليَّ بعد موتك.

آه.. هل تذكرين ليلة موتكِ في المستشفى؟ جلستُ بجانب سريرك ونظرتُ في عينيكِ. لم نتبادل كلمة. يبدو أنكِ وقتها كنتِ قد تعبتِ من تمثيل دور الأم الحنون المنفطر قلبها على تعاسة ابنتها. نظرتِ إليَّ بعينين خاليتين من الحب أو الكره أو الاعتذار. لم يكن في عينيكِ إلا الفراغ، الفراغ الذي قضيتِ عمرك تحاولين إخفاءه. لا أعرف حتى الآن كيف كان شعوري. لم أتمنَّ لكِ الموت. كنت أعرف أنه آتٍ. لم أسأل نفسي عن الحب أو الكراهية. لم يكن في

رأسي إلا رجاء واحد: اتركيني وحالي!
«حمد لله ع السلامة يا دكتورة».
انتبهت على صوت السائق واستغربت كيف عرف أنها دكتورة! والعنوان؟ هل أخبرته مريم أنها ذاهبة إلى السيدة زينب؟ إنها حتى لا تتذكر اسم الشارع أو رقم البيت!
عند نزولها من السيارة شعرت بأن المشي صعب جدًّا، لا تكاد تحس بوجود قدميها. هل كان السائق يكلمها؟ لم تتبين حرفا مما يقول، لم ترَ إلا عينيه الخضراويْن تنظران إليها وهي تقف بصعوبة وتبدأ في التحرك نحو البيت. سرت برودة في جسدها وهي تخطو خطوة واحدة صغيرة إلى الأمام تليها خطوة أخرى، كأنها «سيد قشطة» قد أُجبر على التزحزح بعيدا عن مكانه الأثير بجانب الماء.
هل تسكن أمينة في الدور الثاني أم الثالث؟ فكرت في عدد درجات السلم التي يجب أن تصعدها، وشعرت بروحها تهوي بقوة نحو الأرض وترتطم.

٢٤

لا تعرف مريم إلى أي طابق وصلت ولا أي باب طرقته. هل طرقت أحد الأبواب؟ أدركت فقط أنها تجلس على بسطة السلم عندما علا صوت امرأة ينادي: «يا ست أمينة.. يا ناس يا هوه! حد ينجدنا!». كان صدر مريم يعلو ويهبط كأنها تنازع.

فتحت أمينة الباب: «خير يا ست أم...؟».

قالت أم محمود: «اسم الله عليها الدكتورة، سمعت هبدة ع الأرض، فتحت لقيتها واقعة. سمِّي بس».

اندفعت أمينة نحو مريم وحاولت أن توقفها في نفس اللحظة التي ارتفع فيها صوت أم محمود باستغاثة وصلت إلى باب شقة أم حنان في الدور الأرضي. انفتحت أبواب كثيرة واندفع إلى الدور الثاني حشد من الجيران.

أرادت مريم أن تصرخ فيهم أن يهدءوا قليلا لأن الصداع يهرس رأسها، لكن أحدا لم يسمعها. كانوا منشغلين برفعها عن الأرض، وهي المهمة التي نفذها بكفاءة شابان بمساعدة كاثرين.

تريد أن تطلب منهم أن يتركوها دقائق لتلتقط أنفاسها، ستقوم هي دون مساعدة من أحد.

عندما أجلسوها فوق الكنبة مال جسدها إلى الوراء.

قالت كاثرين: «افردوا جسمها ع الكنبة.. افردوا جس...».

مريم لا تفهم سبب تلك الجلبة ولمَ امتلأت الشقة بكل هؤلاء الناس. الأصوات تزيد من شراسة المخالب في رأسها. اهدءوا.. اهدءوا قليلا. حاولت مريم أن تتكلم.

شخطت أم محمود في شعب العمارة:

«استهدوا بالله شويه وابعدوا عشان تاخد نفسها».

سكت الجميع، لكن لا أمينة ولا كاثرين ولا أحد من الموجودين نجح أن يفهم كلمة واحدة من حشرجة الأصوات التي خرجت من حلق مريم.

كان على مريم أن تتناول دواء الضغط في المستش...!

آه.. هنية!

لقد انتحرت هنية منذ ساعات. رائحة البول تلتصق بالمكان مثل طبقة من الصمغ.

«إسعاف. اطلبوا الإسعاف يا جماعة».

«لأ، تاكسي أسرع».

«يا بنتي الإسعاف بقوا ييجوا بسرعة مش زي زمان».

«كلِّم الإسعاف ياض يا محمود!».

لم تفقد مريم الوعي. كان جزء من عقلها يتابع ما حولها بشكل متقطع، وجه كاثرين المحمر ينظر إليها، نجفة السقف بزجاجها اللامع، همهمات النساء في الغرفة، كاثرين تحدِّث شخصا على

التلفون، وهذا السائل الذي تضعه جارة أمينة في فمها بملعقة صغيرة، لكنه ينزلق خارجا ومريم تريد أن تفهمها أنها لا تستطيع ابتلاعه. هل أنتِ أم محمود التي كانت تتحدث عنها أمينة؟ إشارات المخ يا أم محمود تطير في الهواء ولا تصل إلى منطقة البلعوم!

حاولت مريم أن تتكلم.

إنها تعرف جيدا ما تريد قوله. ستقول إن هنية ماتت، بل انتحرت، إن ظاظا قالت لها يا بختك يا مريم، إن عبد الوهاب كان يغني لكنها لا تتذكر الأغنية.. وناهد.. ناهد كانت معها في التاكسي.. والسائق.. السائق نظر في عينيها بشكل غريب!

كان جزء من عقلِ مريم يلتقط ما يدور كأنه لقطات كاميرا سريعة وعشوائية، وجزء آخر ينسحب نحو الفراغ.

إنه فراغ كبير..

هل الفراغ بالضرورة كبير؟

كادت مريم تضحك.

إنها تنسحب نحو الفراغ الكبير.. الواسع.. الطيب..ال...

فراغٌ طيب...! ما الفراغ الطيب يا حكيمة الزمان؟

جسدها يلين ويفقد الحدود التي تفصله عن العالم فيصبح هو والفراغ شيئا واحدا.

إنه لشعور رائع.. شعور لا يمكن وصفه.. كأن ثقل جسدها قد اختفى فجأة فأصبح بإمكانها أن تخف وتطفو فوقه وفوق باقي الأجساد في الغرفة. إنها ترى من فوق قبيلة النساء الشغوفات بإعادتها إلى الحياة وهم يجرون من هنا لهناك ويقولون أشياء لا تفهمها، ومريم تريد أن تضحك.. أن تقهقه بصوت عالٍ وهي تخبرهم أن لا داعي لهذا الفزع فهي تشعر براحة عظيمة، قلبها خفيف وجسدها خفيف ومخها.. مخها يتفتت إلى قطع صغيرة تذوب في بحيرة من الدماء.

إنها ترى الشعيرات الدموية تتمزق.. تنفجر.. كأنها ألعاب نارية داخل جمجمتها. شكلها جميل!

انظري يا مريم إليها، تبدو كنسيج من الخيوط المرهفة التي تتقابل وتتقاطع وتتفرع كأنها لوحة سوريالية لفنان مجنون!

إنها لا تبدو بهذا الجمال في كتب الطب ولا في الأشعة المقطعية!

مريم ترى ملامح الجزع في وجه أمينة وتريد أن تطمئنها، أن تخبرها أيضا عن حلم مجلس القهوة حين سمعتها تحكي لعائشة عن بيت الروضة والشرفة. أتعرفين يا أمينة أن رائحة القهوة في بيت بين القصرين تصلح لاستخلاص مضاد اكتئاب فعال؟ اقتربي مني يا أمينة، أريد أن أخبرك سرّا. إن ناهد هنا! نعم ناهد أمي. قولي لها أن ترحل. ادفعيها خارج الباب وأغلقيه وراءها. جاءت وأنا في التاكسي وأبلغتها بانتصارها.

أمينة.. أنا لا أستطيع تحريك يدي.
جسمي بارد يطفو في الفراغ.
الفراغ طيب و.. هادئ، لا أكاد أسمع فيه صوتا.
ارتفع أحد الأصوات فجأة: «أم حنان كلمت دكتور في مستشفى أحمد ماهر، كتر خيره جوز بنتها».
مستشفى..! كادت مريم تضحك.
لكنها تذكرت فجأة أنها غاضبة لأنها تعاني من صداع فظيع، وهؤلاء الناس يخلقون جلبة كفيلة بإيقاظ الأموات من السيدة زينب وحتى قارة الهند الشقيقة! لكن الهند ليست قارة يا مريم، إنها بلد!
ثم عاد الصمت، كأن أحدهم قد ضغط على زر أخرس العالم.
لقد فقد جسدي الحدود التي تفصله عما حوله. أصبح نقطة هائمة في الهواء داخل بالونة هائلة الحجم لا أرى أبعادها. أراني أطفو في الداخل.
أمينة.. هل شعرتِ بشيء مثل هذا عندما وقعتِ في غرفتك بعد العودة من زيارة الحسين الأخيرة؟
شلل كلي. قالها الطبيب بحسرة وهو يخبر كمال أن أمامك أياما ثلاثة على الأكثر و...
هل رأيتِ عائشة وخديجة وكمال يتحلقون حولك ولم تقدري على

الكلام؟

أنا أيضا لا أستطيع الكلام.

لديَّ أشياء كثيرة أود أن أخبرك إياها.

وليس لديَّ أي شيء يقال.

أمر مضحك. مسخرة، صح؟

في الحقيقة لا أفهم لمَ أقارن نفسي بك، فأنتِ كما قال كمال قد شيدت بنيانا كاملا وأنا.. أنا لم أفعل أي شيء.

أين كاثرين ومن هؤلاء النساء؟

جسمي بارد وخفيف. أرى كل شيء من وراء ضباب.

أنا مرتاحة.

خائفة بعض الشيء، لكنني مرتاحة...

أنا رأيت فهمي في الحلم يا أمينة. كان يقول إن الألمان يضربون الإنجليز لا المصريين!

وأم حنفي قالت لي: قهوتك يا ست مريم.

شكل الشعيرات الدموية جميل وهي تتمزق وتطفو في بحيرة الدماء.

يا أمينة إن ناهد تصرخ في وجهي بجملتها الشهيرة منذ كنت صغيرة: «بطلي تمثيل بقى.. بطلي تمثيل!».

٢٥

٢٠ أكتوبر ٢٠١٠
مستشفى قصر العيني
الساعة ١١ بالليل

عشرة أيام بلياليها مروا كأنهم عشر سنين. بس امبارح مريم خرجت من العناية المركزة. ألف حمد وشكر لك يا رب. الدكتور بيقول إن الحالة مستقرة لكن محدش عارف ممكن تفوق إمتى من الغيبوبة. لمَّا تفوق بإذن الله، هيعرفوا لو المخ سليم ولَّا ـ الشر برَّه وبعيد ـ جرى له حاجة. كنت عايزه نروَّح البيت قالوا مش ممكن. يعني هتفضل ع الحال ده كتير يا دكتور؟ هز راسه وخرج م الأوضة. كويس إن الدكتورة ظاظا صاحبتها معانا. هي اللي بتفهم اللي بيقولوه ولولاها ماكنتش هاعرف أشوف مريم إلا ساعة الزيارة. لما نقلوا مريم في أوضة عادية كان لا بد أبيِّت معاها. دكتور المخ والأعصاب لما دخل عليَّ ولقاني باكلمها قال لي إنها في غيبوبة، يعني لا بتسمع ولا دارية بحاجة. بصيت له بغيظ وأنا نفسي أقول له: إيش أدراك انتَ؟ وأول ما خرج كملت رغي لحد ما صدَّعت دماغها.

أنا كنت عارفه إن مش هيجيلي نوم النهارده. كويس إن أنا جبت

معايا الكرَّاس. بقى لي كتير أوي ما كتبتش ومحتاجة أفك عن صدري شويه.

هتكتبي عن إيه يا أمينة؟ هتكتبي عن إيه ولا إيه؟

من كتر ما قلبي شايل مش عارفه أبتدي منين.

لما مريم تفوق عايزه أقول لها إن أنا فاهمه كويس المخفي على عينه اللي اسمه الاكتئاب ده.

بعد ما قريت الثلاثية في أيام بيت السيرينت، وبعد ما قعدت لي فترة أهذي وأكلم نفسي وأسأل والسؤال يترد في وشي بسؤال تاني، سكتْ، نزل عليَّ سهم الله كإني كنت في عالم تاني. بالنهار يعدي قدام عينيَّ وشوش العيال وأسمع صوتهم كإنهم في الأوضة اللي جنبي. بالليل عينيَّ ما تغمضش، ولو غفّلت ألاقيني رجعت لبيت النحاسين. ما بين توهة النهار وأحلام الليل راح طعم الأكل والكلام والونس. بطلت أخرج مع الستات والكام مرة اللي وافقت أروح معاهم للغابة أخدت معايا كتاب وعملت نفسي باقرا. يظهر كان باين عليَّ لدرجة إن كاتي أخدت بالها وسألتني: مالك يا أمينة؟ ابتسمت وماردتش. هاقول لها إيه؟ هو أنا كنت فاهمه إيه اللي بيجرى لي؟ ثم إن أنا عمري ما اتكلمت عن نفسي. ما بعرفش!

عدِّت أسابيع وجرِّت وراها شهور وأنا متنومة مش دريانة باللي حواليَّ. كنت باقول لنفسي: يمكن هو ده بقى شكل العيشة يا أمينة وعمرك ما هترجعي زي الأول! مكتوب عليكِ تفضلي محبوسة في اللي كان! عدى خريف وشتا وجه من بعده ربيع ملوش طعم وشتا تاني. وفي يوم لقيتني بادخل المكتبة أدوَّر على ورق فاضي. في دولاب خشب في الركن لقيت ورق أشكال وألوان. سحبت رزمة ورق أصفر قديم مش مسطر وبدأت أكتب، طبعا من غير تواريخ. كنت بأرقَّم الصفحات، واحد، خمسين، مية، ألف وخمسماية. كنت أقعد ع المكتب مش عارفه هاكتب إيه، شويه وإيدي تتحرك لوحدها، كنت باكتب كل حاجة تيجي في بالي من غير تزويق ولا ترتيب.

لما ليلى جت بعدي بفترة لقيتها هِيَّ كمان بتكتب. مرَّة كنت معدية من قدامها وهي قاعدة تحت شجرة البلوط اللي على طرف التلّ وسألتها بتعمل إيه. كنت فاكراها بتكتب كتب زي الست فيرجينيا. قالت لي: باكتب أفكاري يا أمينة، اللي جوانا بحر هايج لو ما عرفناش نشوف طريقنا فيه هنغرق. باكتب عشان أشوف.

ليلى كانت بتكتب عشان تشوف، وأنا باكتب لأني ما بعرفش أشتكي. طب أعمل إيه في روحي؟ ربنا خلقني كده، من وأنا

صغيرة حاسَّه إني كبيرة. ده أنا كنت باراعي أمي وآخد بالي منها كإن أنا اللي أمها! وقت التعب عمري ما عرفت أطلب من حد يسندني. ده أنا حتى عمري ما باعترف قدام نفسي إني تعبانة! تبقى جتتي مدغدغة كإن وابور زلط عدى عليَّ ولساني بيحمد ربنا ويقول كله تمام. يظهر عشان كده أخدت وقت طويل على ما فهمت إن روحي كانت هربانة مني.

في يوم كنت باكتب في المكتبة، وقَّفت كتابة وقلت أرجع أبص ع اللي اتكتب. الأوراق الأولى ما فيهاش غير الصور اللي في دماغي، آخر مرة شفت فهمي وجنازات ولاد عيشة وكمال قاعد في أوضته بين الكتب بيفكر وعبد الجواد وهو بيشتهي أم مريم جارتنا. ما كنش في الورق غير حياة النحاسين، اللي عشته واللي ماكنتش أعرفه بس عرفته من الكتاب. كنت باعيد وأزيد زي اللي بتهذي. بعد ورق كتير لقيتني كاتبه عن حاجات تانية زي كلام حصل بيني وبين لوسي[********]، ودور الحمى اللي جه لكاتي وشجر الكريز والتفاح اللي زهَّر في الجنينة. كنت باقرا كإني باشوف حياة ست تانية. وأنا بارفع وشي من ع الورق، شفت غزالة واقفة ورا الباب الإزاز بتبص عليَّ. عينيَّ جت في عنيها وفضلنا نبص لبعض. أنا دمَّعت مش عارفه ليه؟ أنا عمري ما اتعودت أبص في عنين حد!

حسيت برعشة في جسمي كله زي ما أكون بابص في عنين ربنا.

الغزالة مشيت وأنا خرجت للجنينة. كان وقت غروب والشمس كان لونها غريب، بين البنفسجي والبرتقاني، والهوا كان طعمه مسكَّر وغرقان في ريحة شجر المسك.

في اللحظة دي حسيت إني رجعت أمينة اللي أعرفها، مش عارفه أشرح إزاي! كإني رجعت أحس من تاني. أنا فاكره إن بعدها بكام يوم كتبت إن الحياة عامله زي حته عجين لا لها شكل ولا طعم، إحنا بقى اللي بنقرَّصها، نعمل منها عيش، كحك بالسكر أو شُريك نطلع بيه على ترب الأموات.

يوسف بك وهبي بيقول: «وما الحياة إلا مسرح كبير».

وأنا باقول: «وما الحياة إلا حته عجين».

فقت على صوت ضحكتي بيرن في أوضة مريم في المستشفى.

الساعة جت ١ الصبح. كفايه كده يا أمينة. حاولي تنامي عشان عندك شغل كمان كام ساعة. بكره كاتي هتسافر إسكندرية مع يوسف. كانت مش عايزه تسيبني لوحدي بس أنا عارفه إن نفسها تروح البحر. قلت لها: يا بنتي ده احنا جيش؛ أم حنان وأم محمود والدكتورة ظاظا وأنا. سافري وما تقلقيش. ربنا يسعد أيامها ويكفيها شر المستخبي.

بصيت على وش مريم دلوقتِ. ملِّست على راسها ومريت بصوابعي بالراحة ع التكشيرة اللي بين حواجبها.

أزمة وهتعدي يا مريم، هترجعي، ومش هتكرهي الحياة لأن ده كفر، آه والله العظيم كفر!

(********) لوسي هي بطلة رواية «قصة مدينتين» للكاتب الإنجليزي شارلز دكنز، نشرت عام ١٨٥٩، وتدور أحداثها بين لندن وباريس وقت الثورة الفرنسية.

٢٦

في الحادية عشرة صباحا خرج يوسف وكاثرين من قاعة المسرح الصغيرة وسماء الإسكندرية تمطر رذاذا خفيفا. رفعت كاثرين وجهها تتلقى القطرات وابتسمت. كان يوسف قد اصطحبها لحضور بروفة جنرال لمسرحية يخرجها أحد زملائه من أيام المدرسة. سألها إن كان العرض قد أعجبها، قالت إنها لا تعرف، ربما تحتاج بعض الوقت كي تفكر. لم تقل ليوسف إن تلك هي المرة الأولى التي تشاهد مسرحا. في طفولتها كانت تسمع أخبارا عن فرق مسرح جوالة يأتون أحيانا إلى قرية «جيمرتون»، يعرضون ليوم واحد مسرحيات شيكسبير أو صاموئيل جونسون ثم يواصلون السير إلى القرية التالية، لكنها لم تذهب قط. في بيت السيرينت قرأت مسرحيات كثيرة وكانت تحب سخرية برناردشو بشكل خاص. لكن ما رأته الآن في الحجرة الصغيرة ذات الجدران السوداء هو أول عرض حقيقي تشاهده!

عندما وصلا إلى البحر قالت إنها تشعر بالإعجاب تجاه كل من يستطيع تجسيد الخيالات أو الهلاوس التي تمر في دماغه. نظر يوسف إليها مستفهما فقالت: «إنك تصدق شخصية من صنع خيالك لدرجة إن الخيال يبقى حقيقة بتتكلم وتتحرك على خشبة المسرح، أنا باشوف ده... شجاعة». ابتسم يوسف ولم يقل شيئا، لا يعرف كيف تلتقط كاثرين تلك الأفكار البديهية وتحولها إلى شيء

ذي قيمة، إلى سؤال ربما يمر في عقل يوسف في تلك اللحظة عن كل السنوات التي ابتعد فيها عن شغل المسرح. في بداية معرفته بكاثرين لم يرَ يوسف فيها إلا امرأة جميلة واحتمال مغامرة جنسية سريعة لا تؤدي إلى التزام. متى تزحزحت تلك الفكرة إلى الوراء وحلت محلها علاقة تشبه الصداقة وتتيح لكل منهما طلب المساعدة من الآخر دون أن يدخلا إلى مناطق البوح؟ يعرف يوسف أنه يضطرب عند اقتراب أحدهم من حدود ذاته. يكره تلك اللحظات التي يتحول فيها الصديق إلى محلل نفسي يفترض أنه يعلم ما يدور بداخله من مشاعر وأفكار. مع كاثرين يشعر بالراحة لأنها مثله، لديها ما تخاف عليه وما تحجبه، فكم من المرات توقفت في منتصف الكلام كأنها على وشك أن تقول شيئا ثم تراجعت.

مشت كاثرين بجانب يوسف تحت شمس الخريف وفتحت صدرها لهواء البحر ولرذاذه الذي ملأ الجو بملح خفيف. جاءت هنا للمرة الأولى مع مريم! مريم التي ترقد الآن على الحافة الرفيعة بين الحياة والموت. في الأسابيع التي سبقت رحيل كاثرين عن هذا العالم كان عقلها قد ترك بيت آل لينتون وذهب يحوِّم حول المرتفعات. أين أنتِ الآن يا مريم؟

«مش هناكل يا كاتي؟ أنا جعت».

انتبهت على سؤال يوسف وعلى اقترابهما من قلعة قايتباي. صعدا إلى النادي اليوناني وجلسا في زاوية الشرفة. نظرت كاثرين إلى البحر ثم التفتت إلى يوسف وقالت: «شكرا يا يوسف». ابتسم

وقال إن وجودها معه هذه المرة شجعه على كسر روتين أيام الإجازة فهو نادرا ما يذهب لمشاهدة مسرحية، أما المشي على الكورنيش فقد توقف عنه من أيام الجامعة. كان يكتفي بمشاهدة البحر لبضع دقائق تؤهله للعيش في القاهرة أسبوعا آخر.

قالت كاثرين إن البحر يمنحها شعورا مشابها بالتواجد في التلال تحت سماء يوركشير المفتوحة.

«هتسافري إمتى؟ في أجازة الكريسماس؟».

قالت إنها تدَّخر للسفر وسكتت. لم تحكِ له أن جزءا منها على يقين أنها سوف تعود إلى بيتها الأول في وقت ما، وجزءا آخر يشعر بالرعب من تلك اللحظة!

نظر يوسف إليها والنادل يضع أمامهما أطباق البيساريا المحمرة الساخنة ويخرج زجاجة النبيذ الأبيض من الثلج ويملأ الكأسين ويرحل. قال: «تعرفي، ساعات باشوفك زي البلورة اللي جدرانها مغبشة بتخلي الحاجات اللي جواها تهويمات بدون ملامح. أنا ما اعرفش الناس بيشوفوني إزاي، لكن أنا شايف نفسي زي ما انا شايف البلورة بتاعتك».

ارتشفت كاثرين من كأس النبيذ وهي تتأمل يوسف يضع في طبقها قطعة كبيرة من لحم سمك الدنيس المشوي. أحست باضطراب خفيف. إن وجودها معه مربك بعض الشيء فهو ليس أمينة رفيقة سنوات السيرينت أو مريم التي تعرف الحكاية بغض

النظر إن كانت تصدقها أم لا. مع يوسف تفكر فيما يمكن أن تقوله وما يجب كتمانه. من الطبيعي إذن أن يراها من وراء أسوار زجاجية! هل لا تزالين يا كاتي حبيسة اللعنة التي تجعلكِ ترين العالم خيالات تمر في المرآة والعالم بدوره لا يرى منكِ إلا طيفا عابرا؟

لم تعد كاثرين تشك أنها شبح كما كان الحال في بيت السيرينت، فأن يراها يوسف حتى لو من وراء زجاج مغبش، هذا يعني أنها حقيقية.

هل أنتِ حقيقة يا كاتي لمجرد أن يوسف يراكِ؟

ألا ترين أن هذا السؤال الآن أصبح ساذجا ولا معنى له؟

لمَ لا أسمعكِ تتساءلين عن أشياء أهم، عن الحقيقة والزيف مثلا، وإلى أي مدى بإمكانكِ أن تكوني نفسك تماما دون أقنعة؟

عادت إلى كاثرين تلك اللحظة البائسة حين ارتدت القناع بصلف وجهل الحمقى!

في بدايات مرحلة التودد والغزل جاء إدجار لزيارتها في بيت المرتفعات. استقبلته بثوب رفيع الذوق وصوت خفيض وخطوات أنثوية رقيقة. كان عليها أن تخفي أي تشابه بينها وبين هيثكليف الذي كانوا يسمونه في بيت آل لينتون بـ«ذلك الخبيث المنحط الصغير» و«الحيوان المتوحش». دخل إدجار إلى حجرة الاستقبال وفوجئت كاثرين بنيللي دين تنظِّف الأطباق وترتب الأدراج.

ذهبت إليها وهي تجزُّ على أسنانها وأنبتها بصوت خافت وطلبت منها بلهجة آمرة أن تمشي. لم تنصع نيللي فقد كانت تنفذ أوامر أخيها الوغد بألا تترك الحجرة في حالة زيارة الولد لكاثرين. كان عناد نيللي مفاجأة أشعلت غضبها. في الخفاء قرصت ذراع المربية قرصة عنيفة وطويلة، لكن الحقيرة تعمدت أن تصرخ كي تفضحها. امتقع وجه إدجار وبدا مصعوقا، لكنها أنكرت فعلتها. لا تذكر ما حدث بعدها بالتفصيل، لكن المشهد تصاعد باكتشاف إدجار أنها قد ارتكبت جُرما مزدوجا؛ الكذب والعنف غير المفهوم والذي لا يتفق إطلاقا مع صورته عنها. في لحظة واحدة سقط القناع الذي قضت كاثرين ساعات ترسم ملامحه بعناية، وظهرت كاثرين المتوحشة التي تشبه هيثكليف وخشونة المرتفعات. وهذه الكاثرين هي من صفعت إدجار فاحمرَّ وجهه وكان على وشك البكاء. ابتسمت كاثرين بسخرية في سرِّها وهي تتذكر كيف عادت إلى ارتداء القناع كي تتزوج إدجار.

«رحتِ فين يا كاتي؟ لو عايزه تشوفي المتحف يبقى لازم نتحرك».

عاد بها صوت يوسف من رحلتها داخل دماغها. كان المطر قد توقف لكن الشمس ظلت محتجبة وراء السحب. قامت من مقعدها فشعرت بدوخة خفيفة، لقد أجهزت على زجاجة النبيذ بمفردها باستثناء الكأس الأولى التي تناولها يوسف. عندما عادا إلى الكورنيش كانت أسئلتها قد توارت في صوت الموج وفي إحساسها بدوار لطيف جعلها ترى البحر والسيارات والناس كأنما من

مسافة. قالت ليوسف إن من المحتمل أنها قد سكرت سُكرا خفيفا وضَحِكًا.

لم يكن المتحف كبيرا مثل متحف القاهرة وهو ما أتاح لهما التجول بهدوء بين الآثار المصرية القديمة واليونانية. في الحجرة التي تحتفظ بآثار المدينة الغارقة «هيرقليون» كانت الحيطان غامقة اللون والإضاءة المزرقة ترتفع قليلا فوق أجساد التماثيل الجرانيت وتضوي بلمعة خفيفة فوق قطع النقود الذهبية والبرونزية. وقفت كاثرين في سكون وتلفتت حولها. أحست كأنها هبطت إلى عمق البحر نحو زمن كان موجودا منذ خمسة عشر قرنا. أغمضت عينيها للحظة شعرت فيها برأسها ممتلئا بالهواء وبجسدها كأنه ينزلق بخفة بين الأعشاب ومن حولها تمرق الأسماك دون أن تعيرها انتباها. فتحت عينيها فرأت أمامها تمثالا ضخما لامرأة تنظر بعيدا نحو شيء لا تراه كاثرين. سجلت الصور الفوتوغرافية المجاورة للتمثال مراحل الانتشال. كان جسد المرأة كله مطمورا في طبقات الرمال لا يبين منه إلا الرأس ومن فوقه غطاء كثيف من الطحالب كأنه إكليل. تنقلت عيناها بين التمثال والصور، ثم عادتا إلى نظرة المرأة. كان التمثال في لحظة ما مجرد خيال في دماغ النحات. كيف استطاع أن يجعل من الفكرة حقيقة تتأملها كاثرين الآن كأنها على وشك أن تسمع المرأة تنطق بشيء ما؟

وقف يوسف وراءها بخطوة وتأملها. كان يعرف أن كاثرين تدرك وجوده بجانبها حتى لو كان النبيذ قد لعب برأسها، لكنها

بدت كما لو كانت في مكان آخر بعيد جدًّا وموصد في وجهه. شعر بارتباك أو ربما بقدر من الغيرة، فهو يرى العالم كأنما من وراء جدران بلورته، عيناه تنزلقان سريعا كأنه يخاف التوقف طويلا أمام أي شيء، لكن كاثرين قادرة على التركيز في فكرة واحدة بدرجة من العمق تجعلها ترتحل وهي في مكانها! لم يفهم يوسف سببا لتلك الغيرة. ما الذي تملكه كاثرين ويتمناه هو؟

كان عليه أن ينحي الأسئلة جانبا حتى يلحقا بقطار الثامنة إلى القاهرة.

٢٧

شعرت مريم أن حجرا ضخما يربض فوق عينيها فتكاد تعجز عن فتحهما إلا ربما لوهلة. عندما يحدث ذلك لا ترى إلا كتلة ضخمة من الضباب، وبعد ثانية واحدة تنغلق عيناها من جديد فتعود إلى الطفو في فضاء هائل. هل كان نومها عميقا لتلك الدرجة؟

في إحدى اللحظات استطاعت أن تفيق فرأت السماء الرمادية خارج النافذة وقطرات المطر تنزلق في خيوط رفيعة فوق الزجاج.

هل كانت تحلم؟ إنها لا تتذكر شيئا.

مر الوقتُ بطيئا ومترددا وعينا مريم تنفتحان وتغمضان دون إرادتها. تشعر برأسها خفيفا كأنه بالون ممتلئ بالهواء، وبجسدها خفيفا كأنه يتحرك في عمق سحيق والماء يدفع بها كجثة وديعة يحاوطها اللون الرمادي المخضر وأطياف غائمة.

تك

تتك تك تك تك تتتك تك

تسارعت نقرات المطر فوق الزجاج.

فتحت مريم عينيها فبدأت الأشياء تتضح ببطء. رأت بجانبها امرأة تجلس أمام النافذة ورأسها محنيّ فوق كتاب. الضوء الرمادي المكتوم يأتي من ورائها فيكسوها بالظلال.

أهذه كاثرين؟

لكن كاثرين لا ترتدي جونلات طويلة وبلوزات حريرية ولا تعقص شعرها إلى الوراء.

أنصتت مريم إلى تكتكات المطر. كان الصوت مريحا.

تنفست.

فتحت عينيها وشعرت بالحجر الرابض فوقهما يتزحزح بعض الشيء، وتهويمات ما تحت الماء تنقشع بعض الشيء.

نظرت حولها. كانت في غرفة تكتسي جدرانها بورق حائط بلون البرقوق ومن فوقه تتناثر ورود كبيرة بارزة بدرجة أفتح من الأحمر. كان كرسي التسريحة بنفس لون الحائط ومن السقف تدلت نجفة نحاسية على شكل جسد «كيوبيد» القزم ببطنه المنتفخ المضحك يرفع خمس أذرع تنتهي بلمبات كريستال مسحوبة لأعلى. في مرآة طويلة بجانب الباب رأت صورتها باهتة وبعيدة وهي ترقد فوق السرير، لكن المرأة التي تجلس بجانبها لم تظهر.

تنفست مريم فخرج الزفير مصحوبا بأَنَّة خفيفة. انتبهت المرأة فتركت الكتاب واقتربت منها. هذه ليست كاثرين!

فتحت مريم فمها لتقول شيئا، لكن المرأة تركتها واتجهت إلى باب الحجرة ونادت: «أمينة.. كاثرين.. ليديز».

تتابعت دقات كعوب على الأرض الخشبية. دخلت كاثرين إلى الحجرة بزوبعة صغيرة لم تتبين منها مريم حرفا، ثم رأت أمينة تقترب منها في لهفة وتلمس جبينها: «بسم الله الرحمن الرحيم. يا

بركة آل البيت....!».

أفاقها الصوت.

إنه ليس حلما، فهذا الصوت، تلك النبرة... كل شيء يبدو حقيقيّا!

منذ أن فتحت مريم عينيها وهي تتفرج على الغرفة كأنها تستكشف عالما سفليّا غريبا بعيني زائرة سرعان ما سترحل وتعود إلى حياتها. كيف لا يكون هذا حلما؟

التفتت إلى مجموعة من النساء يدخلن إلى الحجرة. اقتربت إحداهن من سرير مريم، كانت خمرية بشعر أسود قصير وعينين تلتمعان بالفضول وهي تنظر إليها ثم تتجه إلى منضدة خشبية في الركن وتضع في المزهرية ورودا حمراء.

ازدادت الحجرة وضوحا، وكذلك صوت النساء ودقات المطر و....

كانت مريم على وشك أن تسأل أمينة: أين هي؟ لكنها غفت ولما أفاقت كانت أمينة قد اختفت. لم ترَ إلا كاثرين تجلس بجانبها وتحكي لها شيئا. ربما كانت تقول أشياء عن البحر وعن مدينة غارقة وامرأة.

في لحظة صحو أخرى أحست بأمينة ترفع جسدها ليستند إلى ظهر السرير وتمسك بالعنق الرفيع لدورق الماء لتصب كوبا ثم تقربه من شفتي مريم. كان للماء طعم غريب! عندما لمس شفتيها شعرت

بالظمأ، لكن أمينة كانت حريصة أن تنساب القطرات إلى حلقها ببطء.

تلفتت مريم حولها تبحث عن المرأة التي رأتها بجانب سريرها كخيال ظل فلم يكن لها أثر في الحجرة الساكنة. أحست بثقل رأسها فأراحته إلى الوراء.

كم مرة غفوتِ وصحوتِ يا مريم؟

تشعر كأنها تحت تأثير البنج، لا تدرك شيئا مما يدور حولها إلا عبر ومضات خاطفة تعود بعدها إلى الضباب.

لقد طال هذا الحلم أكثر من اللازم ومريم تريد أن تصحو. سوف تغمض عينيها حتى تنهي الحلم.

وهل بإمكانكِ أن تنهي الحلم؟

لقد فعلتها بضع مرات. خرجتْ من حلم لا يعجبها وصفعت الباب وراءها.

لكن هذا الحلم ليس بكابوس يا مريم!

ولو... لقد أمضيتُ وقتا طويلا جدّا هنا، أصحو وأنام ولا شيء يحدث إلا الحوائط الحمراء والمطر في الخارج!

من يسمعكِ تقولين هذا الكلام لربما، لا سمح الله، يعتقد أن عليك أن ترجعي فورا إلى الأحداث الكثيرة جدّا، والهامة جدّا التي تدور في حياتك!

سوف أغمض عينيَّ كي أصحو، لقد اتخذتُ قراري.

تغمضين عينيك، أم تفتحينهما يا عبيطة؟ لو أنك تحلمين فما عليكِ إلا أن تفتحي عينيكِ كي ينتهي الحلم.

وماذا لو كنتُ متيقظة؟

ستكون عيناك مفتوحتين ولا داعي لكل هذا الهراء.

احتدم الصراع في دماغ مريم، ضجيج بلا طحين، بينما موجات الصحو والخدر تتقاذفها كيفما تشاء. تأتي موجة تدفعها نحو الشاطئ فتسمع أمينة تهمهم بأغنية وترى الزهور الحمراء أمامها والضباب خارج النافذة، ثم تأتي موجة أخرى تجذبها إلى أسفل فتنسحب إلى القاع حيث الرؤية غائمة والماء يغمرها.

لكنها لا تريد أن تغرق!

أنتِ لا تغرقين يا مريم. اطمئني.

أنا متعبة جدًّا!

إذن نامي. هل هذا أمر صعب؟

أتعرفين ما الأمر الصعب؟ أن تكوني في وادٍ وكل من في هذه الغرفة في وادٍ آخر! أن تشعري أن أمينة وكاثرين تريانكِ لكنهما لا تسمعانكِ! أن تكتشفي في لحظة ـ غير سعيدة بالمرة ـ أنك قد أصبحت جهاز استقبال فقط! ألا تعرفين إن كان ما يحدث لك حلم أم حقيقة؟ أن تتساءلي أين الواقع وما الحلم؟ هذا هو الأمر الصعب، فاخرسي الآن. اخرسي..!

«يا ستار يا رب.. شكلها تعبت تاني يا كاتي».

سمعت مريم صوت أمينة ورأت وجهها الخمري ذا الشامة السوداء يقترب منها.

شعرت بيد أمينة فوق رأسها.

أين ذهبت المرأة ذات البلوزة الحريرية؟

أين أنا يا أمينة، وكم الساعة الآن؟

لم تنطق مريم بأي من الأسئلة التي تدور في دماغها، ولم تعرف كم من الوقت قضته في هذا العمق دون إحساس بليل أو نهار كأن الوقت قد لملم أغراضه واختفى ببساطة ودون جلبة.

في إحدى المرات صحت مريم من النوم على سكون الغرفة. حركت أصابع يديها وذراعيها. جلست في السرير وأزاحت اللحاف الحريري الأخضر بعيدا ثم نزلت. إنها المرة الأولى التي تمشي فيها بعد أيام الرقاد. لمحت أمينة نائمة على سرير في طرف الغرفة. لم تكن تعرف أن أمينة تبيت معها! تسحبت على أطراف أصابعها وفتحت باب الغرفة وخطت إلى الخارج. رأت طرقة عريضة تلتف في دائرة واسعة تطل عليها غرف أخرى. مشت نحو الدرابزين الخشبي ونظرت من فوق على بهو استقبال واسع ومضاء بأنوار خافتة. في الأركان تناثرت صالونات وتماثيل ولوحات ضخمة، رأت بيانو وآلة هارب بالقرب من إحدى النوافذ.

عادت بهدوء إلى الغرفة واتجهت نحو النافذة ونظرت إلى الخارج.

لم تتبين شيئا. لكن يبدو أن الفجر كان على وشك المجيء فالسماء بدأت تتحول من الأسود إلى الرمادي الغامق. رأت مريم في نور بدايات اليوم جبلا بعيدا تغطيه الأشجار وتلالا ترتفع وتنخفض في الأسفل فتبدو كالنهود الممتلئة والبطون المسترخية بلا مبالاة فوق جسد الأرض.

ظلت واقفة كالتمثال تتأمل النور يطل برأسه من وراء الجبل.

عندما فتحت فمها للكلام خرج صوتها خافتا ومجروحا. همست لنفسها: أنا في بيت السيرينت!

تردَّدَ صدى الجملة في أركان الغرفة وعاد إليها.

أنا.. في بيت السيرينت!

٢٨

يا ورد مين يشتريك وللحبيب يهديك

يهدي إليه الأمل الهوى والقبل: يا ورد

يا ورد مين....

همهمت أمينة بلحن الأغنية وهي تمسك بذراع مريم تقود خطواتها إلى الحمَّام. كانت كمن تزف خديجة أو عائشة إلى العريس ومن حولهما تتساقط رشات الملح وزهور بيضاء يلقيها على الزفة جمهور وهمي.

قالت لمريم: «حمَّام على أصوله يفوِّق البدن العليل».

في الأيام الأخيرة تحسنت صحة مريم. كانت قد اعتادت وجودها في الغرفة المطلة على السماء والتلال، كما اعتادت أيضا على تجاهل أمينة لأسئلتها عن المكان وعَمَّا يحدث لها إلا بابتسامات صغيرة غير مفهومة. ومريم فكرت كثيرا وقررت أن لا معنى لمقاومتها البقاء في هذا الحلم الطويل.

أبيض.. ترا لم.. غار النسيم منه

نظرت مريم إلى أمينة وهي تستكمل الدندنة وشعرت كأن هذا الحمَّام هو الجائزة التي تمنحها أمينة لنفسها باعتزاز بعد نجاحها في انتزاع مريم من براثن الموت. كانت أمينة قد حددت روتينا صارما من أول الأكل الذي كان في أغلبه سوائل وعصائر طازجة ودوارق

مياه بعصير الليمون والزنجبيل إلى النوم في مواعيد مبكرة، ووصولا إلى المشي داخل الغرفة، ثم في طرقة البيت بمساعدة كاثرين. ومن المفهوم طبعا أن الانفعال هو من الكبائر التي لن تسمح بها أمينة؛ لذلك على مريم أن تتوقف عن الكلام والأسئلة.

في كل يوم كانت مريم تتقدم خطوة نحو الشفاء. تحسن مزاجها تدريجيّا، وأصبح نومها أكثر عمقا وخفَّت حدة الكوابيس.

دخلت أمينة في ذلك الصباح إلى حجرة مريم وأعلنت موعد الحَمَّام بنبرة فرمان حاسم لا يقبل الرد ولا الطعن. قالتها كما لو كانت تتوقع ممانعة أو رفضا. كادت مريم أن تضحك فأمينة تعاملها كأنها طفلة عنيدة معروف عنها...

قفزت اللقطة القديمة فجأة إلى دماغ مريم.

«مش عايزه أستحمى. عااااا.........».

رأت أمها تجرجرها إلى الحَمَّام وهي تصرخ فيها، ومريم تبادلها الصراخ: «مش عايزاااااااه...».

هذا المشهد الميلودرامي الفاجع كان للأسف واقعا يوميّا في طفولة مريم. تتحول أصابع ناهد البيضاء البضة إلى مخالب ضخمة تنشب نفسها في لحم الطفلة، ومريم تقاوم كأنهم يجرونها إلى مقصلة الثورة الفرنسية، بكاؤها يزيد من لوثة أمها فتصرخ فيها: «قرفتيني ف عيشتي. بطلي تمثيل بقى. اخرسيييييي». تخلع ناهد ملابسها كأنها تمزقها وتزج برأسها تحت الماء الساخن، الماء الذي يلسعها. يخفت

صراخ مريم ويتحول إلى نهنهة: «سخن يا ماما. قلت لك سخن أوي!». صدرها يتقلص ببكاء مكتوم: «بيلسعني..!»، ناهد تنظر إليها بعينين متحجرتين ولا ترد، جلد مريم يتلون بالأحمر الفاقع، جلدها يؤلمها في الصباح التالي عندما تلامسه مريلة المدرسة المنشَّاة.

شعرت مريم بيد أمينة تمسك بيدها وتسحبها برفق من بين أنياب الذكرى، ثم تدفع الباب الخشبي المشغول بالنحاس فينفتح.

امتلأ الحمام بنور أول النهار الذي دخل من نوافذ قبة عالية ذات نوافذ صغيرة. دارت عينا مريم من رخام الأرض المصفر ذي الشرايين الحمراء إلى المرايا مذهبة الأطر فوق أحد الجدران والأريكة الخشبية المستندة إلى الحائط. تحت القبة انتصب مغطس رخامي كبير تصاعد من مائه بخار له رائحة غريبة لم تستطع مريم تمييزها.

أبيض غار النهار منه خجول محتار

باس الندى ف خده وجرت عليه الأغصان

راح النسيم واشتكى جرح خدوده وبكى

تركت مريم يد أمينة ومشت ببطء إلى جدار زجاجي عريض التصقت به خيوط المطر من الخارج ومن الداخل تكثف عليه البخار. مسحت الزجاج في دائرة صغيرة ونظرت. من هذا الارتفاع لا تتبين مريم شيئا في الأسفل؛ لأن حافة الجبل تنزل بزاوية قائمة نحو العمق. وعلى مد البصر لا توجد إلا سجادة

التلال الخضراء.

هل هذه رائحة مسك؟

التفتت فرأت أمينة تضع في ماء المغطس سائلا أصفر ثقيلا وهي تغني:

يا ورد ليه الخجل.. فيك يحلو الغزل

يا ورد ليه الخجل.. فيك يحلو الـ...

في الخارج مالت شجرة ضخمة تصل فروعها إلى أعلى من طابق الحمّام، مسّت الزجاج المغبش وأسقطت زهورا بيضاء.

أجلستها أمينة على الأريكة وخلعت ملابسها. استغربت مريم هذا الشعور. إنها لم تتعرَّ من قبل، حتى مع رؤوف وناجي كانت تصر على إطفاء النور كأن جسدها جريمة لا بد من طمس معالمها.

يا ورد يا أحمر قول لي مين ده اللي جرحك مين..

نظرت إلى جسدها في المرآة. لمست فخذها المكتنزة الممتلئة بالكتل الدهنية، مرت بأطراف أصابعها على ذراعها الثقيل، لمست رقبتها وشعرها الخشن القصير. أحست كأن جسدها يبادلها النظر هو الآخر ولأول مرة لم تره قبيحا. إنه ليس جميلا، لكنه... جسدها!

اقتربت من المغطس ومدت يدها تلمس الماء وسمعت أمينة تطمئنها: «ما تخافيش الميه فاترة».

نزلت بحذر وعندما غمر الماء جسدها تنفست. أحست بمسام

جلدها تتفتح كأنها عطشى. من حولها طفت أوراق زهور ودغدغت رقبتها، هنا خلف أذنها حيث اعتاد رؤوف تقبيلها.

رؤوف...!

أزعجتها الذكرى. ما الذي جعلها تقبل بنصف علاقة وهي ملكة الصلصال التي خلقت نفسها من العدم؟ هل أحبت رؤوف، أم أنها كانت بحاجة أن تثبت لنفسها أن بإمكانها أن تحيا حياة طبيعية، زوجا وطفلا...؟ ربما كان الاحتياج أكثر قسوة من الحب، فعندما نحب نجد لأنفسنا ألف عذر يبرر الشقاء، لكن الاحتياج...!

أحست بحلقها جافًا ومرًا فطلبت من أمينة أن تشرب.

ماء المغطس فاتر ولطيف، ورائحة المسك تهدئ من وجع جسدها وتهيج خلايا الحزن.

منذ متى يا مريم وأنتِ عاجزة عن البكاء؟

عندما بدأت أمينة في دعك ظهرها باللوفة الخشنة أفلت منها أنين خافت. لم تكن تدرك أن جسدها يؤلمها إلى هذا الحد!

دارت يد أمينة بقوة أسفل ظهرها وصعدت ببطء إلى أعلى كأنها تطرد عفاريت عنيدة ومتشبثة. تقافزت وخزات الألم بعشوائية في عضلات جسدها. كانت تعي للمرة الأولى بوجود عضلاتها، تلك الأنسجة التي تعرف أماكنها بدقة، لكن هذا لم يكن إلا في الكتب ومع أجساد المرضى.

تحركت يد أمينة كأنها تعرف مخابئ الوجع. أحست مريم تحت

جلد رقبتها بأحجار صغيرة صلبة!
هل يأتي الألم من هذا الثقل تحت الجلد؟
صعدت يد أمينة إلى كتفيها ورقبتها وضغطت. سمعت مريم أنينها وصوت تكسُّر بعض الأحجار.
صبت أمينة ماء باردا فوق رأسها؛ فأغمضت مريم عينيها وخرجت منها آهة مسموعة تلتها زفرة قوية.
«أيوه كده يا مريم. اتنفسي فكي عن صدرك».
تنفست مريم وكان صوت زفيرها مريحا. أغمضت عينيها كأنها تحدث نفسها وقالت: «الفترة اللي فاتت شفت حياتي كلها. أول مرة الشريط يمر قدامي من غير مقاطعة أو حذف!».
نظرت أمينة إليها.
«حاولت أقاوم كالعادة. مش عايزه أشوف!».
فتحت عينيها ونظرت إلى أمينة واستكملت: «كل ما أزق الصور بعيد ترجع تاني!».
قامت أمينة إلى الحوض، شطفت يديها وصبت مشروبا أخضر غامقا في أكواب تشبه الخمسينة. مدت الكوب إلى مريم: «معمل أمينة للأعشاب السحرية على رأي كاتي. بالشفا».
تناولت مريم الكوب وهي تشعر بالحيرة. لا تعرف من أين تبدأ وهي ليست متأكدة إن كانت تريد أن تحكي لأمينة عن أشياء حدثت في الماضي البعيد وظنت أنها قد دفنتها في صندوق أسود

قذفت به إلى البحر! كل ما تعرفه أنها خائفة من كلام ظل يتراكم داخلها حتى أصبحت كالقنبلة الموقوتة. نظرت إلى أمينة التي جلست على المقعد الخشبي الصغير بجانبها وخرجت منها الجمل دون قرار أو ترتيب: «ناجي...! مش عارفه أفتكره إلا وهو بيموت. دخلت العناية المركزة لقيته قاعد على السرير بيبص ناحيتي لكن مش شايفني. قعدت أكلمه عن الدكتور الألماني اللي رد عليَّ وطلب الأشعات الأخيرة... ناجي.. أنا...!».

كيف يمكن لناجي الذي كان ينام منذ أيام وهو يلف ذراعه حولها أن ينظر إليها فلا يعرفها!

كانت تود أن تنقل له خبر حملها الذي عرفته منذ ساعة واحدة، لكنه كان قد انزلق في نفس اللحظة إلى غيبوبة الكبد. أخرستها النظرة الذاهلة في عينيه، احتلت دماغها وبددت كل اللحظات التي سبقتها كأن سنوات عمرهما معا قد تجمدت في صورة واحدة.

حين اكتشفوا إصابة ناجي بفيروس سي كان السرطان قد توغل في الكبد. لم يترك لهما إلا سبعين يوما قضتها مريم تجري من المعمل والمستشفى إلى مراسلة مستشفيات في ألمانيا وفرنسا. اختفى من داخلها صوت الطبيبة الذي يعلم باقتراب النهاية ولم تتبقَّ إلا امرأة تتوسل للدقائق أن تمر ببطء فلا شك أن هناك شيئا سيحدث، دواء جديدا ربما أو علاجا في مرحلة التجريب!

حدث كل شيء بسرعة ولم تكن لدى مريم رفاهية التعرف على

مشاعرها، بل إنها تشك أنها شعرت بحزن أو خوف أو غضب. هل كانت تلك هي اللحظة التي توقف فيها جهاز الإحساس عن العمل إلى الأبد؟ في مدافن عائلة ناجي في «قوص» وقفت تنظر إلى جثمانه وهو ينزل إلى القبر كأنها تراه من بعيد، بينها وبينه أسوار من زجاج. أما أمها فقد وجدت في ذلك اليوم متنفسا لمواهبها الدرامية المكبوتة. أخذت تصرخ وتبكي وتخمش وجهها بأظافرها المطلية باللون الأحمر كما لو كان الميت هو زوجها وليس زوج ابنتها التي تفننت في تسميم حياته. حين انهارت ناهد فاقدة الوعي اندفع إليها أهل ناجي تاركين مريم تقف وحيدة. انسحبت من باب المدفن في هدوء كأنها أدت واجب عزاء في أحد الأقارب البعيدين.

تنهدت أمينة ونظرت إلى عيني مريم ولم تنطق.

أحست مريم بفوران الدموع في صدرها؛ فهي لم تعتد النظر في العيون ولا حتى مع مرضاها. غمرها شعور بالرهبة ليس فقط لأنها أطلقت سراح الألم المحبوس؛ ولكن لأن هناك من أنصت إليها وصدَّقها. انزلق خيط رفيع من الدموع فوق وجهها دون أن تفكر للحظة واحدة أن أمينة ستتهمها أنها تُمثِّل.

أعطتها أمينة كوبا آخر من مشروب الزهور. كان طعمه حلوا وفيه لذعة تشبه الزنجبيل. شعرت بالسائل يسري في عروقها بهدوء. أراحت رأسها على حرف المغطس وأغمضت عينيها فعاد إليها وجه ناجي.

قالت بصوت مكتوم: «أمينة.. أنا ما ودعتوش...!».

خبطتها الفكرة كالمطرقة فوق أم رأسها. إنها لم تودع ناجي، لم تسمح له أن يرحل! فلتمر أربعة وعشرون عاما كما تشاء، فلتدخل مريم في علاقات عاطفية كما تشاء، لكنها لم تتحرك من أمام عيني ناجي اللتين لم تعودا تعرفانها.

كانت أمينة جالسة والشمس تأتي من ظهرها وهو ما ذكَّر مريم بالمرأة التي كانت تجلس بجانب سريرها عندما أفاقت. قالت أمينة: «تعرفي يا مريم، المكان ده سره باتع. وحق بيت الله له كرامات. شوفي هو طبعا يخوّف، أصلك تلاقي نفسك في حته غريبة، لا انتِ عارفه دي شرق ولا غرب، إمبارح ولا النهارده، بس أهي حته من أرض الله. وبعد ما تسلّمي أمرك للي خلقك وتقبلي إنك موجودة هنا تلاقي حاجات عجيبة بتحصل لك».

نظرت مريم إليها مستفهمة.

«آه.. تلاقيكِ بتشوفي نفسك كإنك حد تاني. حاجة صعبة قوي، لكن...».

«صعبة...!».

«طبعا.. مش بتشوفي بجد، من غير لف ولا دوران؟ والشوف وجع، علقم أعوذ بالله!».

سكتت أمينة وهي تنظر إلى مريم بابتسامة في عينيها واستكملت: «إنتِ بتقولي إنك شفتِ حياتك في الكام يوم اللي فاتوا، أمال أنا

أقول إيه؟ أنا في البيت ده مثلا غضبت على حاجة عدت وفات زمانها. لما فهمي مات كنت عايزه أروح الجنازة، بس خفت أطلب من سي السيد، فبعت ياسين يجس نبض. عبد الجواد اتشال واتحط وشخط في الواد الغلبان وقال له: دي جنازة وطنية ما فيهاش ستات بلاش كلام فارغ. ما هو يا إمَّا كنت أطلع جنازة فهمي يا تجيبهولي أشوفه! إنما ابني يطلع من بره بره! سُكيتي.. ما يعديش يسلم! تتصوري يا مريم إني ماكنتش أعرف إني شايله الكلام ده في قلبي وقافله عليه عمر بحاله. بس بقى يا ستي.. قمت اتخانقت مع عبد الجواد وبهدلته».

ابتسمت مريم.

ملّست أمينة رأسها وذكرتها بكوب الشاي العالق في يدها. تناولت مريم آخر الرشفات وسألت عن خليط الأعشاب. قالت أمينة إنها مزيج من الشاي الأخضر والنعناع البري والكاموميل وبذور خشخاش و زهور الـ....

«خشخاش!».

انفجرت مريم في الضحك فاندفع الماء في موجات قوية خارج المغطس، «خشخاش يا أمينة!»، ولم يلبث أن تحول الضحك إلى قهقهة عالية.

أضاءت ابتسامة عريضة وجه أمينة: «أيوه كده اضحكي. ربنا يسعد أيامك».

ثم قامت لتأتي بفوطة كبيرة معلقة على شماعة خشبية بجانب الباب وقالت: «بكره بإذن الله لو الجو شمس هنطلع الغابة، أنا وانتِ وكاتي والست فيرجينيا».

قالت مريم: «مين؟».

٢٩

خرجت مريم من الباب ومشت ببطء إلى الحديقة، ثم التفتت وراءها.

بدا البيت كأحد قلاع العصور الوسطى، خشن وجهم بكتل الحجر الرمادي التي تشكل جسده المتعالي وتلك الأبراج المدببة الغريبة. هل كانت في يوم ما صوامع رهبان؟ أو ربما أبراج حماية لقلعة حربية! ومن هذا المجنون الذي سيفكر في غزو قلعة على طرف جبل يطل على الفراغ؟ ومن هذا الأكثر جنونا الذي شيد هذا الحصن على أطراف العالم ثم مشى ونسيه؟

تجولت بعينيها في الحديقة الغارقة في لون التوت البري والخشخاش الأحمر وزهور الكالا البيضاء ومن أقصى يمين البيت سمعت جلجلة أدوات مطبخ. على الرغم من سطوع الشمس كان الهواء قويّا وباردا بعض الشيء. تنفست مريم وشعرت بصدرها ينفتح ليستقبل هواء أكثر. كان للهواء طعم!

سمعت خشخشة أوراق شجر وصوت أقدام تقترب. رأت امرأة ذات جسد طويل نحيل تمر من بين الأشجار تتبعها أحصنة ثلاثة. إنها فيرجينيا ولف بشعرها الفضي المعقوص إلى الوراء وعينيها الصغيرتين الغائصتيْن في وجهها. التقت بها كاثرين عند النافورة في نفس اللحظة التي خرجت فيها أمينة من باب البيت واتجهت إلى حصان أسود ربتت على وجهه فهز رأسه هزات صغيرة ونظر

إليها.

ركبت كاثرين فوق السرج واقتربت بحصانها من مريم ومدت يدها تدعوها للصعود. اتسعت عينا مريم. أنتِ تمزحين يا كاثرين! لن أركب الحصان طبعا.. لم أفعلها قط! وهذا الحيوان المسكين ما ذنبه؟! بعد بضع محاولات استقرت مريم وراء كاثرين.

بدأت رحلة الهبوط أسفل التلّ فخفق قلب مريم بعنف. أطبقت بيديها حول جسد كاثرين الذي انتصب قويّا ومرتاحا فوق السرج. خافت مريم أن تنكفئ على وجهها فتهرس تحتها كاثرين والحصان. بعد فترة من السير أحست بدقات قلبها تهدأ وتستقر عند نبضات توتر خفيفة. خيَّم على المكان سكون لم يخدشه حتى صوت حفيف أوراق الشجر ودقات كعوب الأحصنة. كان صمتا هادئا رصينا وغير مكترث إلا بنفسه. التفتت مريم نحو أمينة فوجدتها تنظر إليها ثم تدير وجهها إلى الأمام وعلى شفتيها ابتسامة .

انتهت القافلة من هبوط التلّ ودخلت طريقا مسقوفا بالأشجار كأنه نفق برتقالي عملاق. غطت أوراق الخريف الأشجار بالأصفر والبرتقالي، ومدت فوق الأرض بساطا هشّا وملونا.

فيرجينيا أمامها الآن تمسك باللجام وتحرك الحصان بهزات صغيرة من يدها. انحرف حصانها إلى اليسار وتتابع خروج القافلة من نفق الأشجار إلى الغابة. لم ترَ مريم قط أشجارا بهذا الطول! نظرت إلى فوق فرأت نور الشمس يصل عبر الأوراق في خيوط نحيلة. ظل

الطريق يصعد ويهبط إلى أن رأت مريم البحيرة في الأسفل. أدركت أن الغابة تمتد فوق تلال تنحدر كلها نحو الماء. نضح الهواء برائحة العشب المبلل وزهور البلوبلز التي تكتلت في مجموعات بنفسجية كثيفة. كان للهواء طعم!

ترجلن عند الشاطئ. ربطت كاثرين الأحصنة إلى شجرة بالقرب من كشك خشبي صغير، نظرت نحو طرف البحيرة البعيد ومشت. جلست فيرجينيا على الأرض، أخرجت أوراقها وبدأت تقرأ. تربعت أمينة وأسندت ظهرها إلى جذع شجرة «أم الشعور» وأخرجت كتابا. وقفت مريم للحظة لا تعرف ماذا تفعل بنفسها! لماذا لا تتكلم أي من النساء؟ إن الصمت يشعرها بالتوتر والارتباك. عندما جلست بعد تردد شعرت بجسدها يغوص قليلا في العشب الكثيف. أراحت يدها فوقه فأحست به يتحرك ليِّنا تحت كفها. أجفلت.

امتدت البحيرة أمامها وانعكست على سطحها صورة السماء والسحب وأطراف التلال. ما هذه الألوان التي تفترش المكان؟ إنها واضحة وحادة بشكل لم تخبُره مريم من قبل، الأزرق والأبيض ودرجات الأخضر! نظرت بطرف عين إلى فيرجينيا التي بدأت تلف سيجارة وعيناها شاردتان. تذكرت مريم في تلك اللحظة أن الرواية الوحيدة التي قرأتها لها هي «مسز دالاواي»(********). فوجئت بالتفاصيل تتدفق إلى دماغها كأنها انتهت للتو من القراءة. كانت البطلة «كلاريسا» قد اختارت الأمان. هجرت الرجل الذي

أحبته وخلقت شرنقة مريحة داخل الجدران الأنيقة لزواج يحفظ لها مكانا مميزا في الخريطة الاجتماعية للندن عام ١٩٢٣. هكذا ستتمكن من إقامة الحفلات. كان شغف كلاريسا الأكبر ومنتهى سعادتها هما أن تمنح مدعويها الشعور بالكمال ولو لليلة واحدة فقط، فالنساء يصبحن أجمل وأبهى والرجال يشعرون بالرضا والامتلاء. ينضغط الكون في حيز هذا الحفل الصغير بموسيقاه ورنين ضحكاته. كلاريسا قادرة على خلق ليلة واحدة من السحر الخالص. في تلك الليلة ستشعر بذاتها البعيدة عن كل هذا الهرج داخل الفقاعة وتتأكد مرة أخرى أن لديها شيئا تخاف عليه وتحميه، ذاتها السرية الغامضة التي لا تشاركها حتى مع زوجها أو أي إنسان.

ما الذي كانت كلاريسا تعرفه عن «ذاتها السرية الغامضة»؟

وماذا تعرفين أنتِ عن ذاتك يا مريم؟

كانت لمريم صولات وجولات في هذا المضمار منذ أيام الكهف السري وعالم الروايات. لكن شيئا ما حدث مع موت ناجي الذي اختفت بعده تلك الفتاة التي تحب الحياة وتؤمن بقدرة الإنسان على إعادة تشكيل نفسه. تبددت فجأة كأنها لم تكن! إنها حتى لا تتذكر ملامحها كأنها كانت شخصا قابلته بشكل عابر ولم تتح لهما فرصة حقيقية للتعارف!

نظرت مريم إلى ماء البحيرة الذي يبعد عنها خطوات. رأت سربا

من البط يسبح مقتربا وحطت طيور أخرى ذات مناقير كبيرة عند الشاطئ وبدأت تمشي نحو أمينة وهي تهز مؤخراتها الممتلئة. أخرجت أمينة من حقيبتها كبشة من الحبوب وألقتها على بعد خطوة منها فتكتلت الطيور حولها، ابتسمت لها ثم عادت تقلّب صفحات الكتاب. تأملتها مريم. كم تبدين مرتاحة يا أمينة! لا تعرف مريم إن كانت الراحة هي الكلمة المناسبة أو الوصف الدقيق لذلك الإحساس الذي يرافق أمينة أينما ذهبت. عادت إليها صورة أمينة وهي تتربع على كنبة بيت الروضة وأمامها عدة القهوة بعد يومين من مجيئها.

أغمضت مريم عينيها وتنفست ثم نظرت إلى السحب التي طفت فوق وجه البحيرة. حاولت أن تتذكر ملامح مريم القديمة وفشلت. لم ترَ في خيالها إلا هذا الوجه الجامد والعينين الزجاجيتين الذين صاحبوها منذ موت ناجي. بدت لها تلك السنوات كمساحة شاسعة من الجليد، وقت ممتد بلا ملامح! ربع قرن ومريم تتحرك من البيت إلى المستشفى والعيادة. جسدها لا يحس ولا ينفعل، وذاتها تهيم على وجهها في أرض خراب لا تعرف مريم موقعها. حاولت أن تتذكر شيئا ذا قيمة، تجربة أو حتى لحظة، لم تعثر على صورة واحدة تستحق أن تدخل ألبوم الذكريات كأنها كيان فارغ أو عروس ورقية مجوفة لو أن أحدهم قد مد يده داخلها ما أمسك إلا بالهواء.

عندما مات ناجي كانت مريم متماسكة في الجنازة وما تلاها من

إجراءات، وظلت كذلك حتى بعد أن فقدت الجنين. في ذلك اليوم حاولت ظاظا أن تكتم دموعها لكنها لم تستطع. أما مريم فقد تلقت الخبر بهدوء بعد إفاقتها من البنج كأن ما يدور يخص امرأة غيرها.

رفعت وجهها إلى السماء التي مرت فيها سحبٌ شاهقة البياض. لم تظهر كاثرين بعد وأمينة منكبة على الكتاب بين يديها وفيرجينيا تخط جملا فوق الورق. كان جسد مريم متعبا كمن خرج لتوه من معركة طاحنة، إلا أنها أيضا تشعر بملمس الهواء الخريفي البارد فوق جلدها وورقة الشجر التي هبطت بخفة على جبهتها، وتسمع صوت بقبقة الماء بالقرب منها. تكاد تشعر حتى بحركة الأسماك في قاع البحيرة.

هل متِ يا مريم وانتقلتِ إلى الجنة؟

إن كانت هذه هي الجنة فلمَ لا تشعر مريم بالسعادة التي يتحاكون عنها؟

لوت شفتيها في سخرية.

بالأمس قالت لأمينة إنها لا تتذكر من ناجي إلا فترة المرض. من وقتها وهي تحاول أن تعود إلى أي لحظة جمعتهما ولم تفلح. إنها عشر سنوات ما بين الكلية والزواج! كيف لا تتذكر شيئا؟ لا يعود إلى مريم إلا إحساسها بالانتصار على أمها. كان زواجها من ناجي على الرغم من أنف ناهد انتصارا لمريم. كانت حياتها الجديدة انتصارا.

حتى قرارها تأجيل الحمل يدخل في إطار الحرب غير المعلنة مع ناهد التي ما إن انتهت من موال «الجوازة الخايبة» حتى بدأت في الإلحاح على مريم أن تحمل: «إنتِ بقيتِ فوق ال٣٠ ولازم تلحقي تخلفي، مش يمكن تطلع عنده مشكلة، أو يمكن عندك انتِ؟».

رأت مريم فيرجينيا تترك الأوراق تحت حجر صغير وتمشي إلى البحيرة وتقف على بعد خطوة من الماء. نظرت مريم نحوها وشعرت بتوتر يتسحب داخلها كأسراب نمل تملؤها وتصعد إلى رأسها. بداخلها أسئلة لا تعرف ما هي. في رأسها تنزلق الأفكار ككرات الزئبق الصغيرة التي يستحيل الإمساك بها، الصندوق الأسود.. ناجي.. الانتصار.. الجنة..

هيَّا يا مريم. بإمكانك الآن أن تنادي على فيرجينيا؛ كي تستدير إليكِ وتسأليها ما تشائين.

عَمَّ أسألها؟

اسأليها مثلا عن معنى أن ننظر إلى الحياة وجها لوجه، أن نعرفها كما هي، أن نحبها كما هي، ثم نضعها جانبا!

لا تذكر مريم أين قالت فيرجينيا هذا الكلام، ولا تعرف معنى أن نحب الحياة كما هي ثم «نضعها جانبا»، أم أن هذا هو ما فعلته فيرجينيا عندما ملأت جيوب معطفها بالحجارة ونزلت إلى ماء البحيرة البارد؟

إذن اسأليها لِمَ أنتِ هنا، وما هذا المكان، وكيف أتت فيرجينيا

نفسها إلى بيت السيرينت وهي كاتبة بينما كل ساكنات البيت من بطلات الروايات؟

«مريم..!».

انتبهت على نداء أمينة التي وقفت أمامها ومدت يدها لها برغيف خبز منتفخ مستدير ومحشو بمربى التوت البري. تناولت مريم قضمة وهي تنظر في عيني أمينة، لكن الطعام وقف في حلقها. كم تود في هذه اللحظة أن تخبرها شيئا هامّا جدّا. سوف تنطق بجملة قصيرة وبسيطة ـ مبتدأ وخبر ـ ستقولها كشيء عادي لا يستدعي كل هذا الصراع الدامي: «أنا تعيسة».

قامت من جلستها وتركت أمينة وراءها ومشت مبتعدة. إلى يمينها انتصبت الأشجار كعلامات استفهام ضخمة، ومن الناحية الأخرى امتدت البحيرة التي لونتها الشمس بخيوط برتقالية رفيعة. نظرت إلى الماء الضحل حيث تلتمع الأحجار الصغيرة والحصى وتتلوى أسراب سمك صغير بين الأعشاب. رفعت عينيها إلى التلال وعادت إلى الماء. فوق صفحته رأت وجه ناجي. كان غافيا على كرسي البحر في شاطئ المعمورة وفوق بطنه كتاب. تجلت الصورة بوضوح، سمرة جسده الذي لفحته شمس المصيف، عظام وجهه الذي يشبه وجوه المصريين القدماء على جدران المعابد، ارتفاع وانخفاض صدره وهو يتنفس وجلده الذي التمع بالعرق وحبات الرمل. أين كانت مريم وقتها؟ أدارت عدسة الكاميرا لتكشف الكرسي الآخر الذي ملأه جسد مريم

وفاض قليلا إلى الجانبين. لكنها لم تستطع رؤية وجهها. ربما كان هذا هو صيف ١٩٨١ أو ١٩٨٢. لكن هذا ليس مهمّا. إنها ترى ناجي الآن!

ارتج صدرها بالدموع.

(*******) «مسز دالاواي» رواية لفيرجينيا وولف نشرت عام ١٩٢٥، تدور أحداثها في لندن بعد الحرب العالمية الأولى.

٣٠

١٣ نوفمبر ٢٠١٠
جنينة مستشفى قصر العيني
الساعة ٣ الفجر

أنا قلبي مقبوض وجسمي بارد زي التلج. لفيت الشال الصوف حوالين كتفي وخرجت من أوضة مريم وفي إيدي الكراس. محتاجة أكتب وأشم شويه هوا من بتوع ربنا بدل هوا المستشفى الصناعي. جيت قعدت على حته النجيلة اللي بره المبنى.

يعني أنا هلاقيها منك يا كمال ولَّا من مريم! هو ده وقته برضه تجيلي في المنام وتقلقني عليك!

النهارده على الساعة ٩ بالليل كانت المرضة حَمَّت مريم وحطت الدوا في الكانيولا وخرجت. قعدت جنب سريرها وفردت الورق وبدأت أترجم في كتاب الست فيرجينيا. عايزه أخلص الجزء اللي في إيدي عشان بعد بكره عندي ميعاد مع دار نشر وافقت تشوف الترجمة. يظهر اشتغلت كتير وماحسيتش بالوقت ولا دريت إن راسي وقعت ع الورق. غفلت شويه حلمت فيهم بكمال، بس الحلم كان طويل وتقيل أوي.

شفته ماشي في حواري الجمالية بالليل بعد ما الدكاكين قفلت والدنيا هُس هُس. بس السكوت كان زيادة حبتين زي ما نكون أيام الحرب. كان لابس البالطو الصوف الإنجليزي بتاعه ونضارته الدهبية المغبشة من ضباب الليل ما عرفتش تخبي نظرة الفِكر اللي في عنيه. كان ماشي سرحان، لا شايف بيوت النحاسين ولا النور اللي ورا المشربيات. كنت عايزه أقول له: إنت ليه متأخر كده؟ يالّا مد شويه وروّح البيت لأحسن تلاقي ف وشك العساكر الإنجليز. أهو ده اللي فالحين فيه، يعترضوا طريق مخاليق ربنا! ما يروحوا يحاربوا الألمان ويسيبونا في حالنا! لكن تقولي لمين الكلام ده يا أمينة؟ كمال لا كان شايفني ولا عارف إني موجودة.

خطوة ورا التانية وهو شارد كإنه بيقلب في دماغه مسألة عويصة.

بتفكر في إيه يا كمال؟ مالك يا ضنايا؟ إلا ما اتعلِّمت من أبوك روقان البال، ده كان صعبان عليه يكبر عشان العَجَز هيحرمه من فرفشة آخر الليل! وانت يا ابني حامل هم الدنيا كله على راسك كده ليه!

يا كماااال!

أخدت بالي ساعتها إنه مش بيمشي، ده الشارع هو اللي بيتحرك من تحت رجليه. اتخضيت وكنت عايزه أقول له: يا ابني ما انت

كده عمرك ما هتوصل البيت! خلي بالك.. كمال...!

تعبت من الندا وصوتي اتنبح. لما سكتْ سمعت صوت دماغه: «فيه ناس كتير بتشوف إن من الحكمة إننا نتخذ من الموت ذريعة للتفكير في الموت، لكن الحقيقة هي إننا لازم نتخذ من الموت ذريعة للتفكير في الحياة».

تعرف يا كمال لما قريت الكلام ده في «بين القصرين» أول مرة ما فهمتوش. لكن دلوقت أقدر أقول لك إن أيوه لازم يبقى الموت سبب إننا نفكر في الحياة. إزاي نعيش؟ هو السؤال الأصعب يا ابني. إزاي نستحمل وجع القلب وكسرة النفس ونفضل شايفين إن عندنا حاجة نديها للدنيا؟

زمان كنت قلقانه عليك وأنا شايفاك داخل ع الأربعين من غير ست ولا عيل. كان أبوك يقول لي: فيه ناس مش مخلوقين للجواز يا أمينة زي الواد كمال كده. أقول له: يا ساتر يارب، ليه بتقول كده يا سي السيد؟ يقول لي: ابنك يا أمينة سارح جوه دماغه عشان خايف يعيش. حتى لو اتجوز هيفضل تايه مع الفِكر. يعني مش الجواز اللي هيخليه يعيش!

أنا عمري ما هاقول لك سيب الكتب لحالها وعيش حياتك، بالذات بعد ما أنا دخلت الدنيا دي ودقت طعمها. لكن بالنسبة لي

أنا باقرا عشان أفهم أكتر وأعرف أعيش صح. إيه فايدة الأفكار يا ابني لو مش هتساعدنا نعيش كويس؟ مش انتَ برضه اللي بتقول: «كيف نخلق لأنفسنا إيمانا جديرا بالحياة؟».

أنا فكرت كتير في جملتك دي من يوم ما قريتها ومع كل اللي عدى عليَّ من ساعة ما سبتك انت واخواتك، لقيتني باشوف إن الإيمان بالحياة محتاج شجاعة، محتاج قوة قلب تخلينا نكمل السكة. إزاي نفضل ماشيين صالبين طولنا رغما عن التقل اللي الدنيا بترميه على ضهرنا طول الوقت. أختك عيشة ما قدرتش تستحمل. كنت باشوفها كل يوم بتدبل قدامي زي زرعة ناشفه ما بتشوفش نقطة ميه لحد ما بقت ضل بني آدم، وما كنتش عارفه أعمل لها حاجة. لكن انت يا كمال مع كل الكتب اللي قريتها يا ترى عرفت تلاقي الإيمان؟

دايما فاكراك وانت في أوضتك بتقرا. كنت أدخل عليك بكباية الشاي ما تحسش بيَّ كإنك في دنيا تانية، زي دلوقتِ كده.

سامعني يا كمال؟

بصيت حواليَّ لقيت إننا ما بقيناش في الجمالية. كنا في حته زي ما تكون جنب بيت السيرينت. إنتَ ماشي في ممر بين التلال اللي طالعه ونازله، والوقت بعد ما كان ليل حالك بقى مغرب. كنتْ

برضه مش شايف إن التلال هي اللي بتتحرك من تحت رجليك. بعدها قامت ريح قوية، الهوا كان بيزوم في وداني وأنا ما بقيتش قادره أسمع صوت دماغك. مجرد كلام متقطع، إيه الحق وإيه الباطل؟ هل الشك نوع من الهروب؟ الثورة.. الخيانة.. قمقم الأنانية.

الدنيا بدأت تمطر. سيل ميه نازل م السما فوق دماغي. الريح اشتدت وفضلت تزق جسمي لورا. الميه غرقتني وحسيت ببرد شديد وعضامي وجعتني. افتكرت يوم العاصفة اللي جيت أنا وكاتي بعده هنا وقلبي اتخلع على كمال، لو التلج نزل دلوقتِ ممكن يتجمد وهو ماشي كده ولا دريان بحاله! خطوتي بقت بطيئة والمسافة بيني وبينه فضلت تكبر وهو بيبعد. رجعت أنادي تاني، أنا نينة يا كمال! لكن الهوا بلع صوتي ووقعت ع الأرض بابكي.

قمت من الحلم قلبي مقبوض. دلوقت حاسَّه إني تعبانه. يمكن دي أول مرة أقولها لنفسي، أيوه إنتِ تعبانه يا أمينة ومحتاجة تبكي من غير ما تكتمي الدموع جواكي ولا حتى تعرفي سبب البكا. محتاجة تنامي في حضن حد يطبطب عليكِ ويقول لك الكلام اللي بتقوليه للناس: نامي يا أمينة والصباح رباح، بكره ربك هيسهلها.

الساعة جت أربعة ونص والفجر بدأ يشقشق في جنينة القصر.

أخدت نفس واتنين وتلاتة كإني بازيح التقل اللي بارك فوق قلبي. لقيت عصفورتين جم قدامي دلوقت وقعدوا ياكلوا من النجيلة. رفعت وشي من ع الورق وبصيت عليهم وابتسمت. قادر ربنا يزيح الكرب. طول عمرك واجع قلبي يا كمال الله يسامحك. مش كفايه عليَّ مريم! الموضوع طوّل وأسبوع بيجر أسبوع وهي غايبة عن الدنيا.

باقول لنفسي: الصبر يا أمينة. الصبر.

أنا صحيح تعبانه بس صابرة ومتأكدة إنها هترجع. أصل الموضوع لا يمكن يخلص على كده. أنا لما باقعد أبص عليها في رقدتها باشوف في وشها إن دماغها شغاله، يمكن في حته تانية، بس شغالة. ساعات أبص على جبهتها، وأحس كإنها بتعيط أو بتتخانق مع حد. قلبي بيقول لي إنها قرصة ودن.

عدّت دلوقتِ من قدامي رانيا الممرضة. كلهم اتعودوا يشوفوني في القعدة دي وما يستغربوش. صبَّحت عليَّ وسألتني: مش بردانة يا مدام أمينة؟ هزيت راسي أطمنها وأنا باضحك بيني وبين نفسي وبافكَّر أمال لو رانيا شافت البرد بتاع بيت السيرينت كانت هتعمل إيه؟ ده الواحدة مننا كانت استحالة تخطي بره عتبة البيت بسبب الجليد اللي بيحاوطنا من كل ناحية. ده شتا مصر طلع ربيع يا بنتي.

ربيع وحياة سيدنا الحسين.

٣١

شهقت مريم وانتفض جسدها برعشة قوية تلتها موجات أصغر وأصغر و....

فتحت عينيها على ظلام الحجرة ولون السماء الكحلي الغامق خارج النافذة. يبدو من النجوم المنثورة بلا عدد أن القمر في المحاق. لقد اعتادت هذا المكان، بل إنها ربما أصبحت تحبه بتقلبات طقسه المفاجئة وهؤلاء النساء اللاتي يظهرن ويختفين حسب مزاجهن وغرفتها التي تغير من لون برقوق الحيطان مع اختلاف الضوء والنافذة الطويلة التي تُدخل السماء إليها الآن. لا شك أن هذا هو أكثر أحلامها وضوحا منذ أن أتت إلى بيت السيرينت.

نظرت إلى السماء واسترجعت الحلم. كانت في عمق بحر أو محيط، حولها الماء القاتم وكذلك أسراب السمك وشجيرات كثيرة تغطي القاع كأنها غابة صغيرة. بين شجرتين لمحت فتحة كهف صخري. دققت النظر فرأت فتحات كهوف أخرى كثيرة جدّا كأنها مستعمرة لشعب لم يسمع عنه التاريخ.

أحسَّت بالخوف عندما هيئ لها أنها لمحت وجه امرأة يطل من فتحة كهف. بدأت تقاوم تيار الماء الذي كان يدفعها في اتجاه الكهف، عيناها مثبتتان على الكوة التي ظهرت منها المرأة. لكن ما خرج من الكهف كان سمكة فضية طويلة ملفوفة الجسد بزعنفتين لا تشبهان زعانف السمك المدببة القوية. كانت الزعنفتان كبيرتين

ومنقسمتين على نفسيهما كأنهما جناحا طائر دفعا بجسد السمكة يمينا ويسارا وفي دوائر. تنفست مريم بارتياح وهي تتابع ظهور أسماك أخرى، كانوا ثلاثة وبحجم الإنسان تقريبا. بدءوا في الدوران في قطر واسع حول مريم كأنهم يقدمون عرضا راقصا لها بشكل حصري باستثناء بعض كائنات البحر التي تصادف مرورها في تلك اللحظة. عندما اقتربت منها إحداها لاحظت مريم أن للسمكة وجه امرأة، بل كانت امرأة ذات جسد فضي مخضر ومن عمودها الفقري تحركت الزعنفتان كمروحتين متقابلتين.

اقتربت المرأة منها وهي تبطئ من دورانها حول نفسها. اقتربت أكثر حتى أصبحت في مواجهة مريم ونظرت في عينيها. شعرت مريم بموجة برودة تجتاح جسدها. حتى لو فكرت في الهروب فإلى أين تذهب؟ لم تكن لديها فرصة للتفكير أمام مغناطيس العينين الخضراوين الذي ثبتها في مكانها. شعرت بقشعريرة تشبه ذبذبة كهرباء مفاجئة تنبعث من بطنها وتضرب جسدها. مدت المرأة أصابعها الخضراء الزلقة ولمستها بخفة في نفس البقعة التي تنبعث منها الرعشة. انسحبت روح مريم نحو الأرض وازداد عنف دقات قلبها. شعرت بالزمن يتوقف وكل شيء من حولها يختفي، الماء والغابة والكهوف، لم يبقَ غير تلك العينيْن اللتيْن كانتا تقولان شيئا لم تفهمه مريم. حبست أنفاسها وهي تشعر بأنامل المرأة تتحرك من فوق بطنها إلى ما بين نهديها وعنقها كأنها ترسم خطّا رفيعا ينتهي عند فمها. مررت إصبعا فوق شفتيها كأنها تعيد

رسمهما وتوقفت لوهلة ثم مالت نحوها. أحست مريم بسخونة الجسد الذي التصق بها وبشفتي المرأة تلامسان أسفل رقبتها ثم تتحركان إلى خلف أذنها وتقتربان ببطء من شفتيها.

صحت مريم من الحلم على صوت شهقتها يتردد في ظلام الحجرة.

خارج النافذة كان لون السماء يتحول إلى الرمادي مع اقتراب الفجر، وفي الحجرة فاح جسدها الغارق في الخدر برائحة الطحالب وطعم الملح. أحست بحلقها جافًّا ومرًّا فمدت يدها تضيء الأباجورة لتأتي بدورق الماء الذي تضعه أمينة دوما بجانبها. قامت من رقدتها وجلست. في ركن الحجرة هيئ لها أنها رأت رجلا. كان واقفا يستند إلى الحائط وينظر نحوها.

ناجي!

هل ما زالت تحلم؟

نزلت من السرير بهدوء.

ناجي...!

همهمت بالاسم وهي تقترب.

هذا ليس حلما. إنه ناجي.. فهذه عظام كتفيه.. صدره.. جبهته السمراء العريضة وعيناه العسليتان. هو ناجي كما كان في الثالثة والثلاثين. ناجي الذي ينظر إليها الآن ويعرف أنها مريم.. ماريكا!

اقتربت وهي تنظر في عينيه حتى أصبح ما بينهما خطوة واحدة. لا تعرف مريم كيف استقرت بين ذراعيه بآهة طويلة خرجت من أعمق مكان فيها. أغمضت عينيها وتشممت رائحته، شعرت بالتفاف ذراعيه حولها وحرارة أنفاسه، دفست وجهها في رقبته وشعرت بانتفاض النبض تحت جلده. كان قلبها يدق بجنون.

ناجي!

ارتفع صدرها وانخفض مع أنفاسها القوية، شددت من إغماض عينيها، لن تفتحهما حتى لا تكتشف أنه سراب.

لا تريد أن تشعر بوطأة الزمن.

لقد غفل عنها الزمن للحظة فوجدت نفسها في الأبد.

الأبد هو الآن.

الأبد هو هذا الفراغ الهائل الذي تسبح فيه.

كانت مريم متأكدة أن تلك هي اللحظة الوحيدة في حياتها التي اختفى فيها حضور عقلها تماما فلم تتساءل إن كان هذا حلما أم حقيقة، لا يهم. فلتترك نفسها للطفو في هذا الحيز الهلامي حيث تتلاشى الحدود بين جسدها وجسده، بل بينها وبين العالم. مريم الآن مجرد ذرة هواء في شيء يشبه الجنة.

هل تعرف يا ناجي أن الجنة هي براح بلا نهاية؟ إنها فراغ طيب لا يثقله شيء وقلبي في خفة ريشة!

اختنق صدرها بالبكاء. إن ناجي هنا برائحته التي كانت قد نسيتها والتفاف ذراعيه حولها وسخونة جسده بالقرب منها. تلاصق الجسدان وامتزجا ففقدا حدودهما وبدوا ككتلة واحدة ذابت مع نور الفجر الرمادي الشاحب في الحجرة التي لا تعرف مريم مكانها. تجولت يداه بهدوء في جسدها. في سكون الحجرة لم تسمع مريم إلا صوت أنفاسهما ونقرات المطر الصباحي الخفيفة. فتحت عينيها فرأت وجهه فوقها وعينيه تنظران إليها تقولان كلاما لم تفهمه. عندما دخلها أحست أن جسدها قبل هذه اللحظة كان فارغا إلا من الهواء، لكنه الآن يمتلئ بماء أخضر غامق بطعم الملح واليود. ضمته أكثر إليها وجسدها ينتفض برعشة قوية تلتها موجات أصغر وأصغر.

اختلط ملح الدموع والعرق برائحة البحر وارتفع مزيج الرائحة في هواء بيت السيرينت.

الأبد هو الآن.

٣٢

كان أجمل يوم يوم ما شكالي

قلبي من حبك وأنا خالي.. كان أجمل يوم.. كان أجمل يوم

أفاقت مريم على همهمات أمينة لكنها أبقت عينيها مغمضتين. لم تكن تريد أن تصحو. تسرَّب إليها نور النهار وأمينة تفتح ستارة الغرفة وتعود للجلوس أمام النافذة. الضوء يأتي من ظهر أمينة فيغرق ملامحها في العتمة. دفست مريم وجهها تحت الغطاء.

الشمس قوية هذا الصباح!

متى توقف المطر؟

كان ليَّ قلب نسيته من ظلم الناس وجفيته

في عنيكي الحلوة لقيته مرتاح وارتحت معاه

كان أجمل يوم.. تيرا را

انخفض صوت الأغنية وأمينة تقترب منها، ثم تترك الغرفة مسرعة وتعود ومعها آخرون. سمعت مريم دقات كعوب على أرض الغرفة وصوت كلام.

لا يا أمينة، لا أريد أن أصحو... حرام عليكِ!

امتدت يد أمينة ترفع الغطاء عن وجهها وتستقر فوق جبهتها. لا مفر، لن تستطيع مريم مقاومة أمينة! فتحت عينيها ببطء يسمح

باستقبال النور تدريجيًا. بدت ملامح الغرفة باهتة في الضوء كأنها تطفو في كتلة من الضباب. كانت يد أمينة فوق جبينها دافئة وطيبة. أحست مريم بسخونة في عينيها. صحيح أنكِ عنيدة يا أمينة، وصحيح أنني لا أعرف أي أرض انشقَّت فخرجتِ منها، لكنني سعيدة أنك هنا، أو أنني هنا.

ابتسمت مريم.

«كلمي دكتور عبد المقصود يا زينب».

«الحمد لله. يا بركة أم العواجز».

«خلصي قياس النبض وباقي القرايات لحد ما الدكتور ييجي».

انتبهت مريم. من هي زينب؟ دكتور عبد ال...!

انقشع الضباب فجأة فتبينت مريم فريقا من الممرضات يحاوطن سريرها. أمسكت إحداهن برسغها تقيس النبض والأخرى تضبط سرعة دخول المحلول إلى الكانيولا. من ورائهن وقفت أمينة، الدموع تملأ عينيها وشفتاها ترتعشان بين ابتسامة وبكاء.

قالت الممرضة: «حمد لله على سلامتك يا دكتورة».

خرست مريم. شعرت أن أحدهم قد ألقى عليها بجردل ماء مثلج أفقد جسدها الإحساس. اقتربت منها أمينة وضمت يدها بين يديها وهي تلهج بالحمد والشكر لله. تعرف مريم أن لا فائدة ترجى من سؤال أمينة فهي إما ستتجاهله وإما تحذر مريم من الانفعال. لكنها لن تسكت، حتى لو لم تجاوبها أمينة فسوف تتوجه

بالكلام إلى الممرضة.

الممرضة!

نطقت أخيرا بالسؤال الوجودي العويص: «أنا.. فين؟».

قطعت أمينة تمتمتها وقالت: «في المستشفى يا مريم. يا ألف نهار أبيض. الحمد لله...».

«لكن.. لكننا كنا.. في البيت...!».

«أيوه كنا في بيت السيدة زينب لما...».

قاطعتها مريم: «لأ يا أمينة. بيت.. السيرينت!».

«إنتِ حلمتِ ببيت السيرينت؟».

ردت مريم بصوت مختنق ولسان ثقيل: «لأ مش حلم يا أمينة. أنا كنت هناك. وانتِ وكاتي كنتوا هناك. ركبنا أحصنة ورحنا الغابة...!».

«حلمتِ ببيت السيرينت...؟».

هزت مريم رأسها وهي تؤكد أنه لم يكن حلما، «أنا كنت هناك!».

حدقت مريم في عيني أمينة.

دخل طبيب ضخم الجثة من باب الحجرة وتوجه نحو مريم بابتسامة وقال: «احنا بقينا عال العال يا دكتورة. أخبار جسمنا إيه؟ تقدري تحركي إيدك؟».

نظرت مريم إليه وشرار الغضب يطقطق في عينيها ولم ترد.

انزلقت عينا الطبيب من فوقها إلى أوراق المتابعة، أشار للممرضة بتغيير في الأدوية، وأكد عليها ضرورة متابعته بنتائج التحاليل عند وصولها من المعمل. عندما استدار الرجل للخروج من الغرفة كانت أمينة تنقل لكاثرين الأخبار السعيدة على الموبايل. أخذت تهز رأسها وهي تقول إنها لا تريد أن تتعب مريم بالكلام في التلفونات الآن، وسوف تراها كاثرين بعد عودتها من المدرسة.

انتظرت مريم انتهاء أمينة من المكالمة. كان قد حلَّ عليها هدوء مفاجئ، تكلمت ببطء كأنها تؤكد على كل كلمة: «الأوضة اللي حيطانها بلون البرقوق يا أمينة! قبة الحَمَّام اللي فيها شبابيك ومربة التوت والنافورة والكشك الخشب عند البحيرة....!».

جلست أمينة على الكرسي المجاور لمريم ولم تنطق.

هل كانت مريم هناك؟ إنها لم تتحرك من سريرها في الدور الثاني لمستشفى قصر العيني لستة أسابيع! ربما حلمت مريم ببيت السيرينت! لكن من حكى لها عن الكشك الخشبي لمعدات الصيد ومربى التوت البري وغرفة الدور الثاني التي كانت تسكنها «فوجي»(********) اليابانية قبل أن تختفي من البيت منذ فترة؟

ربما عرفت من كاتي يا أمينة!

وكاتي هي التي ستحكي لها؟ إن مائة من العفاريت يركبونها لدى ذكر اسم البيت فقط، فما بالك بالكلام عن المربى والنافورة!

هل كانت مريم هناك؟

ما هذا الـ«هناك»؟

وهل تعيش «هناك» أمينة أخرى بينما هي «هنا»؟

تدافعت الأسئلة في دماغ أمينة فأحست بجسدها يثقل. إنها لا تريد العودة إلى دوامات الحيرة التي تأتي دوما من صوب بيت السيرينت، فأسئلتها هي لم تجد إجابات حتى الآن، وها هي مريم تنظر إليها بتوسل كأنها تطلب منها تأكيدا على شيء لا تعرفه! إنها لم تكذب على مريم. قالت لها من أول لحظة إنها لا تعرف كيف ذهبت إلى هناك ومن أتى بها هنا. تريد أن تخبر مريم أن تتركها وحالها فهي متعبة جدًّا ولا طاقة لها على جدال بلا طائل.

«أمينة..!».

أفاقت أمينة من شرودها. قامت من كرسيها ورأسها ينفض ما فيه. اقتربت من مريم ولمست كتفها كأنها تحايل طفلة: «باقول لك إيه، استهدي بالله إحنا ماصدقنا! ده انتِ قمتِ بالسلامة. وحياة سيدنا الحسين وأم هاشم دي معجزة! وأنا كنت نادره لو ربنا منّ عليكِ بالشفا لأقول لك إنت عورة ف عينك. بس الكلام ده مش وقته. دلوقت التوتر غلط عليكِ. فاهمه!».

عادت الممرضة إلى الغرفة فشعرت أمينة بالراحة لانقطاع الحديث وخرجت لترد على مكالمة.

تركت مريم ذراعها للممرضة تقيس الضغط وألقت برأسها إلى حافة السرير المعدني.

هل كنتُ طوال هذا الوقت في المستشفى؟

مرت في عقلها لقطات باهتة وبعيدة كالحلم، هنية في الثلاجة، ظاظا ترشف القهوة وتقول إن هنية «في الأغلب» توقفت عن تناول الدواء، سائق التاكسي الذي يحب عبد الوهاب! إنها المرة الأولى التي تتذكر فيها مريم تلك الليلة!

هل كان وجودها في بيت السيرينت حلما؟

لكنك كنتِ تخبرين نفسك طوال الوقت أنه حلم. ما الغريب أن تفيقي منه الآن يا مريم؟

تتالت في رأسها الصور وتداخلت بعشوائية، المرأة ذات الشعر الأسود القصير تبتسم وهي تضع الزهور الحمراء في الغرفة، خيوط المطر فوق زجاج الحمَّام وضحكات النساء في الحديقة وعزف البيانو في البهو، نفق الأشجار البرتقالي وملمس الأرض الطرية على ضفة البحيرة وشعورها أن العشب حيٌّ تحت يدها، وجه فيرجينيا وعيناها الشاردتان، حضن ناجي...

غاص جسد مريم في السرير. نظرت إلى كفيها وإلى رداء المستشفى الأخضر، لمست شفتيها فتملكتها رغبة في البكاء. إنها تفتقد ناجي الآن كأنه مات بالأمس! لو أنه لا يزال معها لحكت له عن شعورها بالتوهة، وكيف أنها قد نسيت أسئلتها المعلقة عن حكاية كاثرين وأمينة لأنها أصبحت هي نفسها سؤالا.

عادت أمينة وفي يدها صينية صغيرة: «كباية شاي معتبر بالنعناع،

زرع إيديَّ وحياة عينيَّ. أنا سألت الدكتور قال ممكن تشربي نقطتين».

نظرت مريم إلى أمينة. كيف تحكي لها وهي محتارة مثلها؟

قرَّبت أمينة من فمها ملعقة صغيرة فيها رشفة شاي فأدارت مريم وجهها. لمحت كتابًا مفتوحا بجانب السرير. النسخة الإنجليزية من رواية «الساعات»(********)! لم تقرأها مريم لكنها شاهدت الفيلم الذي لعبت فيه نيكول كيدمان دور فيرجينيا وولف. ارتسم خط كاثرين على الهوامش في خربشات صغيرة غير مفهومة. هل كانت كاثرين تقرأ لها؟ فيرجينيا وول...!

في لمحة عاد إليها مشهد الغابة واستغرابها بسبب وجود فيرجينيا وولف في بيت لا تسكنه إلا نساء الروايات. لم يخطر ببالها أن فيرجينيا قد أصبحت أيضا شخصية في رواية!

وكيف ذهبتِ أنتِ يا مريم إلى هذا المكان، وأنتِ لستِ بشخصية في رواية؟

انتفضت جالسة.

نظرت أمينة إليها في فزع: «أعوذ بالله... مالك يا مريم كفى الله الشر؟!».

التقت عيناها بعيني أمينة، قالت: « إزاي أنا كنت هناك وأنا مش بطلة في رواية؟!».

سكتت أمينة فلم تسمع مريم إلا صدى سؤالها يتردد في فراغ

(********) «فوجيتسوبو» هي إحدى البطلات في رواية «حكاية جنيچي» للكاتب الياباني ماراساكو شيكيبو، والتي نُشرت قبل عام ١٠٢١.

(********) صدرت رواية «الساعات» للكاتب الأمريكي مايكل كاننجهام عام ١٩٩٨. تتقاطع في الرواية حيوات نساء ثلاث من أزمنة مختلفة؛ إحداهن هي الكاتبة الإنجليزية فيرجينيا وولف.

٣٣

ضرب يوسف رقم كاثرين ليخبرها أنه في شارع بورسعيد الآن وأمامه دقائق ويصل إلى بيتها. قالت إنه تأخر عن موعده بنصف ساعة وإن أمينة تتوقع وصولهما المستشفى في العاشرة صباحا. أكد لها أنهما سيصلان في الموعد، فاليوم سبت وشوارع القاهرة في الصباح طيبة وبنت ناس. أوقف السيارة التي استعارها من أحد أصدقائه تحت الشجرة التي تتوسط الساحة الصغيرة أمام القهوة، ورأى كاثرين تخرج من باب البيت وهي تمسك برغيف خبز أكلت منه بضع قضمات.

استقرت كاثرين في المقعد المجاور له وهي تلقي «صباح الخير» وفمها يلوك الخبز. مدت يدها بالرغيف إليه، أخذ قطعة وهو يبتسم. قاد السيارة وهو يفكر في طفولة كاثرين التي تدهشه أحيانا، أو ربما هذا المزيج من الطفولة وعكسها. لا يعرف يوسف كيف يصف هذا الجزء في كاثرين الذي لا يشي بسنوات قليلة بعد العشرين، والذي رآه في لمحات خاطفة في اليوم الذي قضياه في الإسكندرية. تذكر عينيْها وهما تنظران إلى تمثال امرأة المدينة الغارقة. لو كان يصدق في مسألة الحيوات السابقة لقال إنها قد عاشت أكثر من حياة.

عند دخوله من باب مستشفى قصر العيني كانت كاثرين قد حكت له نصف دستة من الحكايات بدأتها بالخناقة بين ولدين في

الفصل يحبان نفس البنت وانتقلت إلى القصيدة التي كتبتها أميرة وعلقتها كاثرين في لوحة الفنون مرورا بعدد حصص التدريس الذي زاد على جدولها ما جعلها تفكر في الاشتباك مع مسز هنرك، وانتهت بحكاية أمينة عن اللحظة التي رأت فيها مريم تشد الملاءة فوق وجهها حتى لا تستيقظ، وكيف جرت أمينة تنادي على الممرضات والأطباء. ضحكت كاثرين وقالت إن هذه إحدى معجزات أمينة التي تحدث بشكل دوري. لم تسنح له فرصة السؤال عمّا تقصده كاثرين بـ«المعجزات» لأنهما كانا قد وصلا إلى باب المبنى واندفعت كاثرين إلى الداخل. بعد نصف ساعة لمح أمينة تخرج من الباب وبجانبها مريم تجلس على كرسي متحرك تدفعه إحدى الممرضات.

إنها المرة الأولى التي يقابل فيها مريم. كان يوسف قد رآها في إحدى المرَّات التي صاحب فيها كاثرين إلى المستشفى، لكنها كانت في الغيبوبة. نزل من السيارة وفتح الباب الخلفي ومريم تقترب. كان وجهها جامدا لا يشي بأي تعبير. لولا يدها اليمنى التي تشبثت بذراع المقعد لظنها تمثالا.

كانت مريم في غيبوبة يا يوسف، هل كنت تتوقع أن تخرج من باب المستشفى وهي ترقص باليه مثلا!

حاول يوسف أن يخمِّن إحساس شخص خرج لتوه من غيبوبة. هل تدرك مريم المكان والزمن، وهل تعرف هؤلاء الناس الذين يحاوطونها الآن؟

توقف الكرسي بجانب باب السيارة ومدَّ يوسف يده كي يساعدها على الدخول إلى الكنبة، أبعدت مريم ذراعها بحركة صغيرة فتراجع. تكفلت كاثرين والممرضة بالمهمة، بينما لسان أمينة يلهج بالشكر والدعاء لله وللمستشفى وللممرضة: «كتر خيرك يا رانيا يا بنتي. سلمي على عيالك».

تحركت السيارة خارج باب قصر العيني ثم يسارا في اتجاه حي السيدة زينب. قالت كاثرين إن الشمس جميلة هذا الصباح ومالت بوجهها خارج شباك السيارة. ابتسمت أمينة وهي تنظر إلى مريم وتؤكد أن المشوار لن يأخذ وقتا طويلا وأن يوسف يقود على مهل حتى لا تتعبها رجرجة السيارة على الأسفلت وأن بيت السيدة زينب في انتظار وصولها. نظر يوسف في مرآة السيارة الأمامية فرأى عيني مريم تنظران إلى الفراغ أمامها، لم يبدُ عليها أنها تسمع شيئا مما تقوله أمينة. أحس بثقل يحطّ في قلبه.

عندما دخلت السيارة إلى حارة البرنس عزيز خرج إليهم صاحب القهوة مبتسما ومهنئا بسلامة الدكتورة واستقبلتهم على باب البيت أم محمود وأم حنان. عند نزول مريم من السيارة تلقفتها المرأتان وقادتا خطواتها إلى المدخل وسط وابل من الترحاب والتهاني. وقفت مريم للحظة أمام السلم، مدت قدما وتبعتها بالقدم الأخرى ثم توقفت. قالت أم محمود إن الصعود سيكون شاقّا عليها ومن الممكن أن يأتي محمود بكرسي كي يحملوها. هزت مريم رأسها بالرفض وهي تخطو نحو السلمة الثانية. لاحظ يوسف

تقلص جبهتها التي تفصدت بالعرق وعينيها اللتين كشفتا عن غضب مكتوم. يبدو أن مريم غير مرحبة بكل هذا القدر من الشفقة. اقتربت منها أمينة وهي تؤكد أنها مسألة أيام وسوف تستعيد صحتها وتصبح «زي الفل». ما تحتاجه الآن هو الراحة كما أمر الأطباء وأكل بيتي معتبر بدلا من أكل المستشفيات الماسخ. أشارت أمينة بعينيها إلى أم محمود التي نادت على ابنها كي يأتي بأحد كراسي السفرة.

جلست مريم على الكرسي بعد تردد وربما أيضا بضغطة خفيفة من يد أمينة فوق كتفها. لمح يوسف لمعة في عيني مريم كأنها دموع فأدار وجهه إلى الأمام وهو يحمل الكرسي من ناحية ومحمود من الناحية الأخرى وأم محمود تسند ظهره بيديها. تحركت القافلة لأعلى ببطء ويوسف يركز عينيه على درجات السلم المتآكلة. أحس بجسد مريم الكبير ينكمش على نفسه في الكرسي فيبدو أصغر. سال العرق من جبينه وتسارعت دقات قلبه إثر جهد غير معتاد، وانتابته فجأة رغبة في البكاء لم يعرف لها سببا.

في خياله رأى يوسف صورة. كان هو الآخر محمولا فوق كرسي. لم يرَ الأيادي التي ترفعه، لكنه أحس بحركة الكرسي إلى الأمام وسط زحام كبير، حشد هائل من البشر يتحرك في اتجاهات مختلفة ويوسف يشق طريقه بينهم بصعوبة، جسده مستسلم وذراعاه تتدليان إلى الجانبين فتخبطان مؤخرات بعض الرؤوس. حاول أن يلتفت ليعرف من هؤلاء الذين يسيرون به، لكن الحركة إلى الأمام

تسارعت عندما بدءوا في الركض، الكرسي يرتطم بالأجساد، حركة الحشد ترتبك وتتعالى همهمات غضب. تملَّك الفزع منه، إنه يريد أن يقفز من فوق الكرسي أو حتى يصرخ فيهم بالتوقف. عندما حاول أن يتكلم كان فمه متيبسا، لم يخرج منه أي صوت إلا ربما حشرجة مكتومة هو فقط من سمعها.

«تسلم يا ابني. ادخل اغسل وشك وخد نَفَسك».

انتبه يوسف على صوت أمينة ويدها التي امتدت لتسند ظهر مريم وتسير بها إلى داخل البيت. بدت له الدقائق التي استغرقتها رحلة صعود الطابقين زمنا طويلا. وقف يلتقط أنفاسه ويدفع من رأسه منظره وهو فوق الكرسي. قادته كاثرين إلى الحمَّام وذهبت لإحضار دورق عصير الليمون الذي حضَّرته أمينة في الصباح ووضعته في الثلاجة.

أغلق باب الحمّام وراءه وأسند جسده إلى الحائط. أحس بأحباله الصوتية ملتهبة ومجروحة كأنه كان يصرخ. ما هذه الصورة التي رآها، بل عاشها كما لو كانت كابوسا طويلا؟ ولماذا تؤلمه هكذا؟ شعر بثقل قلبه يتحول إلى نغزات وجع حادة وعادت إليه الرغبة في البكاء. اتجه إلى الحوض وفتح الماء البارد. ملأ كفيه وأغرق وجهه عدة مرات. في رأسه تداخلت عينا مريم اللتان تنظران إلى الفراغ مع صورته وهو عاجز ومحمول فوق الكرسي المجنون.

ما معنى هذا الكابوس الذي رآه وهو مفتوح العينين؟

وهل هذا وقت أسئلة يا يوسف؟ ألم تترك وراءك كل هذا الهراء الوجودي منذ سنوات؟

منذ متى؟

ربما منذ أن قال لنفسه إنه شخص عادي بلا شيء مميز، شخص لا يستحق الاهتمام ومن الأجدى أن ينشغل بالعالم!

وما الذي فعلته للعالم يا يوسف؟

زفر بزهق. لا داعي للتوبيخ واللطم على الخدود الآن. نعم، أعرف أنني قد وصلت إلى السادسة بعد الزفت الثلاثين ولم أفعل شيئا ذا قيمة. لم أعد أصدق أصلا أن الفن بإمكانه أن يغير شيئا في هذا المستنقع، كما أن العالم ليس في انتظار مجهوداتي الجبارة وإبداعات قريحتي الفنية حتى يتغير. لا العالم ينتظر من يوسف شيئا ولا هو يمتلك أي قريحة، لا فنية ولا غيره. وما هو هذا العالم الذي انشغل به وحلم بتغييره؟ إنه مجرد كتلة صماء بلا ملامح!

رفع يوسف وجهه فرأى صورته في المرآة. نظر في عينيه كأنما ينظر إلى غريب. أنا أيضا كتلة صماء. ربما سأعيش وأموت مدرِّسا على المعاش لم يحب قط مهنة التدريس، أعزب بالطبع، فتاريخه العاطفي حتى هذه اللحظة حافل بلحظات التزويغ من العلاقات لو أنه اشتم فيها رائحة الجد، والجد في قاموسه يعني التورط العاطفي، أن يحب امرأة فينزلق معها إلى فخ الرتابة والمسئوليات السخيفة وموت المشاعر. لا يا عم يفتح الله، أن يكون يوسف شخصا تافها يعيش

حياة تافهة لهو شيء أرحم بكثير من هذا الكابوس.

خرج يوسف من الحمَّام واتجه نحو باب البيت، لكن كاثرين استوقفته بكوب عصير الليمون. قالت: «أمينة بتقول لك هتتغدى معانا».

اعتذر يوسف لأن عليه أن يعيد السيارة التي استلفها إلى صاحبها. كان يختلق حجة كي يهرب فورا من هنا، كأن خروجه من بيت كاثرين يعني أيضا تخلصه من الأفكار التي اصطخبت في رأسه دون أي داع. سألته كاثرين إن كان بإمكانه أن يبقى قليلا فهي تود الحديث معهً. نظر إليها وأدرك أنه قد نسيَ وجودها منذ أن رأى مريم ودخل بعدها إلى دوامات رأسه.

جلست كاثرين على الكنبة. نظرت إليه وقالت: «في اللحظة اللي شفت مريم بتموت اكتشفت إني شخص أناني، إن عمري ما عرفتها بشكل حقيقي كأنها ظهرت في حياتي عشان تحقق لي حاجات، وأنا عمري ما حاولت أشوفها بجد!».

سكت يوسف. ربما تلك هي المرة الأولى التي تشاركه فيها كاثرين شيئا خاصّا وحميما. لماذا تقول له هذا الكلام الآن بينما هو غارق في ظلمات دماغه؟

«مالك يا يوسف؟».

هذا هو أكثر سؤال يكرهه يوسف، فهو إما سيجيب عليه بإيماءة رأس على صاحب السؤال أن يفسرها كما يشاء وإما يضطر أن يجد

إجابة حقيقية، إجابة سوف تعبث بكل الأشياء التي رتبها بعناية ثم وضعها جانبا ونسيها. وبالتأكيد لم يكن على استعداد أن يحكي لكاثرين عن الصورة التي استعمرت رأسه منذ قليل. الحل إذن هو المراوغة. قال: «ماما...! قلقان عليها».

«فيه إيه؟».

يا لكاثرين وأسئلتها التي لا تنتهي!

سكت لحظات ثم قال: «ماما اتغيرت في الفترة الأخيرة. فقدت الاهتمام بحاجات كتير. بقت بتقعد في البيت طول الوقت لوحدها، مش عايزه تشوف ناس».

يوم السبت الماضي، أصر يوسف على أن يأخذها إلى الطبيب من أجل فحص شامل. في الحقيقة كان يريد أن يتأكد أن ليست لديها بدايات ألزهايمر. في المستشفى، في وقت راحة قصيرة بين تحليل وأشعة، أجلسته بجانب سريرها، نظرت إليه بابتسامة وقالت إنها شبعت من الحياة. حاول أن تفهم يا يوسف. لقد أخذتُ أكثر مما أستحق، حب وأولاد وشغل، نشكر ربنا. لم تكن الحياة سهلة ولم تكن سيئة. كانت ببساطة حياة. الآن أشعر بالامتلاء والشبع وأنتظر المحطة التالية.

في طريق العودة إلى البيت، عرض عليها يوسف أن يتمشيا على البحر. شبكت ذراعها في ذراعه ومشت في صمت. رفع عينيه إلى كاثرين وقال: «حسيت في اللحظة دي إني دخلت العالم بتاعها، فيه

صوت البحر وضحكة بابا وصورنا ع الشط زمان. كنت معاها وهي رايحه تقابل الموت. حسيت.. إن جزء مني هيموت معاها».

قامت كاثرين واقتربت منه. شعر يوسف برأسه ثقيلا وساخنا. لا يعرف كيف قال ما قاله الآن! لقد كان يراوغ كاثرين حتى لا يتكلم عن إحساسه بالتفاهة والخواء، فوجد نفسه يفتح بابا لم يكن يدري ما وراءه. عندما لمست كاثرين كتفه شعر بموجة ألم تجتاح جسده وبالكلمات تتدافع من فمه دون أن يعطيها إذنا بالخروج.

«لما هيكون عندي ٨٠ سنة، ده لو عشتهم، يا ترى هاحس إني شبعان من الحياة؟ طب أمي وأنا عارف حياتها كانت عامله إزاي. كل حاجة بتعملها كان لها معنى حتى لو مجرد إننا نتعشى كلنا مع بعض ونتفرج على فيلم أو مسرحية. لكن أنا؟ إذا كنت حاسس دلوقتِ...!».

هرب يوسف من عيني كاثرين ودفع جسده للقيام كأنه يحرك طنّا من الحديد. تحرك نحو الباب وهو يقول بصوت خافت كأنما يحدث نفسه: «نفسي أكتب عن الشبع من الحياة...!».

في طريق العودة إلى بيته تذكر يوسف ما قاله لكاثرين وهما في الإسكندرية. قال إنه يشبهها، فكلاهما بلورة مغبشة الزجاج لا تسمح إلا برؤية تهويمات. لكنه اليوم رأى لمحة مما بداخله على غير توقع. لم يكن متأكدا من شعوره الآن باستثناء رغبته أن يركض، يركض بأقصى سرعة بعيدا عن نفسه، نحو العتمة المريحة التي ألفها

وألفته.

٣٤

فتحت كاثرين باب الشقة وألقت بحقيبة أوراق المدرسة إلى الأرض واتجهت إلى غرفة مريم. كانت «دعاء» إخصائية العلاج الطبيعي ترفع ساق مريم وتثني الركبة وتحركها في دوائر صغيرة. نظرت مريم نحو كاثرين وقالت إن الجلسة أوشكت على الانتهاء وسوف تلحق بها في الصالة بعد دقائق. وعدتها كاثرين أن تغير ملابسها سريعا وتعد لهما فنجانين من القهوة ثم تصبح كلها آذانا صاغية. قالت: «حلوة «صاغية» دي يا مريم؟ اتعلمتها من يوسف»، واتجهت إلى غرفتها وهي تضحك. كانت مريم قد بعثت لكاثرين برسالة على الموبايل في الصباح تخبرها أنها بحاجة أن تتكلم معها. لقد مرَّ عمر طويل ومريم لم تطلب شيئا من أحد!

انتهت جلسة العلاج فقامت مريم لتحضير القهوة بنفسها. لو كانت أمينة هنا ما سمحت لها بشرب القهوة ولا بدخول المطبخ. على مدار عشرة أيام منذ أن تركت المستشفى ومريم تشرح لأمينة أن من الضروري أن تتحرك وإلا لماذا تخضع للعلاج الطبيعي يوما بعد يوم! تكرر عليها: «أنا دكتورة.. دكتوووورة يا أمينة والله». ابتسمت وهي تغلق نافذة المطبخ الصغيرة لتكتم صوت أطفال الحارة.

لاحظت مريم أن الابتسامة على وجهها تتسع، لم تعرف إن كان السبب هو تحسن صحتها في الأيام الماضية، أم لأنها مستمتعة

بالتواجد في المطبخ، وهو شعور نسيته من زمان. على الرغم من صغر حجمه مقارنة بمطبخ بيت الروضة فإن مريمَ أحست بالسعادة وهي تتأمل الأرفف المنظمة والأكواب المقلوبة فوق فوطة بيضاء نظيفة وصندوق القمامة المغلق بإحكام؛ منعا لتسلل أي حشرة مارقة إلى الداخل. وضعت الكنكة فوق النار وهي تؤكد لنفسها أنها لن تقفش متلبسة بالجُرم؛ لأن أمينة الآن عند أم محمود تتباحثان في خطة الطبخ من البيت وتوصيل الطعام حتى الباب. قالت أمينة لجارتها: «أهو يبقى مشروعك وهيدخل لك فلوس أكتر من مرتب المشغل». استلهمت أمينة الفكرة من مطبخ «خير بلدنا» مع إضافة بعض التعديلات. أكدت لأم محمود أن السوق بحاجة إلى مرونة لا تتمتع بها الجمعية، وأن عليها أن تطبخ أطباقا لا يقدمها الآخرون، «ده غير إنك هتستعملي سمن بلدي وبهارات محترمة». تابعت مريم تطور الفكرة على مدار الأسبوع الماضي وسمعت من أمينة أخبار الاجتماع الأول المخصص للتفكير في كيفية الوصول إلى زبائن.

تناولت كاثرين صينية القهوة من مريم وسبقتها إلى الصالة وهي تقول إنها سمعت من أمينة عن حكاية لمريم في بيت السيرينت وإنها لم تفهم شيئا.

ابتسمت مريم، كيف لأمينة أن تفهم أي شيء إن كانت مريم نفسها لا تفهم.

قالت مريم: «النهارده الصبح افتكرت لما خرجت من باب البيت

الخشب اللي عليه مقبض نحاس على شكل هلال شايله بنتين بجناحات. لفيت حوالين النافورة، الشمس كانت في ضهري وأنا ماشيه ناحية الجدار الشرقي. شفت النباتات سارحه فوق الصخر من تحت لحد آخر دور في البيت، الشبابيك بس هي اللي باينه. بيتهيأ لي لو حد شاف البيت من بعيد هيفتكر إنه جزء من الجبل!».

قالت كاثرين إن هذا مجرد تل، فارتفاع ثلثمائة متر عن الأرض لا يعتبر جبلا، وإن تلك كانت أيضا بقعتها المفضلة وقت الصيف، هذا إن كان من الممكن استخدام صيغة التفضيل في الحديث عن ذاك المكان! كانت تسير حافية القدمين فوق العشب المبتلّ وقت الغروب، تجلس عند الحافة وتدلي ساقيها في الفراغ وهي تشرب النبيذ الذي صنعته النساء من عنب العام الماضي. لقد أمضت أياما هناك تنصت إلى «لوسي مانيت»(********) تحكي عن حبيبها الذي كادت مقصلة الثورة الفرنسية أن تطيح برأسه لولا «سيدني كارتن» الذي وضع نفسه مكانه وانطلت الخدعة على الثوار المتعطشين لدماء النبلاء.

ابتسمت كاثرين، كم هو ممتع أن تفكّر في بيت السيرينت على أنه ذكرى! نظرت إلى مريم تنتظر المزيد.

قالت مريم: «كاثي.. مش عارفه أبدأ منين...!».

هل تبدأ من لحظة إفاقتها في حجرة الدور الثاني؟ هل ستتذكر لاحقا بداية أخرى؟ لقد فتحت عينيها بصعوبة وشاهدت امرأة

تجلس أمام النافذة. الآن تعرف مريم أن هذه المرأة كانت فيرجينيا وولف، أو هكذا تعتقد! نادت تلك المرأة عليكِ يا كاتي وعلى أمينة وجاءت نساء أخريات و....

قاطعتها كاثرين: «أنا كنت هناك؟!».

«يوم ما فُقت كنتِ جنبي بتتكلمي كتير وأنا ماكنتش مركزة».

ندَّت عن كاثرين ضحكة صغيرة متوترة: «أنا كنت موجودة عادي، مش بحاول أهرب!».

«لما رحنا الغابة إنتِ ربطتِ الأحصنة واختفيتِ، ما اعرفش رحتِ فين. حصانك لونه بني وعنده خصلة شعر أبيض ناعم في وسط جبينه».

نظرت كاثرين في عيني مريم فرأت صورة «براون». بدت مريم محتارة كأنما تحاول الإمساك بالجملة التالية: «كنت محتاجة أتكلم معاكِ يا كاثي، أنا عارفه إن ماعندكيش إجابات. أمينة مش عايزه تسمع، بتتكلم عن صحتى والانفعال، بس أنا عارفه إنها متلخبطة. لكن أنا محتاجة أحكي.. لما أحكي هاصدق».

«ليه عايزه تصدقي؟».

سكتت مريم. قامت كاثرين من كرسيها وجلست جانبها في صمت. رفعت مريم عينيها إليها وقالت بصوت خافت: «أنا.. أنا شفت ناجي!».

تعرف مريم أنها لم تتكلم عن ناجي قط إلا مؤخرا في حمَّام بيت

السيرينت عندما حكت لأمينة. لم يتردد اسمه على لسانها منذ ١٩٨٦!

قالت: «أنا شفت الراجل الوحيد اللي حبيته».

ابتسمت وأكملت: «إزاي راجل وصل للبيت هناك؟ ما تسألينيش!».

«وحصل إيه يا مريم؟».

«ما كنتش عايزه أنام، خايفه لو غمضت عيني يختفي».

نظرت كاثرين إليها.

احتبس الكلام في حلق مريم وأصبح وجهها جامدا كالتمثال. نظرت إلى الفراغ وقالت: «من ساعة ما خرجت من المستشفى مش بيفارقني بيت السيرينت والحاجات اللي فكرت فيها أو قلتها هناك. أنا قضيت عمر باحاول أحمي نفسي من الألم، ماكنتش أعرف إني عطلت إحساسي بكل حاجة تانية!».

تعرفُ مريم جيدا أن المعالج النفسي يعاني ويتخبط ويمرض مثل كل الناس، لكن أن يصبح حطاما فذلك أمر مرعب! كم من الأخطاء ارتكبتِ يا مريم؟ كم من الناس أتلفتِ حياتهم؟ كم روشتة مكتظة بالأدوية كتبتِها بينما المريض لم يكن بحاجة إلا أن تنصتي إليه وتساعديه على أن ينصت إلى نفسه!

سكتت مريم وهي تجزُّ على أسنانها، رفعت عينيها إلى كاثرين وقالت: «لمَّا مريضة في المستشفى انتحرت أنا حسيت بالذنب، قلت

لو كنت لسه في المستشفى يمكن..! لكن أنا جريمتي أكبر بكتير. أنا ما كنتش مهتمة!».

لم تعرف كاثرين بماذا ترد. كان الألم أكبر من قدرتها على التصدي له. من أين لكِ يا أمينة بتلك القدرة العجيبة على امتصاص ألم الآخرين، بتلك البساطة، بكل هذا اليقين! فكرت كاثرين أن يد أمينة التي لم تمل من تبديل كمادات المياه فوق رأسها هي الشيء الذي طالما عاد بها من نوبات الحمى. الآن تجلس مريم بجانبها مثقلة بأطنان من التعاسة وكاثرين تشعر بالعجز!

التفتت مريم إليها: «وانتِ في المرتفعات، هل كنتِ حاسَّه إنك محبوسة في حكاية حد بيشكلها؟ هل كنتِ حرة في اختياراتك؟».

هذا سؤال صعب وكاثرين ليست لديها إجابة. في طفولتها كانت حرة كحيوان بري، صحيح أنها هي التي خانت تلك الحرية عندما ظنت أن بإمكانها أن تحصل على كل شيء، حب هيثكليف الذي ظل يصاحبها مثل صخور الأرض التي لا تُرى لكنها ثابتة لا تتحول، وحب إدجار الغني الوسيم وتدليله لها. لقد صنعت سجنها بنفسها، ثم قررت معاقبة الاثنين: «هاكسر قلوبهم بإني أكسر قلبي». لكنها تتساءل الآن: هل ما فعلته كان بدافع حماقة وطمع فتاة في السادسة عشرة، أم بسبب تلك الأفكار التي تسربت إلى دماغها دون أن تدري وجعلتها تتطلع إلى اسم عائلة كبيرة ومكانتها؟

قاطعهما صوت مفتاح أمينة يدور في الباب. أدركت مريم أنها لن تتمكن من إخفاء فنجان القهوة فكادت تضحك. أما كاثرين فقد رفعت الفناجين واتجهت إلى المطبخ ساهمة.

لم تكن تفكر في هيثكليف أو إدجار وإنما فيما قالته مريم. لقد رأتها في بيت السيرينت!

كاثرين لا تريد العودة إلى هناك!

تذكرت ذلك اليوم المشئوم. كان الطقس سيئا. الشمس لم تظهر منذ شهور وهو ما يعني أن يصبح بيت السيرينت سجنا فخما وكئيبًا يشبه قلعة السيدة شالوت التي لا يزورها أحد ولا هي تجرؤ على الخطو خارج بواباتها العتيدة، وأن يتعكر مزاج كاثرين فتصبح عصبية لا تطيق أحدا من نساء البيت ولا حتى نفسها. تناولت إفطارها مع أمينة ولوسي وعزيزة دون أن تنطق بكلمة. انسحبت بعدها إلى البهو بالقرب من المدفأة وفي يدها كتاب لا تذكر اسمه الآن. اتجهت إلى «الكرسي المحرَّم»، فهذا هو اللقب الذي منحته كاثرين للمقعد الذي خصصته «جروتش» زوجة ماكبث لنفسها. أصبح معروفا لكل نساء البيت أنها تستعمر هذا المقعد الضخم ذا القطيفة الحمراء والويل كل الويل لأي منهن لو أنها قُفشت هنا. ابتسمت كاثرين ساخرة وهي تجلس على الكرسي وتقلب صفحات الكتاب بزهق. بعد فترة رأت «جروتش» تتبختر إلى البهو بباروكتها العالية وعينيها المتحجرتين على تعبير قاسٍ لا يزول.

أغلقت كاثرين الكتاب وانسحبت إلى المطبخ. كانت عزيزة تجلس على الأرض وبين ساقيها طبق كبير من الفخار تخبط فيه كتل الزبد بيدها خبطات قوية ورتيبة. التفتت كاثرين فرأت السيدة ماكبث تقف على باب المطبخ تنظر إليها بحدة. لم تصدق كاثرين أن المرأة التي لا تخطو إلى المطبخ أبدا؛ كونها بالطبع ملكة متوجة على عرش الأوهام، قد تبعتها. كادت تضحك لولا إحساسها بالنظرة المسلَّطة عليها كسيف لمع نصله في النور الرمادي للمطبخ. أحست بالخطر لكنها تجاهلتها وهي تجلس على أحد الكراسي المحيطة بالمنضدة الكبيرة حيث تناثرت كومة أوراق السيدة وولف وبعض الكتب.

اليوم سيئ بما يكفي ولا تنقصه تُرَّهات المرأة المخبولة. في الخارج كانت السماء تلملم كل مطر العالم وتدلقه فوق الأرض وأشجار الحديقة، كما أن كاثرين لم تنم منذ أيام بسبب الكوابيس التي تنتظر حتى الغفوات القصيرة كي تنهش دماغها. في تلك اللحظة بدا لها العالم كمستنقع كبير آسن ذي رائحة عطنة.

«نظرتك لا تعجبني أبدا هذا الصباح».

قالتها «جروتش» بصوت متحشرج.

نظرت إليها كاثرين مستفهمة.

أكملت المرأة: «فيها تحدٍّ!».

أوضحت كاثرين بنبرة هادئة أنها لم تنظر إليها أصلا. لقد تركت لها البهو وكرسي العرش كي تهنأ بهما.

«أتسخرين مني؟ أي عرشٍ هذا الذي تتحدثين عنه؟».

قالت كاثرين: «يمكن تكوني فاكره إن ده الكرسي اللي قتلتِ الملك «دنكان» عشانه!».

احمر وجه «جروتش» وطقطق الشرر في عينيها وهي تدخل من باب المطبخ وتقترب من المنضدة وتبخ فحيحها في وجه كاثرين: «أنتِ وقحة».

ضحكت كاثرين: «هذا أمر معروف من زمان».

ثم اختفت ضحكتها وهي تنظر في عيني زوجة ماكبث وتقول: «وأنتِ قاتلة».

لمعت عينا المرأة وانتفضت عروق رقبتها الزرقاء وهي تقول: «لم أقتل. ماكبث هو من قتل».

قالت كاثرين ساخرة: «فعلا! وليه بتغسلي إيدك من بقع الدم؟ ليه بتقولي: «إن كل عطور العرب لن تُطيّب رائحة هذه اليد الصغيرة!»».

هنا كانت عزيزة قد قامت من جلستها، يداها تفوحان برائحة الزبد ووجهها مرتعب من منظر «جروتش». حاولت أن تتمتم بكلمات علَّها تهدئ من المرأة التي بدأت تحوم حول المنضدة وهي تصدر حشرجات مخيفة، لكن صوتها احتبس. قامت كاثرين من كرسيها واتجهت نحو الباب.

في لمحة كانت جروتش قد اختطفت حلة نحاسية كبيرة من ورائها

وقذفت بها كاثرين. خبطت الحلة كاثرين في صدرها فوقعت على الأرض تتأوه. جرت عزيزة نحوها وقبل أن تصل إليها كانت كاثرين قد انتصبت واقفة كاللبؤة المطعونة. أمسكت بنفس الحلة وقذفت بها المرأة، لكنها تفادتها وهي تستدير وتخطف سكينا من فوق الرخام المجاور للحوض، ثم جرت نحو كاثرين.

خرج صوت عزيزة أخيرا بصرخة حادة وهي تلطم على رأسها: «يا لهوي.. الحقونا يا ناس.. حرام عليكِ يا ست يا مفترية!».

لم تلتفت «جروتش» إليها، لم تكن ترى إلا كاثرين وهي تدور في أركان المطبخ كالفأر المذعور. أتت صرخة عزيزة بنصف دستة من نساء البيت، لكن ولا واحدة منهن جرؤت على الدخول إلى مكان الموقعة التي تطايرت في سمائها الحلل والأطباق وبعض السكاكين التي صوبتها السيدة ماكبث نحو كاثرين فأخطأتها واستقرت في الحيطان.

«كاثي مالك؟».

انتبهت كاثرين على يد مريم تستقر فوق جبهتها. كان رأسها ملتهبًا وأنفاسها تتلاحق والندبة الكبيرة تحت كتفها؛ حيث استقرت سكين «جروتش»، تنبض بالألم. رفعت رأسها تنظر إلى مريم كما لو كانت تتأكد أنها موجودة بالفعل أمامها. زفرت بقوة وقامت وهي تسب وتلعن في سرّها بيت السيرينت.

كاثرين لا تريد العودة إلى هناك!

(********) بطلة رواية «حكاية مدينتيْن» للكاتب الإنجليزي شارلز ديكنز، نُشرت عام ١٨٥٩.

٣٥

في السادسة من مساء يوم الخميس الموافق الخامس والعشرين من نوفمبر، بدأت الوفود الدبلوماسية في التوافد إلى بيت السيدة زينب للتهنئة بشفاء الدكتورة. اضطرت أمينة إلى إصدار فرمان بموعد محدد للزيارة وإلا سيتحول البيت إلى مزار يومي وحالة مريم لا تسمح. كان أكبر الوفود هو من سكان بيت السيدة. ونظرا إلى ضخامة العدد، تولت أم محمود منصب منسقة الوفد. وضعت البنود الفرعية للفرمان وأشرفت على تنفيذها: من الممكن اصطحاب العيال، ولكن عليهم أن يسلموا «على الواقف» ويمشوا؛ منعا للدوشة والقرف، أما النساء فعليهن بزيارات قصيرة، وألا يزيد عدد الحضور على ثلاثة مجتمعين.

تتابع دخول وخروج المجموعات الصغيرة، وكانت تلك هي الزيارة الأولى لبعض الجيران، من بينهم مثلا زوجة الحاج مصطفى صاحب القهوة التي دخلت وفي يدها صينية بسبوسة بالبندق وحمدا كثيرا لله على سلامة الدكتورة مريم التي هي «من معزة الست أمينة والآنسة الصغيرة». وترددت في صالة البيت عبارات من عينة «بسم الله ما شاء الله يا دكتورة». «ألف حمد وشكر على سلامتك». «والله كان قلبنا مخطوفا عليكِ». «أنا دعيت لك في مقام السيدة من يومين».

جلست مريم على الكنبة البلدي وحول كتفيها الشال الصوف

الذي اشترته لها أمينة مؤخرا. بعد نصف ساعة من بداية الليلة توقفت مريم عن محاولة تذكر أسماء الجيران وعلاقات النسب ومن ابن من. كادت تضحك. من كل هؤلاء! وكيف استطاعت أمينة في أسابيع أن تشكل هذه القبيلة الضخمة!

كما جاء يوسف أيضا وحظيَ باستثناء من الفرمان. تلك هي المرة الثانية التي تراه مريم. كان قد جاء لاصطحابها من المستشفى، لكنها لا تتذكره بوضوح. يبدو أصغر من السادسة والثلاثين!

«يا ساتر. السلام عليكو يا حاجة».

كان عم مهني، بواب بيت الروضة، هو آخر شخص تتوقع مريم أن تراه في بيت السيدة. ما الذي أتي به؟ لم تتصور مريم أن الرجل الذي لم تتبادل معه إلا عدة جمل على مدار سنوات خدمته، ولم تبتسم في وجهه مرة واحدة، يأتي وفي يده زيارة: كيس كبير من البرتقال والموز!

تقدم نحوها وسلَّم: «الست أمينة بلغتنا بقومتك بالسلامة. ربنا يتم شفاكِ يا ضاكتورة».

«الله يخليك يا عم مهني».

لا شك أن هذه كانت ألطف جملة سمعها الرجل من مريم منذ أن عرفها.

كان على مهني أن يسرع بالعودة إلى العمارة، لكن قبل أن يمشي تطوّع بمتابعة مريم ببعض الأمور الإدارية. لقد سلَّم الحاجة أمينة

وصل صيانة العمارة للشهرين الماضيين، كما أن الست «أم كريم» زوجته نظفت الشقة «تنضيفة ملوكي» بناء على طلب الست الأميرة، وأنهى كلامه بسؤال مريم إن كانت تأمره بأي شيء. خرج مهني من الباب تاركا مريم لدهشتها. كيف خطر ببال أمينة أن تطلب منه تنظيف الشقة التي لا تكاد تنظفها وهي تعيش فيها!

أمينة دي...!

لم تكد مريم تفيق من مفاجأة مهني حتى سمعت صوت ظاظا يجلجل ويسبقها: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته». سلّمت على أمينة وأعطت كاثرين طبقا من الحلوى وانحنت نحو مريم قبلتها: «كده برضه يا دكتورة تقلقينا عليكِ!».

جلست ظاظا بجانب مريم، تفحصت المكان بعيني صقر للتأكد من خلوه من أي صنف ذكر، ثم كشفت النقاب عن وجهها. فكرت مريم أن تخبرها بوجود يوسف في الشرفة، لكنها سكتت.

نظرت مريم إلى وجهها.

لقد أوحشتها ظاظا النسخة الأولى، لكن حتى هذه الظاظا التي ترهلت مشيتها وانطفأت عيناها، فيها شيء من النسخة القديمة، مجرد لمحة. وعلى مريم أن تعترف لنفسها أنها لم تتوقع أن تداوم ظاظا على المجيء للمستشفى لمتابعة حالتها في أثناء الغيبوبة.

غيبوبة!

«جايبالك حاجة بتحبيها».

قالتها ظاظا وقامت لتفتح طبق عيش السرايا البرتقالي الغارق في العسل وفوقه القشدة.

لم تأكل مريم عيش السرايا من زمان. ياه.. زمان جدًّا!

ولم تتصور أن تلك الحلوى المنسية التي أكلوا منها أطنانا أيام الجامعة ستفرحها.

ظاظا لم تنسَ!

تأملتها مريم واستغربت إحساسها أنها تفتقدها. أوحشتها أوقات الرغي في أي شيء وكل شيء، من أول الأشياء التافهة التي كانت تضحكهما حتى يمغُصا إلى الكلام في الطب. كم تود لو استطاعت أن تحكي معها مثل أيام زمان. لكن ماذا ستخبرها؟

هل تحكي لها مثلا أنك كنتِ جالسة مرتاحة في مقعد درجة أولى ـ سوبر لوكس ـ في مقاعد الجمهور، وفجأة تلقت شلوطا محترما ووجدت نفسها داخل الملعب؟ وبما أنها ليست لاعبا أساسيًّا، ولا حتى في الاحتياطي، فلا هي حصَّلت جنة ولا نارا. أصبحت رغما عنها في قلب ما يدور، لكنها لا تدير شيئا، بل ربما كانت هي الكرة التي تتقاذفها الأقدام! هل تحكي لها عن أمينة.. كاثرين.. بيت السيرينت...؟

زفرت مريم.

انتبهت على ظاظا تميل نحوها وتقول: «وحشتيني يا بت يا مريم».

شعرت مريم بغصة في حلقها. كانت تلك الجملة هي أكبر

مفاجآت الليلة.

أنا أيضا أفتقدك جدّا. لكنك بنت كلب غبية!

سكتت مريم، وسكتت ظاظا أيضا لأول مرة منذ فترة طويلة، ثم قالت: «بصي يا مريم، مش هاسألك إيه اللي مزعلك مني. هاقول لك بس إنك واحشاني».

إنها المرة الأولى التي تقول فيها ظاظا كلاما حقيقيّا، هي المرة الأولى أيضا التي تعرف فيها مريم أن ظاظا واعية بغضبها. لم تتكلم أي منهما عن مشاعرها منذ أمد بعيد. لا تذكر مريم حتى متى جفَّ نبع الكلام. وجدت مريم نفسها تتكلم دون تفكير، ربما لو كانت قد فكرت للحظة لاختفت في متاهات عقلها وخرست كالعادة، قالت: «أنا غضبانة منك يا ظاظا. غضبانة! طول الوقت بادور على صاحبتي. مش قادرة أصدق.. إنك بقيتِ الست دي! مش بس مسألة البتاع اللي على وشك ده، لأ.. بقيتِ بعيدة وقاسية ومش شايفه حد!».

«وانتِ بقى يا مريم يا سلامة اللي كنتِ فاتحه سكك التواصل بسرعة إنترنت ٢٠ جيجا؟».

قالت مريم: «لما أنا أبقى مش قادره وانتِ مش قادره، يبقى خلاص نقول إننا كنا معرفة قديمة ونريح دماغنا م القصة دي». سكتت قليلا ثم استكملت: «ثم أنا مش فاهمه إيه اللي حامقني أوي كده! من إمتى وأنا مهتمة!».

أشاحت مريم بوجهها نحو نافذة الشرفة وقالت بصوت مكتوم: «إنتِ عارفه أنا بقى لي قد إيه ما اتكلمتش؟ ما قعدتش هلفطت بأي كلام مع حد قريب مني؟ عارفه كام سنة؟».

نظرت ظاظا أمامها وانخفض صوتها وهي تقول: «أنا كنت باهرب يا مريم. مش عايزه أشوف اللي جوايا. لو اتكلمنا، الكلام هيجيب أسئلة: أنا سعيدة؟ هو إيه اللي أنا عايزاه أصلا؟ أنا لسه باحب فتحي؟ حتى بعد النقاب ما حسيتش بالراحة. بس على الأقل الناس مش هتشوف اللي جوايا وابقى مضطرة أمثِّل».

استدارت إلى مريم بنصف ابتسامة: «وبعدين هنتبهدل دنيا وآخرة، أهو الواحد يضمن اللي جاي».

سكتت مريم. كانت تريد فقط أن تنصت إلى تلك النبرة القديمة في صوت ظاظا.

«بس أنا كنت واضحة يا مريم. إنتِ بقى النقاب بتاعك ماكنش حد شايفه، أنا عمري ما قلت لك إن أنا شايفاه. هو انتِ بتسمعي يا مريم؟ بتسمعي بجد؟ إنتِ عايزه تشوفي أي حاجة غير السكك السد؟ عايزه تعيشي في حته غير زمان؟ إنتِ بتهربي يا مريم وأنا كمان هربانة!».

إن ظاظا تعترف الآن بالهزيمة، ومريم تعرف في مكان عميق داخلها أنها قد هُزمت أيضا. كم كان وجه ظاظا في السبعينيات مفعما بالحياة! أما الآن..! هل غضبها تجاه ظاظا هو غضب تجاه

نفسها؟
أسندت مريم ظهرها إلى الحائط وراءها، نظرت إلى ظاظا وقالت: «إنتِ عارفه إني زمان كنت ملكة الصلصال. كنت مؤمنة إننا نقدر نعيد تشكيل نفسنا، مش حاجة سهلة، لكن ممكن. أنا حررت نفسي من أمي، عملت حياة تخصني، شكلت مريم ع الملامح اللي أنا اخترتها...! وبصي عليَّ دلوقتِ... التمثال نشف واتشقق ومع شويه هوا وقع اتدشدش. مش عارفه حتى ألملم الفتافيت وأحطها في مكانها وألزقها بصمغ فيبان للناس إن شكلي تمام كإنه.. عادي!».
الهزيمة الكبرى لملكة الصلصال.
ضحكت مريم.
الهزيمة النكراء لملكة ال....
الهزيمة...
انتبهت مريم على ظاظا تمسك برسغها تقيس الضغط وعلى خلو الصالة إلا منهما. رحلت الوفود منذ فترة، انسحبت كاثرين إلى حجرتها، وكذلك أمينة، لكن بعد أن طلبت من ظاظا أن تنادي عليها قبل أن تمشي حتى تُدخل مريم إلى السرير.
ناولتها ظاظا الدواء وصاحبتها حتى سريرها في غرفة أمينة. أمسكت حقيبتها استعدادا للرحيل، عند الباب وقفت واستدارت: «بصي يا مريم، إنتِ صحيح واحشاني، بس أنا ـ بعون الله ـ هانسى

الكلام اللي قلته النهارده. ادعي لي».

خرجت وهي تضحك، وابتسمت مريم أيضا وهي على حافة النوم.

٣٦

٢٦ نوفمبر ٢٠١٠
بيت السيدة زينب
١٠ بالليل

كاتي سافرت النهارده الصبح مع يوسف إسكندرية وهيرجعوا بكره بالليل، ومريم نامت. بالنهار قعدت أرغي معاها شويه. سألتني عن يوسف وقالت إنها ما لحقتش تقعد معاه إمبارح، قلت لها الجايات أكتر م الرايحات. قريت لها كام صفحة من ترجمة فيرجينيا وولف وقالت لي إن الترجمة عاجباها أوي. كويس إنها ما تعبتش من ليلة إمبارح. دي فضلت هي وصاحبتها يرغوا لحد نص الليل وأنا بصراحة كنت قلقانه لحاجة تضايقها وتعكر مزاجها. شكل صحتها تمام، هي بس ساكته طول اليوم وشكلها زي اللي عندها فِكر. إحنا كنا فين وبقينا فين يا أمينة؟ ده أنا كل ما أفتكر منظرها يوم ما فاقت من الغيبوبة وقعدت تتكلم عن بيت السيرينت قلبي يوجعني. وشها كان أصفر زي اللمونة ومش عارفه تلقط نفسها وهي بتقول لي: «أنا كنت هناك يا أمينة» وبتحكي تفاصيل صعب حد يعرفها من دماغه كده. أنا بصراحة مش فاهمه حاجة. يعني إنتِ كنت فاهمه اللي فات يا أمينة؟ سيبيها

على الله!

أول ما البيت سكتْ، حسيت إن الورق بيناديني، أصل زحمة الأيام اللي فاتوا مش مخلياني أقعد مع نفسي كام دقيقة على بعض، لدرجة إني مش عارفه أنا حاسَّه بإيه ولا إيه اللي بيدور في دماغي. عملت كباية زنجبيل وولعت نور الصالة وفتحت الكراس. أنا سامعه دلوقتِ صوت دوشة في الحارة وواحد عمال يحمحم في ميكروفون، شكلنا عندنا فرح. أيوه صحيح، دي مرات الحاج مصطفى كانت قالت لي إن بنتها هتتجوز النهارده وعزمتني. خلاص بقى مش قادره أنزل، لكن بكره هاشتري هدية وأروح أبارك. وآدي الزغاريد كمان وصلت. شكل الليلة دي ما فيهاش نوم على رأي سي سيد مكاوي.

إمبارح بلَّغت الحاجة «لولا» إني هاسيب شغل الجمعية، بس هاستنى لما يلاقوا حد بدالي. لما سألتني: ليه؟ قلت لها الحقيقة. لأ، نص الحقيقة بس. قلت لها إني مضيت عقد لترجمة كتاب، وإني عايزه أتفرغ للترجمة. مش متأكده إنها فهمت ومش مهم. النص التاني من الحقيقة كنت هاقوله إزاي؟ أقول لها إني يا إما أمشي يا إما أطبق في رقبة واحدة م الستات اللي قاعدين طول النهار يتكلموا في هذي الشيوخ المخابيل، ومفيش واحدة عايزه تشتغل بالقرش اللي

بتكسبه! أنا والله عارفه إنهم مش فاهمين، ويمكن لو كنت أنا بنت اليومين دول كنت هابقى زيهم كده، الله أعلم! بس برضه غضبانة وأنا شايفاهم محبوسين في زنزانة متر في متر جوه دماغهم، وأنا نفسي أجيب شاكوش ولّا إيد هون وأكسَّر الحيطان.

طول الوقت أسأل نفسي: يعني مفيش واحدة من دول قعدت مع نفسها في لحظة رواقه كده وقالت يمكن ـ احتمال يعني ـ فيه عالم بره دماغي؟

أيوه يا بنتي، فيه عالم طويل عريض وبلاد بتجري ورا العلم وناس بتلاقي علاج لأمراض صعبة، وانتوا مش عايزين تروحوا إلا لدكتور «مسلم وصالح»! هي «صالح» دي بقى بيعلقوا بيها شهادة جنب شهادات الطب!

من يومين الست عطيات سألتني رأيي في حاجة مش فاكراها، اتعدلت ورا المكتب وظبطت النضارة فوق مناخيرها وقالت لي: وانتِ يا حاجّة أمينة موافقة ع الكلام ده؟ بصيت لها في عنيها وقلت لها أولا: أنا مش حاجّة. ثانيا: مين قال الكلام ده؟ بصت لي بتعجب كده كأني جاهلة، وقالت بلغة العالم ببواطن الأمور: أبو هريرة. قلت لها: أيوه هو أبو هريرة هو الرسول؟ ده حيا الله واحد سجل كام ألف حديث بعد سنين من وفاة الرسول، وكان اتجلد

لأنه كذاب. ثم إن لو الكلام ده صحيح، ولو الرسول كان عايش النهارده، هيبقى له رأي تاني في حاجات كتير، وخرجت م الأوضة قبل ما ترد عليَّ.

ده سي السيد، اللي سمعته هباب في وسط الستات النهارده، كان هيضحك ع الكلام ده.

ربنا يسهل لهم. أنا حاسَّه كإن حجر وانزاح من فوق صدري. حتى الكام يوم اللي فاضلين مش حامله همهم.

الفرح اشتغل من شويه، قمت بصيت م البلكونة لقيت غنا وأزايز خمرة ودخان ورقاصة لابسه بدلة رقص حمرا وعماله تهز في جسمها، والرجالة مش عارفين يركزوا فوق الكراسي. قفلت الشيش والإزاز وأنا باضحك. والله كنت لسه جايبه في سيرتك يا سي السيد، بالخير طبعا.

بس تصدق بإيه، أنا مش عارفه اللي واجعني هو اللي انتَ كنت بتعمله، ولا إن الناس كلها حتى العيال؛ ياسين وفهمي وكمال، كانوا عارفين وأنا لأ؟

عصفوري يا امَّه عصفوري لألعب وأوري له أموري

مش كنتوا بتغنوا الأغنية دي يا سيد عبد الجواد؟

تفتكر أنا كنت حاسَّه بإيه وأنا شايفاك في بيت زبيدة العالمة ومعاك طقم الأنس والفرفشة؟ أكل وخمرة ومزيكة في الصالة المنورة بمصباح كبير نازل من السقف العالي، وقال إيه، شموع على الكونسول! وانتوا مترصصين ع الكنب المزركش، وزبيدة قاعدة على ديوان كله شلت ولا الملكة. عنيك كانت سارحه في لحمها، وعنيها هي كمان كانت بتاكلك أكل، كنت منفوخ ولا الطاووس. زبيدة بصت لك بطرف عينها وقالت: بالراحة يا عريس، مش تستحي يوم زفافك؟ وانت رديت: والحيا هينفعني بإيه قدام قنطار من اللحم والدهن! صحابك ضحكوا وقالوا إنك معذور. فاكر قلت لها إيه يا عبد الجواد؟ أنا جاي أتعلم قلة الأدب، أصل قلة الأدب نعمة.

رجعتوا تغنوا، وانت شمرت كمام القفطان ومسكت الدف وإيدك بدأت ترعش عليه. فعلا على رأي صحابك لما قالوا إنك تلميذ جليلة. لأ، وتلميذ نجيب كمان. بتسألني أعرف جليلة منين؟ هو انت نسيت إنها كانت بتغني في فرح بنتك عيشة، ولما سكرتْ قامت تدور عليك وكانت هتبقى جُرسة؟ إنتَ دقيت ع الدف والست زبيدة لعلعت وغنت «أمانة يا رايح يمُّه تبوس لي الحلو من فمَّه». الرجاله دماغهم طارت وصوتهم عِلي وواحد منهم مش فاكره

مين، رفع صوته وقال: محدش هيروّح إلا لما نزف السلطانة على السيد أحمد. وجوز العصافير ـ إنتَ وزبيدة ـ ضحكتوا جامد ووقفتوا، هي مسكت في دراعك واتمخطرتوا جنب بعض وسط الزغاريد والغنا.

بالرفاء والبنين.

مبروك يا سيد أحمد، ذرية صالحة من العوالم إن شاء الله.

الهمة يا سيد. لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد.

بالراحة عليه يا سلطانة.

تفتكر أنا حسيت بإيه وأنا باقرا الكلام ده يا أحمد؟

ده كان فاضل لكم فركة كعب ونشوفكوا في أوضة النوم!

٣٧

في الثامنة والنصف مساء انتهى يوسف وكاثرين من جلسة عمل كان هدفها اختصار وتبسيط مسرحية «العاصفة»(*********) كي تتناسب مع مجموعة الأطفال التي اختارها يوسف للتمثيل ومع مدة العرض التي لن تتعدى الساعة. خرجت أمينة من المطبخ فوجدت يوسف يلملم أوراقه ويغلق الكمبيوتر استعدادا للرحيل. أصرت على بقائه حتى يتعشى معهم، لكنه قال إنه تناول الغداء في السادسة بعد عودته من المدرسة وقبل أن يأتي إلى كاثرين مباشرة. حمدت أمينة الله في سرها أنها قد أعدت صينية «جلاش» بعد عودتها من العمل. قالت: «يبقى ع الأقل تقعد معانا شويه وأدوقك حاجة حلوة»، واتجهت إلى المطبخ دون انتظار الرد.

دخلت كاثرين إلى مريم لتزف إليها خبر الجلاش السعيد وتخبرها عن رغبة يوسف أن يتعرف عليها.

ابتسم يوسف لمريم. تلك هي المرة الأولى التي يجلس معها، فيوم الخميس الماضي كان البيت يعج بالناس، وكانت هي مشغولة بصديقتها فلم يتسنَّ له تبادل كلمتين معها. تأمل يوسف ابتسامتها الصغيرة التي تنكسر عند حد معين فيعود وجهها إلى ملامح الحياد. لا يستطيع يوسف أن يصفها بالمتجهمة، لكن يبدو عليها الجدية كأنها على وشك استقبال أحد مرضاها. ذكَّرته مريم بعمه الطبيب وأصحابه من الأطباء الذين تربوا في مدرسة «الطبيب: يد

الرب على الأرض». تصور يا يوسف حالهم عندما يمرضون! لكن شتان ما بين مريم يوم الخروج من المستشفى ومريم التي تجلس أمامه الآن!

سأل أمينة إن كانت بحاجة إلى مساعدة. جاء صوتها من المطبخ يطلب منه أن يجلس على راحته، فالقهوة ستأتي حالا. تركت أمينة كنكة البن تنضج ببطء فوق شعلة النار الصغيرة، أطفأت الفرن وأخرجت صينيتي الجلاش بالكريمة، واحدة لبيت أم محمود والأخرى لهم. كان لون الجلاش ورديّا. الحمد لله، لقد لحقته، لو كانت قد انتظرت دقيقة واحدة لاغمقَّ لونه، وهذه أشياء تضايق أمينة جدّا حتى لو لم يتأثر الطعم. سحبت مشروب العسل بماء الورد وسقت المكعبات الصغيرة الساخنة التي تفتحت بنهم للسائل البارد. سار العسل بين الشقوق الرفيعة التي صنعتها أمينة بسكين حامٍ قبل أن تُدخل الصينيتين الفرن.

نظرت مريم ليوسف وقالت: «كاثي قالت لي إنك بتدرس دراما. هو الأطفال بياخدوا مادة مسرح؟».

قال يوسف إنه يدرِّس أدبا ومسرحا لتلاميذ المرحلة الثانوية، هذا غير تدريبات تمثيل وإخراج عروض مسرحية صغيرة مرتين في العام.

دخلت أمينة بصينية القهوة التي اختلط عبقها المر برائحة العسل وماء الورد. قطَّعت كاثرين بضعة مكعبات ووزعتها في الأطباق وهي تفكر في الإجهاز على ما سيتبقى من الصينية بعد أن تنام أمينة

ومريم. كادت ضحكة شريرة أن تنفلت منها.

التهمت قطعة وهي تخبر مريم وأمينة: «على فكرة، يوسف بيكتب مسرحية».

نظرت أمينة إليه بإجلال وسألته: «زي شغل الأستاذ بديع خيري؟».

ابتسم يوسف ونظر إلى كاثرين باستغراب: «إيه يا كاثي. مسرحية إيه؟».

تجاهلته كاثرين ووجهت كلامها لأمينة ومريم: «بيكتب مسرحية عن الشبع من الحياة».

قال يوسف مصححا إنها مجرد فكرة خطرت بباله من أيام وكلّم كاثرين عنها، لكنه لا يعرف إن كان سيكتبها بالفعل!

«هتعرف لما تبدأ كتابة».

قالتها كاثرين بنبرة عادية، كأنه- لا سمح الله- يكتب مسرحية كل بضعة أشهر، ينتهي من نص ليبدأ في النص التالي. كاد أن يضحك، لكنه لم يكن متأكدا من رد فعل كاثرين.

قال ممازحا: «تشتغلي لي ملهمة؟».

ردت: «لأ.. أنا هاكتب معاك».

انفلتت منه ضحكة. كان مأخوذا بكل هذا اليقين لدى كاثرين، يقين أنه يكتب مسرحية، ويقين أنها ستشارك في الكتابة و...

سألته مريم: «تقصد بإيه الشبع من الحياة؟».

سكت لوهلة، ثم قال إنه مشغول بتلك اللحظة التي يحس فيها شخص ما أنه استكفى من الحياة، وأضاف أن الفكرة نظرية جدًّا ولا يعرف إن كانت تصلح للكتابة.

قالت مريم: «يعني إيه «استكفى»!».

«تعالي نتصور شخص، خلينا نقول ست في التمانين، هي مش مكتئبة، بالعكس دي بتصحى من النوم تاخد دش وتلبس وتطلع البلكونة تشرب قهوتها، بتقرا وتسمع مزيكا. بس المشكلة إنها بقت منتظرة الموت. مش عارف إن كانت دي مشكلة أصلا؟ يمكن ولادها هما اللي مش فاهمين. أنا شخصيًّا مش فاهم!».

لمعت عينا كاثرين وهي تقول: «طيب دي مش أفكار نظرية. إنت عندك شخصية. اكتبها!».

أجاب يوسف كأنه يغلق باب الحديث: «ما عنديش حدوتة!».

«ممكن تبدأ باللحظة اللي الست واقفه عندها وترجع بينا لورا، يعني الحدوتة بالعكس».

لم يكن يوسف يعرف أن كاثرين لو وضعت شيئا في دماغها فلن يستطيع الشيطان نفسه أن يوقفها.

قال بتشكك: «يمكن».

تنقلت مريم بعينيها بينهما تتابع لعبة القط والفأر. وتساءلت في

سرِّها: كيف لكاثرين أن تكون شخصا مختلفا في غضون شهور؟ الفارق ليس في ظهور يوسف، ولا في المسرحية التي تفكر في كتابتها معه. ربما هو التصديق، تلك النظرة في عينيها التي تقول: أنا أصدق كل كلمة تخرج مني، أصدقها لدرجة أنها قد تتحول إلى حقيقة في أي لحظة! هذا شيء جديد على كاثرين، أو ربما مريم هي التي لم تلحظه فيها منذ خمسة أشهر.

التفت يوسف إلى أمينة: «وانتِ إيه رأيك يا أمينة هانم؟».

نظرت أمينة إليه مبتسمة: «بتضحكني لما تقول لي هانم!».

«إنتِ فعلا هانم. المؤسف إن عصر الهوانم، زيك وزي أمي، ذهب مع الريح».

«كتر خيرك يا ابني». احمر وجه أمينة؛ فكلمات الإطراء لا تزال تُخجلها.

«عايز أعرف رأيك».

«بص يا يوسف، أنا مش فاهمه يعني إيه حد يشبع من الحياة! أنا باحس إن كده زي.. زي ما يكون بيعصى ربنا!».

ابتسم يوسف: «إزاي؟ يعني ما ينفعش حد يقول: كفايه، نشكر ربنا، أنا استكفيت؟ عندك مثلا النساك والزهاد، دول كانوا ناس شبعانه من الحياة؛ لأنهم عايشين مستوى تاني للوجود. في الزهد بيلاقوا حياة، وفي الوحدة بيدخلوا عالم كبير جواهم. دول بقى ما كانوش قريبين من ربنا؟».

ترددت أمينة للحظة ثم قالت: «لأ طبعا، طالما ناس بتوع ربنا يبقوا.. يبقوا قريبين من ربنا. أنا بس بافكر في الناس العاديين اللي زينا. الواحد طالما عايش يعيش بقى».

ضحك يوسف: «لا، اشرحي لي دي يا أمينة، طالما عايش يعيش!».

«طالما إنت صحيت الصبح وفيك نَفَس، عيش، بص حواليك واحمد ربنا ع النعم اللي عندك. وبص جواك وحاول تفهم، أصل الفهم نور يا يوسف، كل ما تفهم أكتر تعيش أحسن».

«وبعدين يا أمينة؟».

«تبص ع الناس اللي حواليك وتاخد بالك منهم. الناس هم زينة الحياة الدنيا. فكرك أنا باحس بإيه لما أشوف كاتي مرتاحة وبتضحك؟ أصلها زمان ـ ما تآخذينيش في دي الكلمة يا كاتي ـ كانت كُبّة كده».

نظر إليها يوسف بتمعن. اختفت من داخله مسحة السخرية من نفسه ومن حوار المسرحية، سألها: «وانتِ إيه اللي بيبسطك يا أمينة؟».

«ما انا لسه باقول لك، اللي يبسطني إن اللي حواليَّ يبقوا مبسوطين. وهي دي حاجة قليلة!».

سكتت لحظة ثم أردفت: « إنما موضوع الشبع من الحياة ده أنا مش فاهماه خالص!».

قالت كاثرين وهي تلتهم قطعة أخرى من الجلاش: «تعرف يا يوسف، حلو إنك ترجع بينا في حياة الست دي، نفسي أشوفها وهي بتحب أول مرَّة، وهي بتجرب الفقد أو بتسأل عن الموت والزمن!».

قال يوسف إنها شخص يمكن أن نصفه بأنه سعيد. أينما تكون فهي تخلق حولها حالة من الخفة: في بيتها ومع أولادها وفي شغلها.

تساءلت كاثرين إن كان من الممكن العثور على الشخصية المقابل، فلو أن الأم تقف في لحظة متسامية تشبه الزهاد والنساك، فلا بد من العثور على شخصية تمثل النقيض.

بدا على يوسف أنه يفكر. قال إن من الممكن أن يجاور الأم شخصية عملية جدًّا، شخص يعيش دون أن يطرق باب عالم الأفكار. من الممكن أن يكون رجلا أو امرأة. نعم، هي امرأة. ربما هي أخت الأم. هي امرأة غنية، كل همها هو شراء البيوت، تحديدا فيلات فخمة في منتجعات الساحل الشمالي والبحر الأحمر. كلما شيدوا منتجعا جديدا، أرقى وأغلى ثمنا، أسرعت لتشتري بيتا. لقد أصبحت حتى تنسى عدد البيوت التي تمتلكها. ربما تتذكر أحدها لو نصحها المحامي أن تبيعه لأن «القرية مستواها انحدر». هذا على الرغم من أنها لا تذهب إلى البحر إلا أياما معدودة في العام، وهناك ستقيم الولائم والعزومات لأصحابها وأصحاب أصحابها حتى لا تختلي بنفسها ولو لدقائق.

ضحكت كاثرين: «عاجباني الشخصية التانية. كده عندك حكاية، أو بداية حكاية!».

ابتسم يوسف ونظر إلى مريم: «إنتِ إيه رأيك يا دكتورة؟».

ضحكت وقالت إنها مستمتعة بالحوار.

ابتسم يوسف وهو يتأمل عينيها والغمازتين في خديها. لقد تغيرت ملامحها عندما ضحكت كأنها أصبحت شخصا آخر. تذكر وجهها الخالي من أي تعبير وعينيها الفارغتين يوم خروجها من المستشفى. كما تذكر أيضا صورته وهو محمول فوق الكرسي. لم يفارق هذا الكابوس خياله منذ رآه!

كانت مريم مستمتعة بالفعل، ليس فقط لأن تلك هي المرة الأولى التي تشهد فيها مولد حكاية؛ لكن أيضا لأنها لا تصدق وجود أمينة وكاثرين في حياتها! شعرت أنها شخص محظوظ، ليس لأن هذه هي أمينة زوجة أحمد عبد الجواد، فهي لم تكن تحبها في الرواية، ولا لأن هذه هي كاثرين إرنشو، التي لم تحبها مريم مثلما أحبت بطلات أخريات؛ ولكن لأن هذه هي أمينة، وتلك هي كاثرين.

أحست مريم بالاستغراب. لقد قالت لنفسها إنها شخص محظوظ!

كانت ظاظا قد قالت لها منذ أيام إنها تعيش في الماضي، لكنها مخطئة فمريم قد قفلت في وجه الماضي كل الأبواب، فلا هي عاشت فيه ولا عاشت حاضرها أيضا. لقد نفت نفسها خارج

الزمن.

لا تعرف مريم ما الذي ذكّرها الآن ببيت الروضة! عندما تعود إليه، هل ستجد في انتظارها مريم التي تصاحب الكوابيس ومضادات الاكتئاب، مريم الجافة كعود حطب ميت، القاسية مثل ناهد أمها؟

نظرت إلى يوسف وهو يساعد كاثرين في لململة فناجين القهوة والأطباق والعودة بصينية الجلاش إلى المطبخ وابتسمت.

«يالاااااهوي.......».

شقت الصرخة لحظة الصمت التي خيمت على صالة بيت السيدة زينب.

تجمدوا في أماكنهم.

كانت صرخة قريبة وملتاعة.

«يا لهوي يا امه.. الحقوني يا ناس...!».

هبت أمينة من كرسيها كالملسوعة: «ده صوت أم محمود.. يا ستار يا رب. أعوذ بالله.. يا ستار يا....!»، اندفعت كالسهم نحو الباب وفي ذيلها كاثرين ويوسف.

على سلم البيت تداخلت أصوات فتح الأبواب مع دقات الكعوب المرتبكة التي اندفعت جميعها نحو شقة أم محمود.

(********) مسرحية «العاصفة» لويليام شيكسبير، ١٦١٠.

٣٨

حلَّ صمت مفاجئ بعد رحيل قبيلة السيدة زينب إلى قسم الشرطة؛ أم محمود في المقدمة، ووراءها جيش عرمرم من البشر، أم حنان والحاج مصطفى صاحب القهوة وابن أخيه طالب الهندسة وكاثرين وأمينة ويوسف.

وجدت مريم نفسها في صالة البيت وحدها. اختفت الجلبة فجأة كما ظهرت فجأة وحل محلها فراغ ثقيل، كأن ما كان منذ دقائق؛ كلام يوسف عن المسرحية ومشاكسة كاثرين له وفلسفات أمينة، مجرد هلاوس.

جلست بلا حراك، كأن انسحاب الجمع من العمارة قد أوقف الزمن، كأن لا شيء سيحدث في فترة غيابهم؛ بما يعني أن تتجمد مريم كتمثال شمعي للأستاذ «سيد قشطة» فوق الكنبة.

لم تعرض الانضمام إليهم، ولا حتى عزومة مراكبية!

دارت الزوبعة من حولها وهي واقفة لا تعرف ماذا تفعل بنفسها.

وما الذي بإمكانها أن تفعله؟

كما أن أمينة لم تكن لتوافق على نزولها!

على بسطة السلم وقفت أم محمود تولول: «يا لهوي.. قبضوا ع الواد. يا خراب بيتك يا سعاد.. يا خراب بيتك يا سعاد...!». ظلت تخبط على رأسها بجنون، وجسدها النحيل يتقلص وينتفض.

فهمت مريم من بين الصرخات أن لمحمود سيرة ذاتية لا بأس بها في الخناقات مع أمناء الشرطة، لكن أن يصل الموضوع إلى خناقة مع ضابط!

أوف.. إن قنبلة الصراخ والهرج والمرج التي انفجرت منذ دقائق تكفي لإيقاظ الموتى. شعرت مريم كأن جسدها قد أصبح إسفنجة هائلة الحجم امتصت طنًّا من التوتر فثقلت وأقعدتها. تحول التوتر إلى أسراب نمل تتحرك بهمة في نصف جسدها الأيسر.

كما أنها في حقيقة الأمر تشعر بالاستفزاز، لقد تحركت أمينة وكاثرين كأنهما تعرفان بدقة ما يتوجب فعله. مبدئيًّا سيذهب الجميع إلى القسم بربطة المعلم، وسيوقظون أي محامٍ من المعارف كي يلحق بهم هناك، وبعدها ربنا يسهل. رمت أمينةً الشال فوق كتفيها، وشدت حقيبتها بعد أن تأكدت أن المحفظة موجودة في مكانها وليست منسية فوق رخام المطبخ، ونزل يوسف مسرعا وهو يهاتف شخصا على الموبايل.

شيء طبيعي أن تتصرف أمينة بهذا الشكل، فهي تشعر أنها مسئولة عن شعب بأكلمه، لكن كاثرين...!

بس.. كفايه يا مريم.. إن سؤالا واحدا جديدا كفيل بتفجير دماغك الذي كاد أن ينفجر منذ أسابيع.

ومن أين لهم بتلك الفكرة الساذجة ـ هذا اليقين الأهبل ـ أن ذهابهم سيغير من أي شيء؟ شاب فقير بائس تشاجر مع ضابط

بائس يعاني من شعور كاذب بالعظمة في دولة وقحة تدهس ناسها من أول القاع وانت طالع، فانفتحت بوابات الجحيم. بس كده! هل هذا شيء صعب الفهم؟!

وماذا تقترحين يا حكيمة العصر والأوان، أن يجلسوا جميعا على مؤخراتهم، بجانبك على الكنبة، يشاركونك التحليل والتنظير وإصدار الأحكام بخصوص مصير الولد؟

اعتمل الغضب داخلها. نعم.. إنها غاضبة من أمينة. تستفزها كل تلك الثقة التي لا تقِّل ولا تتأثر بما حولها، دون كيشوت مصري غبي يحمل سيفه الخشبي ويجري إلى قسم شرطة السيدة زينب كي يحارب طواحين الهواء!

كانت منذ قليل تشعر أنها «مستمتعة» كما أخبرت يوسف، وأنها محظوظة وكانت...

ثم... تلك النقلة العبثية التي صاحبت خبر القبض على محمود!

«ابني في إيدين ولاد الحرام...!».

لا تزال حيطان البيت تردد عويل أم محمود.

كأن أحدهم قد ركل مريم بعنف في دماغها!

«تدوقوا كاس المر يا كفرة.. إلهي يحرق قلوبكم على عيالكم يا ولاد القحبة...».

أحست مريم للحظة أنها انفصلت عن نفسها فأصبحت مريمين:

إحداهما تجلس فوق الكنبة تلف في دوامة أفكارها، والأخرى تتأمل ما يحدث بهدوء ودون انفعال، يستهويها تحديدا موضوع النقلة المفاجئة، هذا التحول في مسار الحدث، حتى سرعة الوقت اختلفت! اختفى البطء اللطيف الذي صاحب زيارة يوسف، وحل محله الفزع والجري الملتاث إلى القسم.

هل للخوف زمن مختلف؟

هل يبطؤ الزمن مع الخوف، أم تتضاعف سرعته؟

اتجهت إلى المطبخ لتحضر كوب ماء. الساعة الآن الواحدة والنصف صباحا ومريم تشعر بوزن الصمت في جنبات البيت. إنه صمت سخيف لا يشبه سكون بيت السيرينت الذي يبدو كهمهمة خافتة أو كنداء غير مفهوم.

أنهت كوب الماء وصبت كوبا آخر. ما كل هذا العطش في عز الشتاء؟

في بيت السيرينت شعرت مريم أيضا بالعطش عندما أفاقت، وكان للماء طعم!

لا تعرف مريم متى أحست أنها قد فقدت اتزانها، توقف مفعول الجاذبية الذي كان يثبتها في شرنقة ترى العالم من وراء جدرانها السميكة، بعيدا وباهتا وغير قادر على إيذائها! هل حدث هذا مع زيارة بيت السيرينت، أم مع مجيء أمينة وكاثرين؟

كيف ذهبتْ مريم إلى بيت السيرينت وهي ليست شخصية في

رواية؟

هل يعني هذا أن هناك من يسطر حكايتها في هذه اللحظة مثلما كان يوسف وكاثرين يفكران في حكاية المرأة التي شبعت من الحياة؟ هل هناك من يخط لها المسارات فيمزق الشرنقة ويركلها خارجها لتجد نفسها...؟

وماذا لو كان هذا صحيحا؟

لو أن الأمر كذلك، ولو كان بإمكان هذا الأبله أن يسمعها، فسوف تخبره..!

ماذا ستخبرينه يا مريم؟

سوف أقول له إن الحكاية التي يكتبها فاشلة وبلا أي معنى. فما الذي يجمع بين كاثرين وأمينة؟ من هما، ولماذا جاءتا هنا.. الآن..؟ وأنا.. ما دور مريم في الحكاية، غير أنها تشبه بوذا المتربع على الأرض بمؤخرته الكبيرة، وقد رسم على وجهه ابتسامة تنم عن «السلام الداخلي»؟ ها.. سلام داخلي! لكنه في الحقيقة كذاب. نعم، بوذا كذاب؛ لأنه يعرف أن ليس هناك معنى...! كل هذا هرتلة.. عبث.. كلام فارغ!

بوذا..! وواحد يكتب حكاية؟!

اسمعي يا مريم.. لقد زهقت منكِ ولديَّ كلمتان سوف أقولهما وأخرس.

اهذي كما تشائين، اخترعي حكايات عن شخص يعبث بحياتك

وصدقيها، عودي إلى شرنقتك، تشبثي بموقعك السوبر لوكس وسط الجمهور، كرري ما كنت تقولينه دوما: إن العالم يسير بدونك وإنه ليس بحاجة إلى مجهوداتك الهائلة لتحسين أحواله، وإنك تمتلكين رفاهية إعلان الهزيمة والانسحاب.

قولي ما تشائين لأن العالم بالتأكيد يسير بدونك، بل يخرج لك أيضا لسانه، يغيظك ويخبرك أنه ليس بحاجة إليكِ بالفعل، فلتبقي حيث أنتِ. لكنه لن يتركك وحالك قبل أن يخبرك أنك كنتِ تتهمين ظاظا بالكذب بينما أنتِ الكاذبة، أنكِ في حقيقة الأمر تدعين عدم الاهتمام لأنك خائفة، بل مرتعبة من هذا الموج الذي يهدر من حولك. تخافين أن يشدك نحو القاع حيث الألم يفتح فكيه عن أسنان حادة سوف تطحنك وتحيلك إلى أشلاء.

جرح واحد جديد سوق يقتلني.

أليس هذا ما تقولينه لنفسك؟

وهكذا ينتهي بك الأمر إلى الجلوس على الكنبة بينما أهل البيت كلهم في قسم شرطة السيدة زينب في مهمة إنقاذ.

أحا يا مريم!

٣٩

مرت ساعات ثلاث عند قسم السيدة زينب ولم يتمكن أحد من أفراد القبيلة من الخطو إلى الداخل. فشلت محاولات يوسف ومحايلات أمينة وولولة أم محمود. ظل الباب مغلقا في وجوههم، لم يفتح إلا لأمناء شرطة دخلوا وهم يقودون مجموعة من أطفال الشوارع لا يتعدى أكبرهم الثانية عشرة كالخراف. شخط أحد العساكر في أهل بيت السيدة أن يمشوا من هنا وأخذ يكرر نفس الجمل كالأسطوانة المشروخة: التجمهر أمام الباب ممنوع، يا ستي ممنوع. إحنا عبد المأمور والله. الموضوع عند شريف بيه.

لو لم يكونوا في هذا الهم الأزرق لضحكت أمينة على موضوع «بيه» و«باشا» هذا. يبدو أن إلغاء الباكوية والباشوية في الخمسينيات قد جعل المسألة «سبهللة» والألقاب على قفا من يشيل.

«محمود.. يا محمود!».

وقفت أم محمود تنادي من خارج السور كأن الولد سيطل من الشباك ويجيب عليها.

قالت أمينة: «بس يا سعاد. اسكتي شويه أحسن العساكر شكلهم قرفانين مننا»، وجلست على الأرض وعظامها تؤلمها من الذهاب والإياب بين الباب والبقعة التي تكتلوا عندها.

وظل السؤال الوجودي الكبير معلقا: هل كُتب المحضر، أم لا؟

أسندت أمينة ظهرها إلى السور وتعلقت عيناها بالأنوار الخضراء لمقام السيدة زينب. كان قلبها مقبوضا كما لو كانت تقف عند بوابة سجن الباستيل قبل الثورة الفرنسية. كم من الناس اختفوا في سراديبه المخيفة ولم يُعرف لهم طريق جُرَّة. لم تنسَ أمينة ما حكته لها لوسي عن أبيها الطبيب مانيت الذي قبع في زنزانة قذرة معتمة لثمانية عشر عاما!(********)

مدد يا أم هاشم.. مدد!

عندما التفتت أمينة نحو باب القسم رأت مريم تقترب. قامت من جلستها بصعوبة والألم في ركبتيها يشتد.

هل هذه هي مريم يا أمينة، أم أنك تهذين؟

إنها مريم بالفعل!

يبدو أن مريم لم تتبينهم وسط الأهالي الذين افترشوا الرصيف مثلهم انتظارا لفرج لا يجيء. رأتها أمينة تكلم العسكري عبد الرحيم. لقد عرفت أمينة أسماءهم واحدا واحدا من كثرة ما راحت وجاءت عليهم تسأل وتحايل وتترجى. وصل بها الأمر أن قالت لعبد الرحيم بعد أن توسمت فيه الطيبة: «بص يا ابني خلاص ادخل انت واعرف لنا اللي بيحصل».

أسرعت كاثرين نحو مريم وجاءت بها إليهم. لاحظت أمينة أنها

تسير بشكل عادي أو تكاد وكانت على وشك أن تؤنبها على نزولها من البيت، لكنها قررت أن هذا ليس وقته وربنا يستر. وقفت تستمع إلى يوسف يكرر على مريم الكلام الذي حفظته عن ظهر قلب. لو كان المحضر قد كُتب وأخذ رقما فلا أحد بإمكانه التدخل؛ لأن محمود لا بد أن يعرض على النيابة. أما لو لم يُكتب المحضر بعد فهناك أمل في تسوية الموضوع، في حالة طبعا أن لدينا واسطة.

واسطة!

أمينة لا تصدق أن الواسطة هي المعجزة التي ينتظرونها كي لا ينطَّس محمود حكما بالسجن لمجرد أن كلامه لم يعجب سعادة الباشا!

سجن مرة واحدة!

«محمود.. إنتَ يا واد يا محمود».

عادت أم محمود للنداء وذهبت أم حنان إليها تحاول تهدئتها.

«هو إيه اللي حصل بالظبط؟».

كان على مريم أن تعرف التفاصيل قبل أن تحاول الدخول ومقابلة الضابط.

تبادلت الألسنة حكي القصة التي نقلها إليهم الحاج تهامي، جارهم في الحارة وصاحب محل الكباب في الميدان والذي شهد مع باقي العاملين في المحل ما حدث. بدأ الأمر بكمين مروري في

شارع بورسعيد. أوقف محمود التاكسي وأشار له الضابط من بعيد: «رخصك يا كس أمك».

لم يرد محمود بالطبع، لكن يبدو أن وجهه قد كشف عن آثار امتعاض خفيف.

اقترب الضابط وقال: «انزل ياض م التاكسي».

نزل محمود وفي يده رخصتا السيارة والقيادة.

«اتلقح هنا لحد ما أرجع لك».

وقف محمود لأكثر من ساعة بعد أن ترجل الزبائن وراحوا لحالهم.

طالت الوقفة ولم تكن هناك بادرة أمل بقرب إطلاق سراحه. بعدها نادى عليه أحد الأمناء ليكلم سعادة الباشا. تفحص الضابط الرخص، ثم رفع وجهه لمحمود وقال: «إنت بتلوي بوزك في وشي ياض!».

«أنا أقدر يا سعادة الباشا».

«لا ما تقدرش يا روح أمك. وبعدين أنا أقول لك كس أمك براحتى. يلعن دين أم اللي جابتك إنت والأشكال الوسخة اللي زيك».

«لزومه إيه بس يا...».

لم يكمل محمود جملته إلا وقد تلقى قلما ساخنا على وجهه، رفع يده

لتفادي القلم التالي، ويبدو أن الضابط قد أخذها على كرامته، نظر إلى اثنين من الأمناء اللذيْن انهالا على الولد ضربا ولَكْما وسَحْلا، ثم ألقيا به في بوكس الشرطة ومنه إلى القسم.

تنهدت أمينة واستغفرت الله، فالولد لا هو حرامي ولا قاتل، إنه شاب غلبان يسعى على رزق حلال وملتزم بشرع الحكومة حسب تأكيدات أمه.

نظرت إلى مريم وقالت: «طلع الدخول للبيه أصعب من دخول الجنة!».

أخرجت مريم هاتفها ومشت خطوات بعيدا عن المجموعة. بعد أن انتهت من مكالمة قصيرة تحركت نحو باب القسم. صحا الأمل في نفس أمينة فجرجرت نفسها وراءها، لو نجحت مريم فيما فشلوا فيه فعلى أمينة أن تكون في ذيلها. عادت خطوتين إلى الوراء ومالت على أم محمود وقالت: «باقول لك إيه يا سعاد. اسكتي خالص لحد ما ربنا يأذن بالفرج. أنا عارفاكِ زربونة واحنا مش ناقصين». وأوكلت ليوسف وكاثرين مسئوليتها: «أمانة يا يوسف ما تخليها تغيب عن عنيك... فاهم!». اضطلع يوسف بالمهمة عن طيب خاطر كجزء من مشاركته الفعالة في نضال شعب السيدة الباسل من أجل تحرير محمود، خصوصًا أنه فشل حتى هذه اللحظة في العثور على محامٍ، فكل معارفه سكندريون.

عند باب القسم أخرجت مريم كارنيه نقابة الأطباء. قال

العسكري إنه غير مسموح إلا بدخول المحامين. أخبرته مريم بهدوء أنها هنا كي تحرر محضرا ومن حقها الدخول. نظر العسكري بتشكك إلى أمينة وفتح الباب. مدت مريم الخطو إلى الداخل وأمينة تلتصق بها كظلها حتى وصلا إلى باب الضابط المحصن باثنين من العساكر. سأل أحدهم مريم ماذا تريد، لكنها لم تعنِ نفسها بالرد. أزاحته بيد وباليد الأخرى فتحت الباب الملكي. رفع شريف بيه وجهه على مريم تنتصب أمامه مثل أحد أسدي قصر النيل. لاحقها أحد العساكر فنظر إليه الضابط أن يتركها. أما أمينة فلم تستطع الدخول وراءها، لكن الزمن أنعم عليها في تلك اللحظة بطلّة إلى وجه البيه. كان إنسانا عاديّا مثلنا، وكان فيه شبه من أحد زملاء فهمي في مدرسة الحقوق، لكنها لا تذكر اسمه الآن. جلست مريم دون دعوة. ربضت أمام الضابط وكان واضحا أن ولا حتى بلدوزر بإمكانه أن يزحزحها من فوق الكرسي الخشبي المتهالك الذي ظل صامدا تحتها بقدرة قادر.

انشغل الضابط بشتم الأطفال المقبوض عليهم وارتشاف فنجان القهوة البارد أمامه، ثم التفت ونظر إلى الكارنيه في يد مريم. بدا أنه يتصنع الإنصات إليها بينما عضلات وجهه تتقلص بشكل لا يبشر بالخير وهو يقول شيئا لم تسمعه أمينة. اشتد الألم أسفل ظهرها فاستندت إلى الحائط، ولم تلبث أن انتفضت على شخطة عالية خرمت أذنها. التفتت لتجد الضابط قد فطَّ من وراء مكتبه تاركا مريم والأطفال وراءه وخرج إلى الطرقة وهو يجعّر. لم تكن أمينة

متأكدة إلى من يوجه ماسورة السباب التي احتوت تشكيلة معتبرة من الشتائم تطول الدين والآباء والأمهات، لكنها رأت مريم تهب واقفه وتنطلق وراءه وقد انتفخ صدرها واحمر وجهها وجحظت عيناها فبدت كالوحش الكاسر. «من حقي أعرف المحضر اتكتب ولَّا لأ حتى لو مش من أهله. وأهله مرميين ع الباب بره لو عايز تتكلم معاهم!».

وقع قلب أمينة في قدميها.

ربنا يستر. أنت العليم يا رب!

جرجرت نفسها كي تلحق بمريم بينما سرعة المشهد تتضاعف إلى الدرجة التي أصبح من الصعب عليها أن تتبين ما يحدث بدقة. كان الضابط يمد الخطو بغضب نحو باب القسم ومريم تلاحقه وتجأر، في الخارج انفلتت أم محمود من حصار يوسف وكاثرين عندما رأته، ألصقت وجهها في قضبان الباب الحديدية وانفجرت كطلقات مدفع ألماني: «ابني فين يا سعادة البيه؟ وديتوا الواد فين؟». وقف الضابط قبل الباب بخطوات وأشار نحو «الولية دي اللي عامله دوشة» أن تغور الآن من هنا. تعلقت أم محمود بالقضبان كأن عفريتا قد لبسها. استطال جسدها واخشن صوتها: «آه ما هي القحبة تلهيك وتجيب اللي فيها فيك! بقت الحكاية دلوقتِ الولية اللي عامله دوشة مش اللي انتوا بتعملوه في ولاد الناس. أنا مش ناسيه المرة اللي فاتت يا سعادة البيه...!». تكتل العساكر عليها وجرجروها بعيدا عن الباب.

ضربت السخونة رأس أمينة فتشوشت رؤيتها، الألم يعصر ظهرها وركبتاها تخذلانها وترفضان الصمود، بدا لها كأن كل ما حولها ـ السور وأنوار المسجد القريبة ووجه مريم الغاضب وصراخ سعاد ـ يغطس فجأة في كتلة من الضباب الكثيف.

(********) «حكاية مدينتيْن»، شارلز ديكنز.

٤٠

بيت السيدة زينب
٢ ديسمبر ٢٠١٠
الساعة ١١.١٥ بالليل

رؤوف؟

رؤوف كمال أحمد عبد الجواد!

أنا جسمي مدشدش ودماغي زي اللي اتهرست تحت وابور زلط.

ما دقتش طعم النوم بقى لي يومين. نفسي أرقدع الكنبة وأنام كتير ومحدش يصحيني.

كاتي ومريم دخلوا يناموا. كاتي كان بقى لها يومين صاحيه. طلعت ع المدرسة دوغري بعد ليلة امبارح الغبرا، ومريم ربنا يستر عليها، والله ما انا فاهمه إيه اللي نزلها م البيت لوحدها! كويس إنهم ناموا عشان محدش يسألني: مالك؟

اهدي كده يا أمينة.

دماغي عماله بتكُر مع نفسها في اللي حصل. على ٦ الصبح كان يوسف وكاتي مشيوا عشان يلحقوا أتوبيس المدرسة. لما الساعة جت ٩، كنا متكومين ع الرصيف زي اللي خارجين مضروبين في

خناقة. جسمي كان واجعني بس كنت فقت شويه بعد ما أم حنان شربتني عصير. بارفع وشي ناحية الشارع شفت راجل جاي علينا من بعيد والشمس في ضهره. أنا اتنفضت في مكاني. بسم الله الرحمن الرحيم..! زي ما أكون شفت أحمد عبد الجواد. قلت لنفسي: عبد الجواد إيه يا أمينة في الغُلب ده؟ إنتِ تعبانة من البهدلة وقلة النوم وبتهلوسي.

الخضَّة زي ماجت بسرعة، راحت بسرعة. وقف يسلم على مريم واتكلموا على جنب شويه، كان معاه راجل تخين فهمت إنه المحامي. بعدها دخل البيه صاحب مريم من باب القسم. أيوه كان بيه؛ هيئته، البدلة الرمادي والقميص الأبيض والنظارة الدهبية الرفيعة. أنا ومريم مشينا وراهم بخطوة وشفته وهو بيدخل ع المأمور عدل زي ما يكون البيت بيته. لقيت الظابط، شريف بيه اللي شتمنا ومرمط بكرامتنا الأرض، واقف خطوة ورا المأمور بيبص على البيه بتاعنا بأدب من بتاع زمان.

بقى هو الموضوع كده!

حسيت بالغيظ والغِلّ، بس قلت لنفسي مش وقت فلسفة يا أمينة، المهم تُفرج في وش محمود وأمه.

وكله كوم والمحامي كوم تاني. أعوذ بالله، قلبي اتقبض لما شفته،

رغم إني ما اعرفوش. يمكن ريحُه فكرني بالهلباوي. الله يرحمه كانت سيرته زفرة. كان لما واحد يتخانق مع التاني يقول له: والله لأقتلك وأجيب الهلباوي. أصله كان قادر، لسان وحجة وبلاغة، يعمل اللي على مزاجه. لو قاتل يطلعه براءة، ولو بريء ممكن يقصف عمره، زي ما شنق فلاحين دنشواي الغلابة. منه لله.

وإيه بس اللي جاب الراجل ده للهلباوي؟ قُطع وقُطعت سيرته.

والله ما انا عارفه بقى، أهي الفكرة اللي جت في دماغي.

البيه والمحامي خرجوا من هنا واتكلموا مع مريم كلمتين ومشيوا. مريم قالت لنا: يالَّا ع البيت يا جماعة، إحنا هنروّح، محمود هيتعرض ع النيابة النهارده وهيخرج بكفالة. واحنا مروحين ميلت عليَّ وقالت إن المأمور قال لرؤوف لو تعرف الناس دي، يبقى قول للولد يلم نفسه ويحفظ أدبه، قال إيه: «الناس بقت بتتطاول علينا، وهيبة الشرطة هي هيبة الدولة زي ما انتَ عارف يا رؤوف بيه!»، وقعدت تبرطم وتسب وتلعن في البلد واللي جابوها.

لما وصلنا البيت قبل أدان الضهر، كنت هاقع من طولي من كتر التعب. لكن مش عارفه إيه اللي خلاني أروح لمريم أسألها: مين الراجل ده؟

ابتسمت ابتسامتها دي اللي مش بافهمها أوي، وقالت إنها كانت بتحبه زمان. هو رجل أعمال ـ واصل ـ زي ما انتِ شفتِ كده يا أمينة، له علاقات بكبارات البلد. مالوش في السياسة، بس أصحابه وزرا ورجال الأعمال اللي بيشتغل عندهم الوزرا. قالت لي إنها بتتكسف من نفسها لما تفتكر إنها حبت راجل عكْسها في كل حاجة، بس اللي حصل حصل، وسابوا بعض من سنين ومن ساعتها ما اتكلموش. إمبارح لما جت القسم وشافت إننا مش عارفين حتى ندخل، لقت نفسها بتكلمه وطلبت منه يبعت لنا محامي. قالت لي إنها ما تصورتش إنه هييجي بنفسه، ولا كانت تتصور أصلا إنها تطلب منه خدمة.

أنا سكتْ شويه وقبل ما أفكر هاقول إيه لقيت الكلام طلع على لساني: هو اسمه إيه يا مريم؟

رؤوف.

أيوه، رؤوف إيه؟

رؤوف جوَّاد.

قلتْ لها: رؤوف كمال عبد الجواد؟

بصت لي زي اللي بتقول لي: إيه اللي بتقوليه ده يا أمينة؟!

قلت لها تاني بهدوء كإني بافهمها: اسمه رؤوف كمال أحمد عبد الجواد.

مريم فضلت باصّه لي وأنا باصّه لها واحنا مش لاقيين حاجة نقولها.

والله ما انا عارفه اليوم عدى عليَّ إزاي. لا عرفت آكل لقمة ولا عيني غفلت. دخلت المطبخ ونزلت كل اللي في الدواليب وقعدت أنضف البرطمانات وأطلع الحلل النضيفة وأدعكها بالسلك الألومنيوم. لما مريم وكاتي ناموا إترميت ع الكنبة وأنا مش قادره آخد نَفَسي. راسي كانت تقيلة وسخنة. قمت جبت الكراس عشان أكتب، يمكن الكرب يزول.

باسأل نفسي: ليه مش فرحانة يا أمينة؟ ده كان غاية المراد إنك تلاقي مدافن العيلة، مش حد من العيال بشحمه ولحمه! ده إنتِ أول ما وصلتِ في مايو اللي فات كنتِ بتتلفتي حواليكِ كإنك هتقابلي حد منهم!

كنت فاكره إن لو ده حصل الدنيا هتبقى مش سايعاني م الفرحة. مالي بقى حاسَّه كإني زي الفرخة الدايخة؟

سبحان الله، ده أنا شفت ابن كمال.

وبعدين يا أمينة، هتعملي إيه؟ هتروحي تقولي له مثلا: بص بقى يا

رؤوف يا ابني، أنا جدتك اللي سنة ١٩١٩، وقت ما الإنجليز نفوا سعد باشا، كان عندي ٤٠ سنة، يعني النهارده بحساب السنين اللي تعرفوها أبقى داخله ع الـ١٣٠. ولما يقول لي: ده انتِ شكللك قدي يا نينة! ولَّا يسألني: كنتِ فين في الـ ٦٦ سنة اللي فاتوا...؟

ضحكتْ.

هَمّ يبكي وَهَمّ يضحك صحيح.

الساعة ١.٣٠ الصبح

قمت عملت كباية نعناع أخضر وفتحت الشباك آخد نفس هوا ورجعت للكراس.

أنا هديت شويه وفكرت ومش لاقيه سبب لقبضة قلبي. بالعكس، ده انا شفت ابن كمال.

يعني كمال اتجوز؟ أخيرا!

أخيرا إزاي يا أمينة؟ ده اتجوز من أكتر من ٦٠ سنة!

طب كمال لسه عايش؟

عايش إزاي؟ ده يبقى عدى الـ١٠٠!

مش عارفه إيه اللي فكرني باليوم الهباب اللي قريت فيه الحكاية!

يومها كنت باسأل: هو أنا الست اللي في الرواية، ولّا أنا أمينة؟

أصل فيه حاجات كتير ما اتقالتش. طب اللي ما اتكتبش يبقى ما حصلش؟ وصوت جوايا يرد عليَّ ويقول لي: هو فيه كاتب في الدنيا يقدر يحط حياة بني آدم في كتاب، ده غير إن اسم النبي حارسه سي محفوظ كانت إيده فرطة في الكتابة عن الرجالة بس وييجي عند الستات وياكل الكلام.

أنا حاسَّه كإن الأرض بتلف بيَّ.

مريم كانت بتحب رؤوف؟ ورؤوف يبقى ابن كمال؟ وأنا.. أنا قلبي ليه مقبوض؟

يا رب.. يا رب إنتَ اللي جبتني هنا، شوف له صِرفة بقى!

جرى إيه يا أمينة؟ مالك؟ وليه مش بتحمدي ربنا إن الدنيا ماشيه زي الفل. محمود خلاص هيخرج بالسلامة، كاتي كويسه، مريم بتتحسن لدرجة إنها جت القسم ووقفت على رجليها لحد الصبح، وكمال.. كمال اللي طول عمرك قلقانه عليه، اتجوز وخلف. بتُنبري على إيه بقى دلوقتِ؟

أنا بانبر برضه يا سي السيد؟! البعيد أعمى! مش شايف اللي بيجرى لي!

يعني أنا اللخبطة دي مكتوبة عليَّ طول عمري؟

هو انت دايما كده تعصَّبني!

خلاص يا أمينة هاخرس. ما انتِ أصلك كبرتِ وبقيتِ تسافري لوحدك في أنصاص الليالي! طبعا.. مش عايشه سنين من غير راجل! شكلك نسيتِ نفسك يا أمينة!

جتك إيه يا سي السيد، ضحكتني! إنتَ مستكتر عليَّ أعيش صالبه طولي؟ أمال كنت أجيب عليك راجل تاني؟

ما عرفتيش يا أمينة، أصلك كنتِ في حته ما فيهاش رجالة، لو كان...

اخص عليك راجل ناقص. الحق عليَّ إني باتكلم معاك.

كفايه عليك كده النهارده.

أنا هاقوم أدخل السرير يمكن أقدر أسكت دماغي وأنام.

٤١

صحت كاثرين على صوت الشيخ عبد الجبار وهو يصرخ في ميكروفون الجامع مذكرا الناس أن «الصلاة خير من النوم.. الصلاة خير من النوم». جزَّت على أسنانها. إنها الرابعة إلا الربع فجرا، وما هذا إلا الإنذار الأول قبل إنذار آخر يتلوهما الأذان. مرَّ في خيالها وجه الخادم جوزيف، هذا العجوز المزعج الذي انقض على الإنجيل ينتزع منه وعودا لنفسه بالجنة ووعيدا للآخرين. كان هو المسئول الأوحد عن جلسات التعذيب المعروفة بموعظة الأحد والتي كانت بديلا عن ذهابها هي وهيثكليف إلى الكنيسة. يجلسان على أكوام القش في سندرة البيت يرتجفان من البرد ويستمعان إلى جوزيف يزأر كالأسد الحبيس وهو يتوعد الضالين بالجحيم، أو يزعّق فيهما بلكنة يوركشير العتيدة التي تقضم الكلمات وعروق رقبته تنبض بشكل مضحك: «إن السيد قد دُفن للتو ويوم الساباث لم ينتهِ بعد والإنجيل لا يزال صوته في آذانكم بينما أنتم تلهون هكذا! إخص عليكم! اجلسوا أيها الأطفال الملاعين. اقرءوا كتابًا جيدًا وفكّروا في أرواحكم!».

عليكَ اللعنة أنتَ يا جوزيف! لا أزال أذكر حاجبيك المرفوعين دوما كعلامتي استفهام وعينيك الصغيرتين وهما تحدجان فيَّ بغضب.

رفع عبد الجبار من صوته بالأذان وعلا نباح جوقة الكلاب في

الحارة استعدادا لليوم الجديد.

حلمت كاثرين هذه الليلة بهيثكليف. إنها المرة الأولى التي تحلم به منذ مايو الماضي. كاثرين في الساعات الأخيرة قبل موتها. هيثكليف يقبض على ذراعيها ويعوي في وجهها: «القسوة باتعلمها منك. القسوة والزيف».

دق الموبايل برسالة من يوسف. قامت من السرير وفتحت النافذة فتدفق هواء ديسمبر ورائحة أشجار المسك إلى الغرفة. فتحت الرسالة: «كتبت النهارده مشهد في المسرحية. مش مصدق نفسي يا كاثي. أنا.. كتبت.. مشهد.. في المسرحيااااااا»، وذيَّل يوسف الرسالة بصورة الوجه المذهول التي تضحكها.

لكنها لم تبتسم.

متى ستخبرين يوسف من أنتِ؟

سكتتْ.

يعطل دماغها عن العمل كلما عاد إليها هذا السؤال.

ألن تخبريه...؟

دارت في أرجاء الغرفة وهي تشعر بالغضب. لماذا يعود إليها هذا الحلم الآن؟ هذا الاختناق وانغلاق صدرها والألم الذي تحسه في لحمها كأنه يذوب في نيران الجحيم.

اهدئي يا كاثي. تذكري أنك هنا في غرفتك في هذا البيت الصغير، أمينة ومريم تنامان في الغرفة المجاورة، بل إن أمينة الآن قد صحت

بالتأكيد من أجل صلاة الفجر. تذكري أنك بعد ساعات ستكونين في المدرسة، وأن مسرحية «العاصفة» سوف تُعرض اليوم على مسرح المدرسة وسوف...

«القسوة والزيف...!».

لا يزال صوت هيثكليف المتحشرج الباكي يتردد في أركان الغرفة.

كان قد تسلل إلى غرفتها في بيت لينتون. إنه اللقاء الأخير بينهما. رفعت يدها بصعوبة تلمس وجنته وشعرت بحرارة أنفاسه تلسع وجهها. كان يعوي كذئب جريح: «ليه كرهتيني يا كاتي؟ ليه خنتِ قلبك؟ ما عنديش ولا كلمة تريحك. تستاهلي اللي انتِ فيه. إنتِ اللي قتلتِ نفسك. أيوه بوسيني وعيطي وطلعي من قلبك الحب والدموع عشان هما اللي هيعذبوكِ، هم اللي هيكونوا لعنتك. كنت بتحبيني. طب بأي حق سبتيني؟ بأي حق.. جاوبيني! عشان الانجذاب الساذج للينتون؟ عشان البؤس والمهانة اللي كنتِ هتشوفيهم معايا! عشان ماكنش فيه حاجة ممكن تفرقنا ـ لا ربنا ولا الشيطان نفسه ـ قمتِ إنتِ.. إنتِ بنفسك عملتيها! أنا يا كاثي ما كسرتش قلبك. إنتِ اللي كسرتيه.. إنتِ.. وكسرتِ قلبي معاه. يا خسارة إن أنا قوي. هو أنا عايش ليه؟ وها عيش إزاي لما انتِ..؟ آه يا رب! هو فيه حد يقدر يعيش وروحه في القبر؟».

أخرجت كاثرين رأسها من شباك غرفتها المطل على الحارة وملأت صدرها من الهواء البارد. التقطت الموبايل وأسرعت خارج الغرفة. فتحت رسالة يوسف وأعادت قراءتها. لقد بدأ في

كتابة المسرحية! تسارعت دقات قلبها وشعرت في صدرها بموجات حماس صغيرة. المسرحية! لم تقل ليوسف إنها في الأسبوع الماضي بدأت تخط ملحوظات على الورق. كانت تفكر في الشخصية، في ملامحها وتجاعيد وجهها ونظرة عينيها وهي تجلس في شرفتها تنظر إلى السماء. كتبت عن تصورها للذكريات التي تمر برأسها والأماكن التي تذهب إليها في أحلامها. لقد حكى لها يوسف عن أمه كثيرا، لكن الأمر ليس سهلا.

«صعب إني أغفر...».

عاد صوت هيثكليف يتردد في رأسها.

هذا الوغد! لماذا يأتيني الآن؟

في الحلم كانت تموت بين يديه، صدرها ينغلق، الروح تنازع كي تتحرر منها وهو يشدها، يدخلها إلى حضنه ويعصر جسدها بين ذراعيه. خرجت منها الكلمات بصعوبة وهي تبكي: «سيبني. سيبني بقى! لو غلطت فأنا بادفع حياتي ثمن الغلطة. كفايه. إنت كمان سبتني. لكن أنا مش هالومك. أنا مسامحاك.. مسامحاك».

فجأة انخفض صوته. لم يعد يعوي، صار يئن: «صعب إني أغفر وانا بابص للعيون دي وأحس بالإيدين اللي بتموت بين إيديَّ. بوسيني تاني. بس بلاش أشوف عنيكِ. أنا مسامح اللي عملتيه فيَّ. أنا باحب اللي قتلني. لكن اللي قتلك انتِ.. أسامحه إزاي؟».

دخلتْ كاثرين إلى المطبخ لتأتي بزجاجة مياه وتعد قهوتها.

هيثكليف!

هل لا تزال السيرينتات يمارسن الألاعيب الماكرة فيجذبنها إلى جحيم الأحلام؟

ضحكت. إنها لم ترَ أي سيرينت في حياتها. ربما هنَّ لسن إلا نسج خيال الإغريق المغرمين بالحكايات. في أيامها الأولى في بيت السيرينت دخلت إلى المكتبة وأخرجت موسوعة الأساطير. يقول أوفيد إن السيرينتات هن رفيقات «برسيفون» اللاتي غفلن عنها فاختطفها رب الجحيم «هاديس». استشاطت أمها «ديميتر» غضبًا وعاقبتهن على الإهمال في حماية ابنتها بأن حولتهن إلى طيور. أصبحن أشباحا يحترفن اختطاف البشر كي يتذوقوا نفس المصير، وهن أيضا يصحبن الموتى في رحلتهن إلى حيث تعيش الأرواح. لم تصدق كاثرين هذا الكلام إلا في يوم مشمس كانت تروم فيه التلال مع حصانها وسمعت صوتا ناعما ممطوطا يناديها: «كاتي.. تعالي إليَّ.. عودي مرة أخرى...!». لكزت «براون» فجرى في اتجاه الصوت حتى وصل إلى البحيرة في قلب الغابة. لم تعثر يومها إلا على ظلها الذي عاد معها إلى البيت مطأطئ الرأس.

اسمعي يا كاثرين، في بيت السيرينت كان لديك نسيج الوقت الممل الممتد حولك بلا نهاية كي تطرزيه بخيوط الأوهام الملونة. صدقتِ أن السيرينتات هن من ينادينك أن تعودي إلى هيثكليف، أنهن من يختطفنك في الليل إلى العالم السفلي للأحلام، بل إنهن يتبعونك إلى هنا فتسمعين حكاية شالوت في منتصف النهار!

لكنني لم أكن الوحيدة التي تعتقد في وجودهن! ألم تحرص نساء البيت على عدم الخروج في ليالي المحاق حيث تتجول السيرينتات في الظلمة المطبقة على راحتهن كأنهن يمتلكن العالم! ألم يحرصن على غلق كل الأبواب والنوافذ حتى لا يتسرب منها صوت الأغنيات!

تذكرت كاثرين تلك المرة التي عادت فيها المرأة اليابانية «فوجيتسوبو»(********) راكضة كالمجنونة من الغابة. من بين أنفاسها المتقطعة ندّت عنها أصوات حادة متقطعة أيضا وهي تقول إنها رأت ثلاث سيرينتات عند البحيرة. نعم .. نعم.. لقد رأيتهن في الماء، كن عاريات، يضحكن ويرقصن ويقفزن فوق السطح في دوائر مثل سمك فضي كبير. وأنا.. تسمرتُ في مكاني يا كاثرين كأن الأرض أصبحت صمغا سائلا تحت قدميَّ. لم أستطع رفع عيني عنهن. جسدي.. لم أفهم ما كان يحدث في جسدي! شعرت برعشة غريبة كأنني أذوب وأتحول أنا أيضا إلى صمغ سائل. تملكتني الرغبة أن أخلع ملابسي وأقذف بنفسي في الماء وأصبح جزءا من التيار. لكن الرعب.. الرعب هو ما جعلني أفلتُ من الصمغ بمعجزة، ولم أشعر بساقيّ اللتين انطلقتا تسابقان الريح إلى هنا...!

ضحكت كاثرين وهي تغسل فنجان القهوة وتجففه. كانت تضحك على وجه «فوجيتسوبو» الذي هربت منه الدماء، وتلونت الضحكة ربما بشيء يشبه السخرية من نفسها ومن كل السنوات

التي قضتها تنسج من الوهم شرنقة واختبأت داخلها.

«صباح الخير يا كاتي».

ابتسمت أمينة لها عند باب المطبخ واستكملت: «بسم الله ما شاء الله، وشك منور ومرتاح».

عادت كاثرين إلى غرفتها وهي تكتم ضحكتها، لو تعرف أمينة أي ليلة مرت عليها! لكن عليها أن تسرع بارتداء ملابسها، فلم يتبقَّ على موعد أتوبيس المدرسة إلا نصف الساعة. لملمت من فوق مكتبها أوراق المسرحية ووضعتها بعناية في الحقيبة. لن يستطيع يوسف أن يقرأ خطَّها، لذا عليها أن تنقل ما كتبته إلى الكمبيوتر في فسحة منتصف النهار. سيجلسان معا بعد انتهاء اليوم الدراسي، ستقرأ ما كتبه بالأمس وسوف تفاجئه أنها أيضا قد بدأت الكتابة. لكنها لن تشاركه حرفا قبل أن يأتيها بصينية بسبوسة وبالبندق أيضا والقشدة.

(*********) هي إحدى بطلات الرواية اليابانية «حكاية جنيجي».

٤٢

هل أنتِ فعلا في الطريق لمقابلة رؤوف!

مريم لا تصدق نفسها! لقد ضربت رقم التلفون كأنها مريمُ أخرى، مريم لم تسأل نفسها عن مشاعرها في تلك اللحظة، وما إذا كان بركان الغضب والمرارة لا يزال يفور داخلها. ضربت الرقم وعندما سمعت: «ألو»، ردت بصوت حاولت أن تجعله محايدا: «أنا كنت عايزه أشكرك يا رؤوف.. بخصوص موضوع محمود. أكيد عز الدين المحامي بلغك إنه خرج بكفالة والمحضر اتحفظ».

جاء صوته ودودا: «أنا ما عملتش حاجة. عموما أنا سعيد إني شفتك، رغم إن المناسبة ما كانتش سعيدة».

مرت وهلة صمت قصيرة، ربما ثوانٍ، لكنها بدت لمريم طويلة جدًّا، خافت ألا تنفذ ما عزمت عليه، سوف تخبره أنها تريد مقابلته.

فعلا!

لقد طقَّ في دماغها فجأة أنها تريد أن تقابل رؤوف، ستجلس معه بمحض إرادتها وهي التي كانت على يقين أنها لو قابلته صدفة في أي مكان ل...!

«ينفع أعزمَك على فنجان قهوة؟».

قالتها أخيرا، وشعرت بعدها أن مجرى صغيرا للهواء قد انفتح في

صدرها. الغريب أنه هو من بدا عليه الارتباك. فضح صوته نبرة توتر خفيفة. مسكين. لا بد أنه توقع دشًا من البهدلة والتهزيق كعادتها معه في سنين العلاقة الأخيرة. تذكرت تلك المرة حين جنَّ جنونها فظلت تصرخ فيه: «كفايه.. كفايه يا رؤوف.. أنا باكرهك!». بعدها توقفت عن الاتصال به، ولم يحاول أن يعيد المياه لمجاريها كالمرات السابقة. لا شك أنه قال: بركة يا جامع وكسر وراءها زيرا محترما.

في السادسة بعد الظهر من مساء الخامس والعشرين من ديسمبر، نزلت مريم من التاكسي عند كورنيش الزمالك. رأت سيارته المرسيدس موديل ٢٠١١ تقف أمام البوابة، كان سوادها يضوي تحت شمس ما قبل الغروب. تعتقد مريم أنه يحب المرسيدس أكثر من أبنائه، ليست هذه السيارة تحديدا، ولكن الموديل الأحدث الذي يشتريه قبل أي أحد آخر. مشت الكوبري الحديدي المؤدي إلى المركب وفي أثناء صعودها إلى المطعم في الدور الثاني شعرت بالتوتر يتسحب ببطء إلى رقبتها. دخلت إلى المطعم ورأته في الركن الأيسر الملاصق للنيل. جلس مرتاحا كأنه في حديقة بيته.

كان يرتدي بلوفر سماوي اللون من الموهير الناعم أبرز لون بشرته النحاسي وعضلات جسده المشدود التي لا تفصح عن بضع سنوات بعد الستين. جلست وهي تداري صوت تنفسها إثر الخطوات المعدودة التي مشتها. كان الألم قد تمكن من رقبتها.

«أهلا يا مريم».

نظرت إليه، وأدركت أنها لا تزال تشعر بانجذاب نحو هذا الرجل. معقول.. أبعد كل ما كان! لقد قفشت مريم جسدها ينتبه لرائحة عطره وانسياب أصابع يديه. أحست كأن جسدها يمتلك عقلا مستقلًا عنها، ولديه رأي لا يحظى بالضرورة برضاها، فحاولت أن تستحضر قناع الأطباء.

«إيه أخبار الشغل، المستشفى.. العيادة؟».

قالت إنها أغلقت العيادة وتركت المستشفى وليس لديها أدنى فكرة إن كانت ستعود للطب.

«معقول! ليه؟».

«ما اعرفش!».

«يعني بطلتِ شغل؟ ده كان كل حياتك يا مريم!».

قالت: «يمكن هِيَّ دي المشكلة، إني.. ما عرفتش أعمل حياة».

واستغربت البساطة التي خرجت بها الجملة.

صمتت. وكان الصمت ـ يا للغرابة ـ مريحا. أحست أن لاشيء يجبرها على أن تتكلم على الرغم من أنها هي التي طلبت اللقاء، ولا شك أن رؤوف يتوقع أن تخبره شيئا. رشفت القهوة، لم تكن بنفس قوة قهوة أمينة التي يبدأ مفعولها مع الرائحة. تسللت إلى شفتيها ظل ابتسامة.

بعد فترة من الصمت قالت: «أنا عايزه أشكرك إنك رفضت إننا

نخلف، يعني نتجوز ونخلف».

نظر إليها ولم ينطق. كان حدسه صادقا، فها هي مريم تعود إلى توبيخه. لماذا كنت تظن يا رؤوف أن الزمن كفيل بعلاج الجراح؟ مريم تعرف جيدا أنه لم يكذب عليها أو يمنح وعودا فارغة، كان واضحا من أول لحظة، فاستقرار بيته وراحة ابنه وابنته هما الأساس. لكنه أحب مريم، وإلا ما احتمل عصبيتها ونوبات اكتئابها الطويلة، ولا صبر على إلحاحها وحصارها له. لا ينكر أن في أوقات انزياح غُمَّة الاكتئاب، كانت تصبح مريمَ أخرى، امرأة خفيفة الظل وذكية، لا يمل الكلام معها ولا سماع حكاياتها. في مريم شيء ناعم، سرٌّ ربما، لكنه فشل في الإمساك به كما فشل في احتوائها.

«هو انتَ ليه عمرك ما قلت لي إنك حفيد أحمد عبد الجواد؟».

انتبه على سؤالها ونظر إليها باستغراب. ما علاقة جده بموال التوبيخ الذي أحضرته خصيصا لسماعه؟

حاول مداراة ضيقه: «فيه إيه يا مريم؟ إيه علاقة جدي بإنك سعيدة، إن ابن الكلب ـ اللي هو أنا ـ رفض يتجوزك؟».

لم ترد.

استكمل: «أنا المفروض أعمل إيه؟ أجيب منادي يلف البلد ويقول إن أنا حفيد أحمد عبد الجواد، اللي هو شخصية في رواية كتبها واحد من أصحاب أبويا من أيام الجمالية؟ العالم مثلا منتظر

المعلومة الخطيرة دي؟ وليه بتسألي؟».

«اكتشفت الموضوع بالصدفة، واتضح لي إني عاشرتك ٨ سنين وماعرفتكش!».

«ما تعرفنيش إزاي يا مريم؟ إنتِ بتتكلمي على جدي اللي عمري ما شفته، مش أنا!».

سكتت مريم. كانت تحاول الإمساك بخيوط أفكارها المتشابكة، قالت: «تعرف يا رؤوف إني طلبت أقابلك وأنا مش عارفه هاقول لك إيه؟ يمكن كنت فاكره إني هاقول الكلام اللي انت عارفه، واللي عمره الحقيقة ما أثر فيك خالص، هاقول لك إن انتَ أناني. كنت اتجوزني يا أخي، أخلف عيل وأطلقك ومش عايزه من وشك حاجة. لكن دلوقتِ.. عايزه أقول لك إن احنا عشنا مع بعض سنين، وأنا عمري ما قلت لك عن نفسي حاجة حقيقية. هل عمري حكيت لك عن ناهد؟».

لم تكن مريم بحاجة أن تحكي له شيئا. كان واضحا أن العلاقة مصدر توتر دائم وأنهما..

قاطعته: «لأ.. أنا قصدي حاجة حقيقية. هل قلت لك إني باكرهها؟ إني فضلت أكرهها حتى بعد ما اتخصصت طب نفسي وفهمت إنها مريضة!».

يعرف الأطباء أن السيكوباتية هي من أصعب الأمراض النفسية لأن ليس لها علاج حتى الآن. عدد لا بأس به من السفاحين

سيكوباتيون، إنهم يقتلون دون إحساس بالذنب أو أي تصور عن ألم الآخرين. بل على العكس فهم يشعرون بمتعة وهما يعذبون الضحايا قبل القتل. لديهم خلل في المخ يجعل الجزء المسئول عن حسابات المكسب والخسارة أضعاف حجمه عند الناس الطبيعيين. أما الجزء المسئول عن المشاعر والضمير والإحساس بالآخر فهو ضامر. يبدون بشرا لكنهم فصيل مختلف. في أحد الأبحاث سألوا سجينا سيكوباتيّا بعد إطلاق سراحه: لو أنك متأكد أنك لن تُسجن، فهل ستقتل مرة أخرى؟ رد بكل ثقة: طبعا.

«أمي فصيل سيكوباتي بيقتل بسم بطيء مش متشاف غير للضحية».

سكتت مريم وصدرها يعلو ويهبط كأنها قد جرت أميالا.

تلك هي المرة الأولى التي تدرك فيها أنها لم تقل لرؤوف شيئا عن ناهد، وبالطبع لم تحكِ قط عن ناجي ولا عن غيبوبة المشاعر التي دخلت فيها وظلت هناك حتى في أثناء سنين علاقتها برؤوف.

«شيء مؤلم إنك تشوف إن كل حياتك ضاعت في لا شيء، إن عمرك قضيته بتعاقب نفسك، يمكن لأن العقاب أسهل من إنك تعيش. عاقبي نفسك يا مريم، عيشي في مستنقع مقرف، مسموم بالغضب والكره، عيشي جثة بتتحلل كل يوم. شيء صعب!».

نظر رؤوف إليها ولم يجد شيئا يقوله: «مريم...!».

ارتسمت ابتسامة شاحبة على شفتيها، نظرت أمامها كأنها تكلم

الفراغ: « مؤخرا، من بين كل الحاجات المجنونة اللي بتحصل لي، لقيت نفسي باسأل سؤال مجنون: هو ينفع الواحد يمسح الشريط، ويسجل عليه حاجة تانية؟ سامعه صوت أمي في دماغي: بطلي تمثيل بقى! لكن صوت تاني بيقول لي: مش لازم تمسحي اللي فات، لكن ابدئي عيشي. أنا بس مش متأكدة يعني إيه أبدأ أعيش!».

نظرت إلى رؤوف وقالت: «غريبة إني باحكي لك كل ده!».

كانت تشعر، ربما لأول مرة في حياتها، أن من حقها أن يسمعها العالم حتى لو كان «العالم» مجرد حبيب سابق لم تكن لتتصور أنها ستقول أمامه ما قالت الآن.

«شكلي لسه بحبِك يا مريم».

نظرت نحوه.

قال: «أنا عمري ما سمعت حد قال قدامي كلام شبه اللي قلتيه دلوقتِ، مؤلم وبالوضوح ده!».

سكتت.

«أيوه يا مريم أنا أناني. ممكن أدخل في مغامرة عاطفية، لكن أجازف باللي حققته، أمر مش وارد».

مدت مريم يدها إلى حقيبتها تستعد للرحيل. لم تكن تتخيل أنها ستقضي ساعات ثلاثا مع رؤوف. تأخر الوقت وغدا ستصحو باكرا من أجل الاستعداد للحفل.

أخبرته أن لديهم حفل عشاء في الغد احتفالا بخروج محمود، وإن

أمينة طلبت منها أن تدعوه للحضور.

«أمينة اللي بتعزمني يا مريم؟ مين أمينة؟».

«في انتظارك يا رؤوف. هابعت لك العنوان في رسالة».

ابتسم ومشى بجانبها إلى الخارج، ثم توقف عند بوابة المركب وبدا كمن جاءته فكرة، قال: «أنا عندي فيلا ع البحر. حاجة في منتجعات الأغنيا اللي بتحتقريهم. ما اعرفش ليه خطر في بالي إنك ممكن تحبي تقضي هناك كام يوم، وممكن طبعا تاخدي أمينة صاحبتك».

ابتسمت. لو كانت هي مريم الأولى لردَّت فورا أنها لا تريد شيئا من وجهه، لكنها فكرت في كاثرين وقالت: «يمكن».

سلَّمت عليه ومشت، لم تلبث أن أحست بيده تلمس كتفها فاستدارت.

قال وهو يحاول كتم انفعاله: «أنا عمري ما سألت نفسي إن كنت سعيد ولا لأ. بس حقيقي.. حقيقي يا مريم.. أنا نفسي تكوني سعيدة».

لم يصدق رؤوف ما قاله، ولا صدّق أن رعشة غير مفهومة قد مرت في صدره واختفت. فكّر كم هو شيء مخجل أن رجلا ملو هدومه مثله يقف في الشارع وهو يداري لمعة في عينيه كأنها ظل لدموع.

٤٣

أمانة عليك يا ليل طوِّل وهات العمر م الأول

أمانة أمانة.. أمانة أمانة.. أمانة يا ليلي يا ليل

وقفت مريم في المطبخ وحولها المكونات اللازمة لإعداد الوليمة بينما صوت أمينة يأتيها من صالة البيت ممتزجا بصوت كارم محمود في الراديو.

باحب جديد وقلبي سعيد.. يا ريتني عشقت عمنوِّل.. أمانة أمانة.. أمانة أمانة..

بدأت روائح الطهي النفاذة تعبّق الشقة وتخرج من النافذة لتداعب أنف زبائن قهوة «روسيا». لا تعرف مريم إن كان الطعام سيكفي كل المدعوين؛ فهي لم تطبخ لجمهور بهذا العدد منذ سنين.

كان عيد زواجهما الخامس، وقرر ناجي أن يحتفلا في البيت مع مجموعة أصحاب، كان من بينهم ظاظا وزوجها. طبخت يومها محشي ورق العنب ومسقعة وصينية لحم بجوز الطيب والزعفران وأطباقا أخرى لا تتذكرها. لكنها تذكر أن ناجي قد أخذ اليوم إجازة من المستشفى، وأنه ارتدى مريلة المطبخ وكان شكله مضحكا وهو يقطّع البصل ويبكي. قال من بين دموعه: «كده برضه يا ماريكا؟ أهلي في البلد لو شافوني يقولوا عليَّ إيه دلوقتِ!». لقد ضحكا كثيرا في هذا اليوم. بعدها بستة أيام تعب ناجي ونقلته

إلى المستشفى. تنفست مريم وهي تدفع الذكرى بهدوء إلى أحد أركان دماغها. بدأت تغسل الأرز.

لا تعرف ما الذي جعلها تصر على الطبخ هذا اليوم. انتابتها رغبة مفاجئة في أن تنتزع ذلك الشرف من أمينة ولو ليوم واحد. وها هي قد حققت انتصارا بعد نضال. هزت أمينة رأسها بتردد، ثم قالت كأنها تراجع نفسها: «أيوه يا مريم بس حتى إنتِ تعبانه ولسه....!».

قالت مريم: «لقد قُضيَ الأمر.. قُضيَ الأمر»، وبدأت تضحك.

وقفت أمام البوتاجاز تقلب قطع اللحم في البصل وصدرها يرتج بضحكات صغيرة. كان جزء من عقلها يتفرج عليها مستغربا.

بتضحكي على إيه يا مريم؟

مش عارفه! بس لما باسمع ضحكي باضحك أكتر!

دخلت كاثرين إلى المطبخ، ابتسمت وقالت: «ممممم.. الريحة حلوة قوي!».

أخرجت زجاجة مياه من الثلاجة وأضافت: «فكرتيني بوقفة أمينة في مطبخ بيت السيرينت. ما كانتش بتحب حد يشتغل معاها إلا عزيزة أحيانا»، وخرجت مسرعة لترد على هاتفها.

بيت السيرينت!

أضافت مريم الفلفل الأسود الخشن وجوز الطيب إلى اللحم،

وبدأت في تحضير البشاميل لصواني المكرونة.

مطبخ بيت السيرينت!

لم ترَ مريم في حياتها مطبخا يشبهه!

ومض المشهد في دماغها كأنما بفعل كشاف ضوء قوي ومفاجئ. كانت قد نزلت إلى المطبخ لتأتي ببعض ثمرات التفاح التي يمتلئ بها صحن خشبي كبير بجانب النافذة. ترددت في البيت نغمات هارب، لكن مريم لم ترَ الهارب ولا صاحبته. وقفت عند باب المطبخ وغطت عينيها من النور. كانت الجدران جميعها من الزجاج، لدرجة أن مريم أخذت بعض الوقت كي تتبين أين تنتهي حدود المطبخ وأين تبدأ الحديقة!

كيف لم تتذكر مريم هذا المشهد من قبل!

على الحافة العريضة للنوافذ تراصت أصص ريحان ونعناع وإكليل الجبل ونباتات أخرى لم تتعرف مريم عليها. ثم انسحب نور الشمس فجأة مع ظهور سحب ثقيلة في السماء، وسرعان ما بدأ المطر، لم تتبقَّ إلا بقع نور خفيفة فوق الأرض الرخامية والمائدة الكبيرة من خشب الأرو التي تتوسط المطبخ. اقتربت مريم من كومة الأوراق فوق المائدة. كان الخط رفيعا مائلا ومن الصعب قراءته، «عندما لا أرى الكلمات تتلوى كحلقات الدخان من حولي، أجد نفسي في ظلام مطبق، أتلاشى...». بجانب الورق رأت طبقا صغيرا من الخزف الملون، كان ممتلئا حتى الحافة برماد

وأعقاب سجائر.

هل كانت فيرجينيا وولف تكتب هنا؟

رفعت مريم رأسها فرأت غزالة تنتهي من صعود التلّ وتقف للحظة ثم تتلفت حولها.

تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها مريم غزالا خارج حديقة الحيوان حيث كان يصحبها أبوها وهي طفلة!

تأملتها من خلف الزجاج وهي تسير كأنها تلمس الأرض برفق، وكان في ذيلها طفلاها.

تحت الشجرة العملاقة، بدأت الغزالتان الصغيرتان في الدوران حول بعضهما بعضا وحول الجذع الضخم كأنهما تلعبان، ووقفت الأم تتفرج. بعد فسحة مناسبة تحركت، وكان هذا إيذانا بتوقف فقرة اللعب والعودة للسير بجدية في أثر الأم. أخذت الغزالة منحنى صغيرا واتجهت إلى النافذة التي تقف مريم وراءها. رفعت رأسها تنظر في الداخل كأنما تبحث عن شيء، ثم استدارت راحلة وفي ذيلها الطفلان.

سمعت مريم صوت أقدام على أرض الطرقة الخشبية المؤدية للمطبخ. دخلت فيرجينيا وولف بوجه شاحب وعينين منتفختين من قلة النوم. جلست إلى المائدة وبدأت في تقليب الورق المبعثر أمامها.

ودت مريم لو سألتها عمَّ تكتب، لكن فيرجينيا رفعت رأسها نحو

مريم كأنها تدرك وجودها للمرة الأولى وتحاول أن تتذكر أين رأتها، ثم بدا عليها أنها قد تخلت عن عزمها أن تتذكر وانسحبت عيناها إلى الأفق خارج النافذة.

خرجت مريم إلى الحديقة.

لم تدرك أنها كانت حافية إلا عندما التقى باطن قدميها بالعشب المبلل. كان كثيفا وناعما وبإمكان مريم أن تغوص فيه كأنه السحاب. شعرت بهواء الخريف يلمس جلدها وقطرات المطر تبلل رأسها بينما بقعة شمس خفيفة تعبر سريعا فوقها وتختفي.

«إيه الأخبار يا مريم، مش عايزه مساعدة؟».

أفاقها صوت أمينة. إنها الثانية ظهرا ويبدو أن أمينة قد نَفِدَ صبرها من الجلوس ساعات دون شغلة أو مشغلة.

«اقعدي يا أمينة. عايزه أسألك على حاجة».

بدا على وجه أمينة القلق: «خير...؟».

أغلقت مريم باب الفرن على صواني المكرونة والتفتت إلى أمينة، قالت: «في أيام بين القصرين، هل عمرك اتمنيتِ يبقى عندك اختيار، ولا انتِ كنت دايما مسيرة لمصير محتوم؟».

خبطت أمينة على صدرها: «محتوم...؟!».

«قصدي هل فكرتِ إن فيه حياة بره البيت الكبير؟ إن فيه اختيارات تانية..؟».

سكتت مريم للحظة ثم استكملت كأنها ترد على نفسها: « لكن انتِ أصلا ما اخترتيش حاجة! كنت طيشة يا أمينة».

«طيشة...؟».

«يعني كمالة عدد».

نظرت أمينة إليها وقالت: «فيه حاجات ما فيهاش اختيار يا مريم زي إن ابني ينضرب بالرصاص أو إن عيشة يبقى بختها قليل، بس أنا كنت راضية».

رفعت مريم مصفاة الأرز من الحوض وهي تفسر أنها لا تقصد الأشياء القدرية: «قصدي تختاري.. تختاري مثلا تردي مرة واحدة على سي السيد، تواجهيه، تقولي له إنك مش سعيدة..!».

«ومين قال إني ما كنتش سعيدة؟ ده انا ياما قلبي فرح والحمد لله».

فكرت مريم في الثمن الذي ندفعه مقابل تلك اللحظات، ندفعه مقدما، وفي معظم الأحيان بالتقسيط الممل غير سنين عمرنا!

ابتسمت أمينة وقالت: «هو فيه حد يا بنتي يقدر يهرب من كسرة القلب. مكتوب وهنعيشه. فيه اللي بيرضى، وفيه اللي يفضل يُنبر ويزيط ويتخانق. يعني هو أنا يا مريم اخترت أروح بيت السيرينت، ولا اخترت ـ ولا كنت أحلم حتى ـ إن أنا أرجع هنا تاني؟ بس دايما.. دايما.. كان فيه خير».

أشعلت مريم النار تحت الأرز وبدأت تلملم بقايا المعركة. منذ عودتها من بيت السيرينت وهي تفكر في الاختيار. ما الذي اختارته

مريم، ومتى أصبحت حياتها كلها رد فعل للحظة واحدة؟ لقد قالت لرؤوف إن عقابها لنفسها كان أسهل من أن تعود إلى الحياة، أن تعيش. لكن هل كان المطلوب منها حتى تعيش أن تقول: الحمد لله، شكرا يا رب على القرف والعذاب وكل الأشياء التي لا أفهمها. أنا أتفهم تماما مقصدك وأعرف...!

«وهو انتِ لما ما سلمتيش يا مريم، انبسطتِ؟».

رفعت وجهها إلى أمينة في صمت.

«إنتِ كده كويسه وعيشتك زي الفل؟».

«أسلّم..!».

«التسليم يعني الرضا باللي ما لناش فيه اختيار. وبعدها اختاري يا ستي، حد هيقول لك لأ! يعني أنا اخترت أكمل، اخترت أعيش».

ابتسمت مريم بأسى: «طالما عايشين نعيش. صح يا أمينة؟».

قالت أمينة وابتسامتها تتسع: «اللي يعيش ياما يشوف واللي يشوف لازم يكبر، وإلّا يبقى حمار».

ثم انتفضت فجأة من كرسيها في اتجاه البوتاجاز: «شكلك هتحرقي الرز!».

ضحكت مريم وهي تهدئ من النار: «جرى إيه يا أمينة؟ شويه ثقة بقى!».

«ماشي. عايزه كام وقية؟».

«وقية يا أمينة!»، قهقهت مريم.

استكملت أمينة: «عايزه قد إيه؟».

«بتنكتي يا أمينة؟».

«باقول لك إيه.. أنا عرفت من كاتي إنك عزمتِ رؤوف!».

ابتسمت مريم: «مش لازم نشكره على مجهوداته معانا! ياللَّا روحي اقعدي مع كاتي وسيبيني أخلص».

قالت أمينة إن كاثرين تكتب في المسرحية وشكلها منهمك، وإن بإمكانها أن تغسل الصحون و...، لكن مريم ربتت ظهرها برفق وهي تقودها خارج المطبخ. عند الباب، قالت أمينة إنها ستذهب لأم محمود لاستكمال الشغل على مشروع الأطعمة، وكررت على مريم التحذير الأخير: «خلِّي بالك على تقلية الملوخية، ما تحمريش التوم بزيادة..! فوتك بعافية يا مريم.. التوم مش هافكرك بقى».

استدارت مريم نحو كومة الحلل والأطباق في الحوض فعاد إليها ما قالته لأمينة: لكن إنتِ أصلا ما اخترتيش حاجة! كنت طيشة يا أمينة!

وماذا عنكِ يا مريم، هل كنتِ أي شيء إلا «طيشة» طيلة السنين الماضية؟

فاحت رائحة المكرونة في الفرن فأسرعت إليها. كان لون الصواني قد أصبح ورديّا وبقبق البشامل السميك فوق السطح. أطفأت النار وهي تحس بسعادة غير مفهومة.

٤٤

بدأ توافد أهل حارة البرنس عزيز على بيت الست أمينة في السابعة مساء. عندما دخل محمود من الباب، ترددت زغاريد النساء كما لو كن يستقبلن جنديّا عاد بسلامة الله وحفظه من الحرب في بلاد الإنجليز. دخل يوسف وهو يحمل العود فأثار فضول الأطفال الذين تجمعوا حوله يتفحصونه هو والعود. شعرت أمينة أنها في فرح وليس مجرد حفل عشاء. غطت الفرحة على نبضات التوتر التي حاولت إخفاءها عن مريم وكاثرين على مدار اليوم.

رؤوف!

منذ الأمس وهي تشعر أنها تتطلع للقاء. ترددت عيناها على باب الشقة المفتوح ترقبا لوصوله وعلى شفتيها ابتسامة صغيرة تجيء وتختفي، كأن سحبا تمر فتحجبها للحظات، ثم تعود. كان الترقب قد خفف من قبضة القلب التي صاحبتها منذ أن رأته في قسم الشرطة.

لقد اشترت فستانا من أجل هذا اليوم كأنها طفلة تستقبل العيد بفرحة ملابس جديدة وحذاء جديد وضفيرة فضية وصلت إلى آخر ظهرها. الأسبوع الماضي نزلت مع كاثرين في جولة في محال شارع قصر النيل. ظلت مترددة طويلا إلى أن وافقت على فستان بسيط التصميم من القطيفة، أبرز لونه الكحلي الغامق جمال وجهها والشامة السوداء على وجنتها. وبدا الفستان أكثر أناقة بعد أن

اختارت له كاثرين شالا بدرجات من الأزرق والفضي. عندما خرجتا من المحل، سألتها كاثرين عن إحساسها وهي على وشك أن تقابل حفيدها. سكتت أمينة، ثم قالت: «مش عارفه!». قالت كاثرين إنها أيضا لا تعرف ماذا سيكون شعورها لو أنها قابلت حفيدا لها، أو كاثرين ابنتها التي لم ترها قط، فلقد تركت العالم وراءها بعد أن ولدت الطفلة بأسابيع. جاءت الوليدة وأمها تدور في دوامات الهذيان، لا تهتم بذلك الكائن الصغير الذي يبدو متحمسا لحياة لم تعد كاثرين ترى فيها إلا بيت المرتفعات البعيد والشمعة الموقدة في حجرتها تنتظر عودتها وبقع من العتمة تكبر وتتضخم لتبتلع كل شيء. شعرت أمينة بوخزة ألم في قلبها وتنهدت.

أحست أمينة بيد مريم فوق كتفها فانتبهت على وقوفها بلا حراك في وسط الصالة. ابتسمت وهربت بعينيها إلى يوسف الذي سألها أي أغنية لعبد الوهاب تريد أن تسمع. قالت: «إذا كنت تعرف أغنية «الجلاس»، يبقى سمعنا يا سي يوسف».

يا جلاس الشوق فاض بي وطوِّل

ياما دبت معاك وأنا مش داري

يا مسبب ناري من الأول

دلوقت بس طفيت ناري

عندما هلّ رؤوف عند باب شقة السيدة زينب دقَّ قلب أمينة

بعنف. تراجعت أصوات النساء والأطفال داخل البيت، خَفُت غناء يوسف ودندنة العود، وأحست أمينة أنها تسير ببطء فوق عشب طري وكثيف وأن الخطوات القليلة التي تفصلها عنه هي زمن طويل.

«أهلا وسهلا. السيدة زينب نورت».

ابتسم رؤوف وانحنى قليلا وهو يسلِّم على أمينة وعلى مريم، ثم ينظر إلى الشاب الذي وقف وراءه بخطوة يستحثه أن يسرع بإدخال التورتة إلى المطبخ. لقد اعتقدت أمينة للحظة أن هذا هو ابنه، لكنها سرعان ما فهمت أنه ربما سائق أو مساعد له. قادته أمينة من مدخل البيت إلى ركن الصالة القريب من الشرفة وهي تشكره على المجيء وعلى الحلوى. أكد رؤوف أن لا شكر على واجب وجلس على المقعد المجاور للكنبة البلدي. سألته أمينة ماذا يشرب.

«قهوة سادة أكون شاكر يا أمينة هانم».

في طريقها إلى المطبخ ابتسمت أمينة، إنها من ستحضّر له القهوة بالطبع، ومن غيرها؟ لطالما تسلل أبوه وهو طفل كي يحصل على رشفات منها من يد أم حنفي. وأمينة كانت تعرف وتتغاضى عن ذلك وتتمنى من قلبها ألا يكتشف سي السيد شيئا عن هذا السر. اتسعت ابتسامتها وهي تصب القهوة في أحد فناجين طاقم الصيني الجديد الذي اشترته ضمن تجهيزات بيت السيدة زينب، ورافق

الفنجانَ كوبٌ من الماء البارد بالزهر. عادت بالصينية وهي تتأمل رؤوف بطرف عينها. كان يجلس مرتاحا في كرسيه تحيطه هالة من العظمة. طاووس مثل جده. ابتسمت أمينة. لكنه يبدو أصغر من عبد الجواد وهو في هذا العمر. وضعت صينية القهوة وقالت: «أنا عرفت إن انت ابن كمال أحمد عبد الجواد».

ابتسم رؤوف وهو يتناول منها الفنجان: «حضرتك تعرفي العيلة؟».

هزت رأسها هزة خفيفة وصمتت.

على قدر ما استعدت أمينة لهذا اللقاء وكررت على نفسها الأسئلة التي تتمنى أن تسألها، إلا أن كل هذا قد تبخر الآن وترك دماغها خاويا إلا من رياح توتر خفيفة ومزيج عجيب من السعادة والارتباك.

قالت: «أنا عرفت من مريم إن عندك ولد وبنت».

هزَّ رأسه. عمرو وهانيا. هذا صحيح. تزوجت هانيا منذ عامين وتعيش الآن في أمريكا. أما عمرو فهو منشغل معه في شركاته، ولا يبدو متعجلا على الزواج. هذا هو حال شباب هذه الأيام، يفضلون التمتع بحريتهم أطول وقت ممكن. ابتسم رؤوف وهو يفكّر أن مريم قد سألته من أيام عن جده الذي لم يعرفه، وها هو يكتشف صاحبة لها تعرف العائلة.

«وحضرتك يا أمينة هانم تعرفي مين في العيلة؟».

استكملت استجوابها كأنها لم تسمع السؤال: «وكمال، قصدي أبوك، أنا عارفه إنه كان بيكتب مقالات».

ابتسم رؤوف وهو يضع فنجان القهوة أمامه. تأملت أمينة نظرة التفكير في عينيه، بدا كما لو كان محتارا فيما سيقول. لقد ترك رؤوف هذا الموضوع وراء ظهره منذ زمن بعيد، من قبل حتى أن يموت أبوه. حسم الأمر مع نفسه، فكل منهما ينتمي لكوكب آخر، ولا شيء بين المكانين إلا مساحات الغربة وقدر متبادل من الرفض الصامت. لم ينجح أبوه في أن يحببه في القراءة. كيف يحبها وهي التي اختطفته منه على الرغم من عيشهما في بيت واحد؟ هل يخبر صاحبة مريم أن كمال عبد الجواد كان يكتب مقالات لا يقرؤها إلا حفنة من الناس، ويشك رؤوف كثيرا أن جميعهم قد فهموا ما يكتب؟ هل يحكي لها أنه كان يمل من كلام أبيه الذي لا يخلو من تحليل لكل شيء وفلسفة بلا طائل؟ كبر رؤوف وهو يعزي نفسه أن هكذا هو حال كل الكُتَّاب، غارقون في عوالم وهمية لا يربط بينها وبين الواقع أي شيء. قضى كمال عبد الجواد حياته يكتب ويتكلم عن التغيير والثورة الأبدية دون أن يعني نفسه أن يفهم أحد ما يقول. الدرس الوحيد الذي تعلمه رؤوف منه هو ألا يضيع حياته هباء، عليه أن يحدد أهدافا ويسعى إليها، وكان له ما أراد. سوف يترك لأولاده ثروة ونفوذا، وليس بضع مقالات في صحف توقفت من زمان عن الصدور.

نظر إلى أمينة وقال باقتضاب: «حضرتك عارفه الكُتَّاب، هم

ملكوت...».

شعرت أمينة بيد مريم فوق كفها فنظرت إليها ثم دارت عينيها سريعا. متى أتت مريم؟ لم تشعر أمينة بقدومها، ولم تكن لتشعر أن يدها باردة كالثلج إلا عندما لمستها مريم. كانت أمينة تتأمل وجه رؤوف وهو يفكر في أبيه كأن بإمكانها أن تقرأ ما يدور في باله. شعرت بحزن يهبط في قلبها فيثقله. ترامى إلى سمعها صوت يوسف كأنه آتٍ من بعيد على الرغم من خطوات تفصلها عنه.

يا جلاس من ساعة ما شفتك

دبت في شفايفها بغير منك

دلوقت أنا اللي ح أنوب عنك

واكشف عن حبي المتداري

يا مسبب ناري من الأول

دلوقت بس طفيت ناري

قام رؤوف واتجه نحو الشرفة ليرد على مكالمة تلفونية. ظلت أمينة تتأمله في حيرة كأنما تبحث عن شيء لا تعرفه.

«أمينة اشربي شويه قرفة».

ناولتها مريم الكوب لكنها لم تمد يدها. لا تستطيع أن تدخل شيئا إلى معدتها التي تقلصت وانكمشت على نفسها. عاد رؤوف إلى كرسيه وهو يعتذر عن القيام لتلقي المكالمة، قبل أن ينهي جملته

تدافعت الأسئلة على لسان أمينة كأن الحديث لم ينقطع: «وولاد عمتك خديجة، أحمد وعبد المنعم أخبارهم إيه؟ وبنت ياسين؟ وعمتك عيشة؟ والبيت؟ بيت بين القصرين؟».

«ياه يا أمينة هانم. ده تاريخ!»، قالها رؤوف ضاحكا. لقد أشرف بنفسه على تحويله إلى عمارة سكنية تضم خمس عشرة عائلة. لكن هذا كان منذ سنوات بعيدة. تولت شركة المقاولات التي بدأ بها حياته العملية في السبعينيات هدم البيت وإعادة البناء.

«البيت اتهدم! وأبوك وعماتك وافقوا!».

لقد ظل البيت خاليا لفترة طويلة بعد أن رحل عنه الجميع. تزوج أبوه وانتقل إلى مصر الجديدة حيث تسكن كل عائلة أمه. تحمَّست العمة خديجة للفكرة التي ستأتيها بقدر محترم من المال. بالطبع لم يكن من المنطقي أن تُترك ثروة بهذا الحجم للخفافيش تسكنها. هل تعرفين يا أمينة هانم سعر متر الأرض في المنطقة؟ هل...؟

سعر متر الأرض...!

قالت أمينة بصوت مكتوم: «وعمتك عيشة، وافقت هي كمان؟».

لقد رحلت عائشة عن البيت المهجور قبل هدمه بسنوات. عندما وعى رؤوف على الدنيا، كانت عمته تعيش في بيت للمسنين. رفضت أن تسكن هذا البيت الكبير وحدها بعد أن توفى الله الجميع؛ الجد والجدة والخدم.

«بيت مسنين!».

«ده فندق فاخر وفيه أطباء وطاقم تمريض. عاشت هناك لحد ما اتوفت سنة ١٩٨١ أو ١٩٨٢، مش فاكر بالظبط!».

مش فاكر!

كانت البرودة قد سرحت في جسد أمينة على الرغم من الشال الصوف وقطيفة الفستان السميكة وكف مريم. حاولت أن تقوم، لقد تأخر الوقت ولا شك أن الضيوف قد جاءوا. لكن جسدها رفض التزحزح من مكانه كأنما بوغت بعاصفة ثلجية وسط خلاء مقفر. الرياح تزوم في أذنيها والبرودة تخترق عظامها وتفقدها الإحساس بأطرافها ولا تلبث أن تزحف إلى دماغها. هل تطلب من مريم أن تساعدها على القيام؟

قالت مريم: «خليكِ إنتِ يا أمينة. العشا سخن، أنا وأم حنان هنطلع الأكل».

لم ترد أمينة. تحاملت على نفسها وقامت بصعوبة. عليها أن تتحرك حتى يعود إليها الإحساس بجسدها. كان المطبخ دافئا فوقفت هناك دون حراك. خافت أن تجلس إلى الكرسي الصغير فلا تستطيع القيام ثانية. شعرت بنظرات مريم نحوها، لكنها تظاهرت بالانهماك في متابعة خروج بنات أم حنان بالطعام إلى المائدة. اقتربت منها مريم ووضعت يدها فوق كتفها وهمست: «إنتِ كويسة يا أمينة؟» سكتت، لم يكن لديها ما تقوله. العاصفة تنحسر بعض الشيء، لكن صفير الرياح يصم أذنيها، وأمينة تريد أن تنزوي في

ركن وحدها دون أن تُسأل سؤالا لا تعرف له إجابة أو تحاول مداراة ما بها حتى لا تسبب قلقا لمريم.

ربتت كف مريم وجرجرت نفسها إلى الحمَّام. أغلقت الباب وحاولت أن تتنفس، لكن صدرها مغلق وقلبها تحول إلى صخرة بضخامة الصخور المحيطة ببيت السيرينت.

نظرت إلى عينيها في المرآة فلم ترَ شيئا إلا خواء.

مات زمنك يا أمينة، وليس هناك من وصل مع زمن تقطعت خيوطه بعد أن ظلت تَبْلى وتتآكل حتى إن جاءت هبة هواء جعلتها مزقا!

«ياه يا أمينة هانم، ده تاريخ!»، قالها رؤوف وهو يضحك كأنه سمع نكتة.

جلست على بلاط الحمَّام البارد وأسندت ظهرها إلى الباب.

وهل كنتِ تتصورين أن زمنك لن يموت؟

لم تتوقع أمينة أن زمانها سيعيش إلى الأبد، لكنها لم تكن لتتصور أيضا أن تعيش لتشهد موته. كانت تنصت لرؤوف يحكي وهي تنبش وراء كلامه عن إحساس ما، عن إدراك ولو صغير أن وراء ظهره تاريخ طويل عريض من لحم ودم ومشاعر وآلام وأحلام! ما الذي يعرفه رؤوف عن عمه فهمي؟ هل يسخر منه هو الآخر باعتباره شخصا مثاليّا مات في ثورة لم تحقق شيئا؟ ما الذي أخذه عن جده غير أنه تاجر شاطر؟ ما الذي يعرفه عنها غير أنها جدته

الساذجة التي تخاف العفاريت ولا تعرف شيئا عن مغامرات زوجها مع النساء؟ ألم يرَ في وجهها أي شبه لتلك الصورة اليتيمة التي جمعتها بأحمد عبد الجواد، أم أن كمال ترك الصورة وراءه في البيت الذي هُدم؟ بحثت في عينيه ولم تعثر إلا على خلاء مقفر تطير في هوائه مزق الزمن.

مات الزمن. الله يرحمه. لكن... هل كان ثمة معنى لأي شيء؟

موت فهمي؟!

موت عائشة وهي على قيد الحياة؟!

لماذا كان صبرك يا أمينة، ورضاكِ بالمقسوم، وقول الحمد لله مع كل مصيبة!

هل ثمة معنى لحياتك؟

أحست أمينة بجسدها ينفض عنه البرودة ويسخن. الغضب يملؤها كنار تشتعل سريعا وتنتشر تحت جلدها. يتصاعد اللهب والدخان إلى رأسها فتشعر برغبة في أن تصرخ، بل أن تجأر بصوت مرعب كما فعلت مريم في وجه الضابط.

«يالَّا يا أمينة، العشا جاهز».

طرقات كاثرين على الباب تعني أن عليها أن تخرج سريعا وإلا قلقوا عليها.

فليقلقوا. ولتنتظري أنتِ أيضا يا كاتي. بإمكانكِ أن تتعلمي فضيلة الصبر! لا أريد أن أفكر فيكِ الآن أو في مريم أو في الخوف

الذي عشته مع كل صغيرة وكبيرة! اسكتي. توقفي عن خبط الباب فلن أخرج الآن. اتركوني وحدي.

قامت من جلستها على الأرض وعادت تنظر إلى وجهها في المرآة وإلى العينين اللتين حدقتا فيها بحدة. أطبقت بيديها على حافة الحوض وجسدها يتقلص بأنين متقطع ومكتوم بينما صوت هادئ وقوي يكبر داخلها.

اغضبي يا أمينة. قولي لنفسك إنكِ غاضبة وإن الغضب ليس حرامًا. واسألي عن موت الزمن وعما إذا كان هناك معنى لكل ما كان!

طقطق شرار الغضب في عينيها وفي قلبها تأججت النيران وارتفع دخانها.

اصرخي يا أمينة. اجأري بصرخة حادة وعالية علّها تشق طريقا من الأرض إلى السماء كي تصل إلى أسماع الله!

٤٥

اتخذت كاثرين موقعها بجانب يوسف إلى المائدة، وعلى الناحية الأخرى جلست ماري. لم تَرَ كاثرين مائدة أنيقة كهذه منذ فترة طويلة: المفرش الأبيض المشغول بورود دقيقة الحجم، والأطباق البورسلين برسوم زرقاء على الأطراف، من تحتها مفارش زرقاء مستطيلة، كئوس النبيذ الكريستال وورد بلدي أحمر، أشياءُ تذكِّرها ببيت آل لينتون، لكن هنا أكثر دفئا. والآن يرقد أمامها ديك رومي ممتلئ باللحم ومحشي ورق العنب الذي تحبه. كان طعم المحشي لذيذا لدرجة أن باستطاعته أن ينافس بجدارة محشي أمينة. لكن هذه أشياء لن تصرح بها كاثرين أمام أمينة أبدا.

لم تتردد كاثرين في قبول دعوة يوسف أن تصحبه إلى الإسكندرية. ستكون المرة الأولى التي تسمعه فيها يغني مع كورال الكنيسة، وسوف تقابل ماري أيضا. أحست باستغراب وهي تجلس إلى المرأة التي سمعت عنها طنّا من الحكايات، بل بدأت تتحدث مع طيفها في الأسابيع الماضية! إلى أي مدى تختلف الشخصية التي خطَّت كاثرين ملامحها عن هذه المرأة النحيفة ذات النظرة المبتسمة قليلا من وراء النظارة البنية؟ وعيناها! لم تفكّر كاثرين أن للشخصية تلك العينين! لقد نظرت ماري إليها كأن بإمكانها أن ترى ما يدور داخلها، وهو ما جعل كاثرين تمر بلحظة ارتباك صغيرة.

بدا يوسف متحمسا للطعام كأنه لم يأكل منذ أعوام: «إيه يا ماري

الحلاوة دي. مفهوم طبعا إني هاستولي على باقي الأكل وأنا مروح القاهرة».

انتقلوا إلى حجرة الصالون بعد الغداء. أحضرت أم هناء فناجين القهوة وطبق الحلوى الشرقية المشكَّلة. نظرت كاثرين إلى مكعبات البسبوسة بعيني صقر وبدأت تقلب الأمر في رأسها: هل ستختار القطع الطرية في المنتصف، أم تتجه مباشرة إلى الأطراف البنية المقرمشة؟ كان سؤالا وجوديّا صعبا، لكن يوسف حسمه بأن وضع في طبقها قطعتين كبيرتين من عند الأطراف.

قدم لأمه طبق الحلوى وهو يقول: «أنا وكاثرين بنكتب مسرحية مع بعض».

نظرت إليه ماري وهي ترشف قهوتها.

قال إن هذه هي المرة الأولى التي يخوض فيها مغامرة الكتابة المشتركة، «مش عارف الحقيقة هنطلَّع إيه في الآخر؟ ربنا يستر!» وضحك.

ابتسمت أمه وقالت: «المهم هو إنك رجعت تكتب».

نظر يوسف أمامه ولم يقل شيئا.

استكملت ماري: «المهم ترجع تتجنن».

ابتسمت وهي تستدير لكاثرين: «يوسف وهو صغير كان بيعمل مع أصحابه مسرحيات، تأليف وإخراج وملابس وديكورات. عفش البيت ده شاف بهدلة كتير. وكان الجمهور هو أنا وماجد أبوه

وكارولين أخته. ومفيش حاجة اسمها ما نحضرش أو نطلب تأجيل العرض، وكان بيدِّفعنا تذاكر كمان».

ضحكت ثم أضافت وهي توجه كلامها إليه: «ساعات أحس أن يوسف القديم وحشني».

«كبرتْ وعقلتْ بقى يا ماري. ده بدل ما تفرحي زي كل الأمهات!».

ابتسمت أمه ونظرت إليه كأنها تخبره أنه يفهم ما تعنيه، ولا داعي للمزاح كي تداري حيرتك يا يوسف.

ويبدو أنها قررت أن تستكمل ما بدأته، مجرد خطوة صغيرة سوف تتوقف بعدها: «أنا عارفه إن الوقت اللي فات كان صعب عليكْ، من ساعة الحريق».

أطرق يوسف رأسه. قامت كاثرين بهدوء، وضعت الفناجين والأطباق الفارغة فوق الصينية واتجهت إلى المطبخ.

توجه يوسف نحو أمه، جلس تحت قدميها وأراح رأسه إلى فخذها، قال بصوت يوسف «الرذل» ذي الأعوام العشرة: «دلعيني بقى يا ماري. أنا محتاج حنان».

تعرف أمه أن تلك هي إحدى الجمل الأثيرة لدى يوسف والتي عادة ما يستخدمها كي يغير من دفة الحديث. ضحكت وهي تمرر أصابعها في خصلات شعره السوداء الناعمة. أما هو فقد أغمض عينيه وهو ينفض عن رأسه ما قالته أمه الآن. لم تخبره من قبل أنها

تفتقد يوسف القديم. ودَّ لو قال لها إن هذا هو التطور الطبيعي لصنف الإنسان، نحن نكبر ونترك وراءنا أشياء لنصبح شيئا آخر، وعلينا أن نتحول في لحظة ما إلى نسخة محترمة من كل الكبار العاقلين الذين يستعمرون الدنيا! لكنه لن يستطيع أن يقول شيئا كهذا أمام أمه التي يشعر أحيانا أنها تفهمه أكثر مما يفهم نفسه، هذا إن كان يفهم نفسه أصلا.

عندما عادت كاثرين انسحبت ماري لغرفتها. قالت إنها ستقضي الساعات المتبقية من اليوم في سريرها تقرأ، وذكَّرت يوسف أن يغلق زجاج الشرفة قبل أن يدخل للنوم.

خرجت كاثرين إلى الشرفة الصغيرة التي ترى البحر من زاوية بعيدة. غربت الشمس لتوها وتركت في السماء بقايا ظلال حمراء لم تبقَ إلا وقتا قصيرا واختفت. أتى يوسف بزجاجة مياه وكوبين وجلس على الكرسي البامبو المقابل لها.

«إيه موضوع الحريق ده؟».

سكت يوسف وعيناه تتابعان حركة السحب في السماء. ظل صامتا لوهلة طويلة كأنه لم يسمع السؤال، ثم قال: «كنا في مهرجان مسرح. كان مفروض أحضر المسرحية دي بس احتاجوني في شغل إضاءة في قاعة تانية. كان ممكن أبقى موجود معاه، شادي.. صاحبي.. كان ممكن أبقى مت معاه. كان لازم أبقى مت معاه».

سكت وأحست كاثرين بجسده يتقلص وينكمش، ثم استكمل:

«طول الوقت الموت بيطاردني، مش كمسألة فلسفية، لأ هو بنفسه بيطاردني، بيطلع قدامي فجأة، يبص في عينيَّ وياخد اللي عاوزه من حواليَّ وهو بيضحك ويسيبني ويمشي. كون إن الواحد مننا لسه عايش، ده محض صدفة، كون إن أي حد تعرفيه يموت، ده العادي! الموت في مصر بجح.. ما بيتكسفش.. تحسي إنك ماشيه على حبل رفيع وفيه قناصة بيضربوا رصاص عشوائي».

ضحك بعصبية: «عند حضرتك اختيارات كتير. تحبي تموتي في حادثة عربية؟ طب في قسم شرطة؟ فيروس سي.. سرطان.. حريق...؟».

سكت ونظر إلى اللاشيء، وعندما تكلم بدا صوته محايدا كمن يتلو نشرة أخبار: «أنا ماعرفتش ألاقي شادي. كنت بادور زي المجنون، كنت باشيل معاهم. بس لما دخلنا القاعة كان فيه أجسام بقت رماد! مكنش فيه حاجة تتشال، أكتر من خمسين بني آدم ومفيش...! وصل بي الأمر إني بقيت أدور على دبلة خطوبته، أي حاجة تقول لي إنه مات!».

احتبس صوته وتقلص وجهه بشيء بين الضحك والبكاء. اقتربت كاثرين ووضعت يدها فوق كفه.

ظل محدقا إلى الفراغ وأضاف: «في الفترة الأخيرة لما ابتدينا نكتب، فهمت إن أنا ماكنتش عايز أشتغل مسرح.. ماكنتش قادر.. كإني لو عملت ده هابقى باخونه.. باسرقه... مش كفايه إني..!».

تلك هي المرة الأولى التي يحكي فيها يوسف عما حدث منذ خمس سنوات. عندما مات شادي، لم يتكلم ولم يسمح حتى لأمه أن تتكلم معه، أي كلام يقال سيكون سخيفا وبلا معنى، سيكون كلاما فارغا يشبه الجنون الذي نتنفسه في هواء هذا البلد! لماذا اختارت أمه أن تفتح الجرح الآن؟ تذكَّر كل المرات التي عرض عليه أصحاب له أن يشتغل معهم على روايات، وكيف أتقن ألاعيب التسويف والهروب! لم يكن ليتصور إن بإمكانه أن يعيش بشكل طبيعي بعد ما حدث، أن يحب ربما ويتزوج، أو أن يجلس في إحدى الليالي في ركن المسرح يرى التهويمات في خياله تتحرك فوق الخشبة! أصبح يسخر من الكلام العبيط الذي كان يقوله لأصحابه زمانا بثقة الجهلاء: اقبلوا أن القانون الوحيد الساري في هذا البلد هو العبث ـ الفوضى غير الخلاقة ـ لكن نحن من نحاول رسم حدود وملامح وحكايات وسط الخراب، وهذا يعني أن هناك أملا أن نغير ولو قليلا من كل هذا القبح. طالما أننا نخلق فنّا من العدم، فهناك أمل. برافووووو.. رائع.. كلام يليق بيوسف بك وهبي في أحد أدواره الخالدة.

تصفيق حاد تتلوه شخرة طويلة يا...!

«يوسف..».

نظر إلى كاثرين.

«أنا عايزه أنام معاكِ دلوقتِ».

كان هذا هو تعريف المباغتة. سكت للحظة ثم قال ممازحا: «إيه يا كاتي النقلة الدرامية العنيفة دي!».

لكنها لم تبتسم.

قبلته دون أن تنتظر ردّا.

٤٦

٣١ ديسمبر ٢٠١٠
بيت السيدة زينب
٤ الفجر

الكام يوم اللي فاتوا من يوم ما قابلت ابن كمال، وأنا حالي ما يعلم بيه إلا ربنا.

طول النهار العفاريت تمرح في دماغي وهات يا صريخ ودوشة، بيضحكوا عليَّ ويطلعوا لي لسانهم وهم بيقولوا لي إن كله فشنك، حياتك ووجعك وصبرك ع الوجع فشنك يا أمينة. خليكِ كده زي عبد الوهاب الذي ضيع في الأوهام عمره. ساعات أطبطب على روحي زي اللي بيدادي في عيل صغير. مش إنتِ يا أمينة اللي بتقولي: «وما الحياةُ إلا حته عجين»! مالك بقى قاعدة بتقلبي في عيش بايت وسايبه العجينة الخمرانة اللي مستنية الخبيز؟ اثبتي بقى، كلبشي في حبل الإيمان واوعي يفلت من إيدك. افتكرت سؤال كمال: كيف نخلق لأنفسنا إيمانا جديرا بالحياة؟ زمان كنت فاكره إن الإيمان هو بالله وبس. في بيت السيرينت، وأنا باتغير وباشوف ستات تانية بيتغيروا، لقيت نفسي بقيت مؤمنة بالبني آدم. آه ما هو ربنا بيخلقنا، كتر خيره، بس كل واحد وشطارته. ولما رجعت هنا

لقيتني بأؤمن بالحياة اللي بتديني فرصة ورا التانية كإنها بتقول لي: يالَّا بقى وريني هتخبزي إيه المرة دي.

وش عيشة وهي عايشه غريبة وسط أغراب ما بيفارقش خيالي، أبص عليه وألاقي نفسي باقع في حفرة غويطة، وقبل ما أنزل على جدور رقبتي يلحقني فهمي. ييجي لي وهو بيبتسم وعنيه بتبص ع الشجرة العالية اللي بتتحرك في قبة السما وبعدين تغمض، وأقول لنفسي: ابنك مات وهو مؤمن باللي بيعمله يا أمينة، مات وهو مصدَّق.

بقى لي أيام باكتب كتير، ساعات مرتين في اليوم الواحد، باكتب عشان روحي ما تهربش مني زي ما حصل قبل كده. باتكلم كتير مع ربنا، باقول له يفهمني بالراحة عشان أنا فهمي على قدي. وأهه يومين في النار ويوم ألمح طرف الجنة من بعيد وما اعرفش أروح لها.

مريم زي ما تكون حاسَّه بيَّ، بس كتَّر خيرها ما بتسألش. ساعات ألمحها بطرف عيني بتبص عليَّ وأنا سرحانة، ألاقيها قامت ورجعت بفنجانين قهوة، وجت قعدت جنبي من غير ما تتكلم.

إمبارح الدكتورة ظاظا كلمتني على تلفوني. أنا استغربت. قلت يمكن تلفون مريم مقفول وعايزه تطمن عليها. أتاريها عايز تحضَّر

معايا مفاجأة لمريم. أصل النهارده طلع عيد ميلادها. قعدت ظاظا ترغي أكتر من ساعة وتحكي في القديم والجديد. حكت لي إن من أيام الكلية وصحاب الجامعة دايما يتلموا في بيت حد منهم ويعملوا عيد ميلاد مريم وراس السنة مع بعض، لحد لما مات ناجي الله يرحمه. قالت هتجيب تورتة وتيجي تتعشى معانا. جوزها مسافر وشكلها ما صدقت تاخد نفسها. حكت لي إن الدنيا بينها وبين مريم مش مظبوطة من فترة وإن مريم قافشة عليها! سألتها قافشة يعني إيه؟ قالت لي يعني زعلانة، واخده على خاطرها. وإن هي كمان كانت تعبت من اكتئاب مريم وإنها مش قابله مساعدة من حد، فأخدت جنب. وأديها راجعت نفسها وعايزه تصلح الأمور. أنا طبعا كنت حاسَّه بحاجة زي كده. ربنا يهدي الجميع. بس ظاظا دي، يا ستارع الرغي.

قلت لها طبعا تشرّف وتنوّر، ووعدتها أخليها مفاجأة. قلت أهي حاجة يمكن تبسط مريم وتعوضها شويه عن مزاجي الوحش.

قلت لأم محمود تيجي كمان. النهارده رابع طلب عزومة يطلع من عندها في الكام يوم اللي فاتوا. سواق الناس اللي عاملين الحفلة هييجي يستلم الأكل الساعة ٥ بعد الضهر، وبعدها هتيجي تحتفل معانا.

مدد يا طاهرة، يا آل البيت مدد.

٥.٣٠ الفجر

حصلت لي حاجة غريبة أوي دلوقتِ.

كنت قاعدة ع الكنبة باكتب، سبت القلم من إيدي وريحت راسي ع الحيطة. حسيت إني نَفَسي مكتوم زي ما أكون باتخنق فقعدت أتنفس. الدنيا كانت هادية، مفيش غير زقزقة كام عصفور بردان في البلكونة. لقيت صورة بيت السيرينت بتعدي قدام عينيَّ. شكل السما زي ما يكون قبل الغروب، وأنا كنت مربعة ع الأرض قرب النافورة. سمعت أصوات الستات جاية من ناحية المطبخ كإنهم بيحضروا العشا. حسيت إن المكان كان واحشني وأنا مش واخده بالي. ريحة الهوا واحشاني، وفروع شجرة البلوط اللي بتتمايل كإنها بتسألني عن الغيبة الطويلة كانت واحشاني. كتمة النفس خفت شويه وعينيَّ دمعت.

ضهري كان للبيت ووشي للخلا الأخضر. مليت صدري بالهوا وغمضت عينيَّ وفتحت قلبي على وسعه يحضن السما والتلال والغابة اللي ع اليمين تحت. حسيت بالدموع في صدري بتزيد وتكتر كإني بابكي. ساعتها سمعت صوت غنا، لأ كان نغم، لحن من غير كلام وبصوت ست، حاجة كده تشبه رنة صوت أسمهان.

الله!

هو احنا ليه مع الحاجة الحلوة أوي بنقول الله؟ يمكن لأن الحاجات الحلوة زي الموسيقى والغنا هي من روحه، من الحته اللي جوانا تشبه له.

الصوت اللي كان واطي ابتدى يعلا كإنه كان بعيد وبيقرب. النغم كان عامل زي موج البحر، بييجي بهدوء ويبعد، وبعدين يرتفع أوي كإنه موجة عالية هتاخدني جواها. أنا غمضت عينيَّ واتنفست، دموعي فلتت مني وأنا ما حشتهاش.

لما فتحت عينيَّ لمحت طيور، سرب عالي في السما بيتحرك كإنه جسم واحد بيرقص. بصيت لها وابتسمت. السرب كان بيقرب، شكله هينزل ناحية التل. قلبي دق جامد مش عارفه ليه. وقفت كإني لازم أكون في شرف استقبالهم، لو هما فعلا هيحطوا هنا. طيور كتير أوي قربت وابتدت تملا المكان، فيها اللي هبط فوق فروع الشجر واللي نزل ع الأرض وعند النافورة وفوق أبراج البيت. ساعتها شفت حاجة عجيبة. دول كانوا ستات طيور. الجسم طير، جناحات ورجلين طير، لكن الوشوش ستات. لقيتني بأقرب بشويش عشان ما يخافوش ويطيروا. كانوا بيتحركوا من الفروع للأرض لحافة التلّ للشجر من تاني. طير منهم كان له وش

ليلي. أيوه هو أنا أتوه عنها. بس هِيَّ مش شايفاني. محدش من الطيور كان شايفني. رفعت عينيَّ لفوق، شفت وش عيشة. كانت باصه لطير تاني، بتهز جناحاتها ورجليها ماسكه في خشب الفرع. قلبي انخلع من مكانه. ولقيت كاتي كمان بتحط بالراحة على النجيلة. النغم كان عالي بيرن في الهوا وأنا متسمرة بابص عليهم. فتحت عينيَّ وشفت الفجر بيشقشق في سما الحارة وفروع المسك بره البلكونة بتتحرك مع الهوا.

بصيت حواليَّ وأنا مش فاهمه إيه اللي حصل. أنا زي ما أكون رحت بيت السيرينت، واللي شفته ـ وحياة سيدنا الحسين ـ حقيقي أكتر من قعدتي ع الكنبة دلوقت وفنجان القهوة اللي برد قدامي!

لما كاتي ترجع من إسكندرية هاحكي لها. بس أنا عارفه هتقول إيه.

اللي شفتيهم دول يا أمينة هما السيرينتات، إوعي تسمعي أغنيتهم لأنها نداهة الموت. إوعي يا أمينة تمشي وراهم!

موت؟ موت إيه يا كاتي! يا بنتي ده أنا قلبي الحزين فرح والكلبشة اللي في صدري فكت وراحت لحالها. هو انتِ ما تصدقي تلاقي فرصة عشان دماغك تسرح لبعيد. خليكِ بس في اللي انتِ فيه دلوقتِ وخلّي بالك على نفسك. ربنا يسعد أيامك.

أقوم أصلي الفجر وأفكر هاطبخ إيه لعشا النهارده.
يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.

٤٧

مد يوسف الخطو نحو الكنيسة. سيصل متأخرا عن موعد بروفة الكورال بنصف الساعة، وهو شيء سخيف، لكن الأسخف هو إحساسه بالضيق أنه سيترك كاثرين معظم اليوم، على الرغم من استغرابها لقلقه، ومن ضحكتها وهي تخبره أن لديها جدولا ممتلئا بالفقرات؛ مشيا وغداء مع ماري ولقاء أخته وطفليها للمرة الأولى.

في الداخل، كان جزء منه منغمسا فيما يفعل ومنتبها لكل التفاصيل: مكان وقوفه في الصف الثاني أقصى اليمين ومواعيد دخول السولو وترتيب الترانيم، وجزء آخر لا يزال مع كاثرين يستعيد الوقت معها كأنه يعيشه من جديد. كأن بإمكان يوسف أن يعيش زمنين في نفس اللحظة. أعجبته الفكرة وجعلته يبتسم. أحبت كاثرين المقهى ذا الجدران الزجاجية المطل على البحر وعلى كوبري ستانلي من الدور الثاني. قالت إنه على الرغم من الشارع المزدحم تحتهما فإنها تشعر كأنها داخل البحر، ربما في «أبي قير»، تسبح في العمق بين أطلال المدينة الغارقة التي تستوطنها الأسماك وتنمو فوق وجوه سكانها الطحالب. تأمل يوسف الابتسامة في عينيها البنيتين وهي تحكي وأحس أنه يحسدها، تدهشه البساطة التي تعبُر بها كاثرين بين الخيال والواقع، كأن الخيال غرفة في بيتها تدخلها وتخرج منها متى تشاء. لكن يوسف ملتصق بأرض الواقع

كدودة عنيدة. حتى عندما يكتب، تولد الشخصيات من عقله ويظل فوق رؤوسهم حتى يتأكد أنهم سوف يقولون ما يريد.

تكلما كثيرا في المقهى ووضعا خطط اليومين القادمين في الإسكندرية. غدا سيصحبها ثانية إلى المتحف، تريد أن تعود للتمثال الغارق ولتلك النظرة التي تحيرها. ابتسم يوسف.

«المهم ترجع تتجنن»، هذا ما قالته ماري بالأمس.

الأمس!

لم يكن يتصور أنه سيفتح الصندوق الأسود أمام كاثرين فتهب في وجهه رائحة اللحم المحترق ويسمع الصرخات الملتاعة لقلة من الناجين حملوهم في تاكسيات إلى المستشفى بعد تأخر عربات الإسعاف. لا يذكر ما الذي قاله لها، لكنه يعرف أنه فقد الإحساس بجسده تماما كأنما قد أصبح خارجه يتفرج على يوسف الذي تلطخ جسده برماد الدخان واحترق كفَّاه وهو يحمل الجثث المتفحمة الساخنة دون أن يشعر بألم. عندما لمست كاثرين يده بدأ يهبط إلى داخل جسده ويدرك أنه في شرفة بيته.

في فسحة قصيرة من البروفة، خرج يوسف إلى ساحة الكنيسة حيث الهواء بارد على الرغم من ظهور الشمس بشكل متقطع. أخرج الموبايل ووجد من كاثرين رسالتين؛ في إحداهما صورتها مع كارولين وهما تضحكان، وفي الأخرى أخبرته أنها كتبت فكرة مشهد بعد أن تركته. تذكر إحساسه بالخجل من نفسه عندما قرأ ما

كتبته من أسبوعين. لقد استخف بها في البداية، بينه وبين نفسه بالطبع. لم يكن لديه مبرر للاستخفاف، وكذلك لم يكن عنده أي سبب لتصديق أن كاثرين ستكتب شيئا عليه القيمة.

لا تحاول إيجاد مبرر يا يوسف، لقد قُفشت متلبسا بالغرور!

ابتسم.

في الأيام الأخيرة يشعر يوسف باشتياق للكتابة، كأنها صاحب غائب لم يكن يدري أنه يفتقده إلا عندما عاد. يريد الاشتغال على المسرحية في الأيام المتبقية من إجازة الكريسماس وقبل العودة إلى المدرسة، لكنه يتوق أيضا للكتابة نفسها، للأيام التي كان يجلس إلى الأوراق وينتظر أن تفاجئه يداه. وماذا لو فكَّر في الكتابة عن الساعات القليلة الماضية؟ مرَّ شريط الوقت أمامه فشعر أن كل شيء حدث بسرعة، ومع تتابع المشاهد كان يتبدل ويصبح أكثر من يوسف واحد؛ فهناك يوسف الذاهل محترق الكفين؛ ويوسف الذي قبلته كاثرين في الشرفة فأحس أنه يمشي فوق صخور عالية مخضرة تطل على بحر؛ ويوسف الذي دخل إلى الكنيسة منذ ساعتين وترك جزءا منه مع كاثرين.

كان سعيدا أنه سيراها في المساء. منذ الأمس وهو يشعر بخدر خفيف، كأنه يمشي فوق سحابة، لكنه في نفس الوقت متيقظ جدّا، عقله منتبه ومسام جسده مفتوحة تتنفس. لم يكن يوسف يعرف أن بإمكانه أن يشعر بمسام جسده!

ليلة الأمس، لم يغمض له جفن. لا، هذه مبالغة. لقد أخذ يغفو ويصحو بإحساس أنه داخل حلم. مع كل حركة بسيطة منها كان يفيق، يتأمل وجهها وشفتيها المزمومتين كشفتي طفلة عنيدة وجسدها المتكور في حضنه ويعود للنوم. في إحدى المرات شعر بها تنتفض جالسة في السرير وأنفاسها تتسارع كأنها خرجت لتوها من كابوس. مد يده ولمس ظهرها فالتفتت إليه، جذبها برفق إلى صدره وربت رأسها فغفت في حضنه. دس أنفه في شعرها الأسود وأغمض عينيه وتنفس. لا تزال رائحتها تصحبه لدرجة أنه يشم في جلده شيئا يشبه رائحة الهواء بعد المطر.

استدار عائدا إلى داخل الكنيسة. كان يشعر بالخفة وبأنه في ذات الوقت أكثر رسوخا فوق الأرض، كأن من حقه أن يشغل هذا الحيز بارتياح. وأحس أيضا باستغراب لهذا البراح الذي انفتح داخله، كأن بإمكانه أن يرى ما بداخل البلورة، كان هناك أكثر من يوسف يتحركون ومن خلفهم فضاء أزرق بلون السماء.

هو فيه كده؟!

و«كده» هذا متوفر عادي في الأسواق من أجل جماهير التعساء في العالم!

في التاسعة مساء دخلت كاثرين إلى الساحة أمام باب الكنيسة في صحبة كارولين وزوجها وطفليها. لقد استمتعت بيومها على أفضل وجه. بعد أن تركت يوسف كتبت ملحوظات جديدة

للمسرحية، وطرأ على عقلها سؤال عما سيحدث عندما تكتمل الشخصية، هل ستكون ماري، أم ستصبح شخصا جديدا؟ في الثالثة ظهرا تمشت على الكورنيش وهي تفكر أنها معجبة بمدى التزام وجدية الشمس في هذا الجزء من العالم. شتاء مشمس يوميّا! هذه جملة تحمل في باطنها التناقص، بالطبع من وجهة نظر من عاش في يوركشير شتاءات قد يموت فيها الناس في العراء لو أنهم أغراب فشلوا في الاحتماء بسقف قريب. عادت إلى البيت تتضور جوعا فأجهزت على هرم صغير من محشي ورق العنب وشريحتين كبيرتين من لحم الديك الرومي، وأنهت الوجبة بطبق من البسبوسة.

ملأ بخور المسك صحن الكنيسة وتسلل إلى الساحة خارجها. لم تخطُ كاثرين إلى كنيسة إلا مرات معدودة لم تتعدَّ جنازات العائلة ويوم زفافها إلى إدجار. لكن هذه الكنيسة أكبر من كنيسة «جيمرتون» وأكثر امتلاء بالتفاصيل وبالألوان، تلك الأيقونات الحزينة، وجه العذراء وهي تحتضن طفلها، المذبح المزخرف...! سيكون أمامها كل الوقت لتأملها وهي تُمثّل الإنصات إلى القس. لقد حاول يوسف تطمينها أن الموعظة لن تطول، لكنها لا تصدقه، لا يوجد قس على وجه الأرض لا يحب الكلام.

«الزمن عنصر مهم في حياة الإنسان لأنه يشكل إطارا لحياته. لذلك أراد الله بواسطة التجسد أن يشابه الإنسان في كل شيء، فدخل في لعبة الزمن وصار له عمر، وهو المنزه عن المادة والزمن».

نحن لن نمل أبدا من محاولة فهم الزمن.

الموت.. هل هو زمن آخر؟

هل نعيش في الأبد المطلق دون أن ندري؟

عندما كانت كاثرين تحتضر في بيت لينتون، كانت متأكدة أنها ستصبح أقوى بعد الموت، لم تشك للحظة أن روحها ستعرف كيف تلتقي بهيثكليف، ظلت تحوّم حوله، ولم يقصّر هو أيضا في مطاردتها، لكنهما فشلا أن يلتقيا. كانت قد اتهمت هيثكليف أنه سيستكمل حياته بعد موتها. هل بإمكانه أن يتصورها هنا تستعيد حريتها من أسر زمن واحد؟ هل سيعوي في وجهها «القسوة والزيف»؟

هل خدعتْ كاثرين الزمن؟

هل كان قلبي لك أمينا؟

هل كان حبي لك وفيّا؟

بدأت الترنيمة فأغمضت عينيها وفتشت عن صوت يوسف بين باقي الأصوات.

هل كان قلبي لك أمينا؟

هل كان حبي لك وفيّا؟

هل عرفت مقدار حبك؟

هل نظرت ولمست الطول والعرض

والعمق الذي لهذا الحب العجيب؟

أراد يوسف أن يصحبها بعد القداس إلى احتفال في بيت أحد أصحابه، لكن لكاثرين خطة أخرى. سيأخذان زجاجة نبيذ ويقضيان معا الساعات القليلة قبل شروق أول أيام العام الجديد عند الشاطئ. وربما تخبره أن هذا هو أول احتفال لها برأس السنة من زمان بعيد. سيكون هذا الاعتراف هو بداية الحكي عن بيت السيرينت ومن قبله بيت المرتفعات!

الآن يحتفل بيت السيدة زينب بعيد ميلاد مريم. كم هي محظوظة لأنها ولدت والعالم كله يحتفل بعام جديد. نظرت كاثرين إلى ساعتها. عليها أن تهاتف مريم بعد الانتهاء من القداس. ربما من الأفضل أن تهاتفها عند وصولها إلى البحر. انتبهت على القس الذي كان يُنهي الموعظة:

«أيها اليائس، أيها الفقيد، أيها المسكين، أيها التعبان، يقول لك المسيح إن أمامك فرصة أخرى. أمامك سنة جديدة أخرى. اجمع فيها قواك وضع ثقتك فيَّ وحاول. دعونا نستجمع قوانا ونقول كما قال بطرس: «على كلمتك ألقي الشبكة. بناء على بشارتك سأحاول مرة أخرى. سأستغل هذه السنة، وسأومن أنها بداية جديدة، بداية جديدة مع الرب، ومعكِ أيتها الطائفة، ومعكِ أيتها العائلة، ومعكَ أيها الشعب، ومعكَ أيها العالم».

عندما خرجت كاثرين من باب الكنيسة كان الجو باردا كأنه يوم في بدايات خريف «يوركشير». تنفست عميقا ونظرت من الباب المفتوح تنتظر ظهور يوسف. تلفتت حولها تتأمل المصلين الذين خرجوا مثلها إلى الساحة، تداخل كلامهم مع صدى الترنيمة في أذنيها. لم تعرف إن كان هواء الليل هو الذي يردد رجع الصدى، أم أن اللحن يأتي من دماغها!

هذي يا ربي كل حياتي
هذي يا ربي كل أفكاري
اختبرني واعرف قلبي كي أحيا دائما
دائما أحيا دائما دائما في رضاك...

فتحت صدرها لموجات متتالية وقوية من الهواء المشبع برائحة البحر القريب ورفعت وجهها نحو السماء.

خرجت من الباب مجموعات أخرى من الناس، ولمحت يوسف يمشي في طرقة الكنيسة متجها نحوها، ثم يتوقف للسلام على امرأة عجوز وزوجها.

كان شكله غريبا بعض الشيء في البنطلون الأسود والقميص الأبيض ذي الياقة الصغيرة المنشاة حول رقبته. لكن ذقنه الذي توقف عن حلاقته منذ أسبوعين تعجبها، سوف تطلب منه أن يطلقها. فيه شبه من الوجوه في أيقونات الكنيسة. ابتسمت للخاطر وليوسف الذي كان يخطو نحوها الآن و...

شعرت كاثرين في تلك اللحظة بالهواء كأنما ينضغط ويصبح أكثر سخونة، أحست به يثقل فجأة كأنه تحول إلى أحجار تحاوط جسدها وتغلق أذنيها.

هل هذا صوت دوي هائل، أم صوت سكون مطبق؟

لقد صمَّ الصمت أذنيها، كأنما شكَّل في ثوانٍ طبقة عازلة حولها

فانكتم صوت الترنيمة وسكتت أحاديث الناس، حتى صوت الهواء توقف، ثم رأت كاثرين امرأة «هيرقليون». ظهر وجهها المبتسم قليلا في الهواء، بذاك الرأس الذي يغطيه إكليل الطحالب وعظام وجنتيها البارزتين وعينيها اللتين تنظران إلى شيء في الأفق والشفتين اللتين على وشك النطق بأحد الأسرار.

على الرغم من أن كل ما حدث لم يتعدَّ ثوانيَ، فإن كاثرين شعرت بالزمن يبطئ، ويبطئ أكثر كأنما يفكر مع نفسه هل يتوقف أم لا، بينما الوجه الذي بقيَ في البحر لألف وخمسائة عام يقترب منها بهدوء، يزداد اقترابا حتى يصبح في مواجهتها تماما. ثم شعرت بشيء كأنه موجة هائلة تغمرهما معا، تلفهما معها وتهبط بهما إلى القاع ثم تندفع إلى فوق، تنفلت من جسد البحر وترتفع لأعلى. تتفتت الموجة، تتطاير زذاذا خفيفا يمتزج بدفقات الهواء التي تعلو وتدور، ثم يهوي الرذاذ على مهل نحو الأسفل.

كانت الكنيسة تبتعد وأنوارها تخفت كأنها تغطس في موجة كثيفة من الضباب، ويصبح الهواء مالحا وأكثر برودة.

٤٨

في الحادية عشرة من مساء أول أيام العام فتحت مريم باب البيت ونزلت مع أمينة درج السلم ببطء.

كان شارع بورسعيد يضج بالحياة كأنها الثانية ظهرا، لكن أنوار المحال وأصوات السيارات والأغاني والمتسامرين على المقاهي جاءتهما كأنما عبر حاجز مطاطي سميك. عند انحرافهما يمينا إلى الدرب الأحمر، بدأ الصخب يخفت في هدوء.

لقد مرَّ اليوم ببطء سلحفاة عجوز وعينا مريم لم تفارقا أمينة التي ظلت جالسة في مكانها كالتمثال، لم تبكِ ولم تنطق حرفا ولم تحول عينيها عن الفراغ أمامها، بدا أنها لا تشعر حتى بوجود مريم بجانبها.

في إحدى لحظات النهار، تلفتت مريم حولها. صالة البيت هذه كانت بالأمس تردد ضحكة ظاظا العالية وهي تُصر أن يطفئ شمعة التورتة الصغيرة مع دقات الثانية عشرة، صوت أم محمود وهي تدخل بصينية بسبوسة وتوصي أمينة أن تحفظ للـ«آنسة الصغيرة» نصيبها، فرقعة الصواريخ التي أطلقها أطفال الحارة في سماء السيدة زينب والأغاني على القهوة. تبدل الحال بعد منتصف الليل بقليل، ارتفعت نبرة ترقب وقلق وتداخلت أصوات النساء: هل تعرفين يا أمينة كم عدد كنائس الإسكندرية؟ أعطني رقم يوسف. ألم تذكر كاثرين اسم الكنيسة؟ يا أمينة، لا داعي للقفز

فوق الأحداث! وأنتِ يا ظاظا توقفي عن قراءة الأخبار على الزفت الإنترنت! أغلقي هاتفك الآن! اسم كاثرين لن يظهر في الأخبار فهو غير موجود في السجلات البريطانية. هواتف كاثرين ويوسف مغلقة...! ثم حلَّ الصمت، لم يعد تُسمع في البيت إلا نهنهات أم محمود الخافتة وهي تتربع على الأرض تمسك رأسها المنكسة بين كفيها.

مرت ساعات الليل وجاء الفجر ومن بعده نهار أول أيام العام، مرَّ الوقت كأنه ضيف سمج لا ينتوي الرحيل. وقفت مريم طويلا وراء نافذة الشرفة تنظر إلى السماء ثم تعود بعينيها إلى أمينة التي جلست على الكنبة بلا حراك، ملامح وجهها ثابتة كأنما داخل لوحة مرسومة بخطوط الفحم على خلفية بيضاء. بين حين وآخر كانت مريم تذهب للجلوس بجانبها وتمسك بيدها الساكنة، أو تذهب إلى المطبخ لتأتي بعصير ليمون حلته بالعسل وتقربه بهدوء من فم أمينة. أحست مريم بقلبها ينفتح على مصراعيه كي يستقبل الحزن المندفع نحوها بقوة سيل جارف، لكنها لم تنجرف، لم يكن يشغل بالها إلا أمينة.

في العاشرة مساء اقتربت مريم من أمينة وقالت: «تعالي ننزل. قومي نمشي شويه». أدارت أمينة وجهها إليها، نظرت مريم إلى عينيها فبدا لها كأن أمينة في عالم آخر. ضغطت مريم يدها برفق وكررت ما قالته. ردت أمينة بصوت سمعته مريم بالكاد: «بين القصرين. نروح بين القصرين». هزت مريم رأسها، فلنذهب إلى

بين القصرين أو إلى الجحيم يا أمينة. قومي.

عند وصولهما إلى باب زويلة وانحرافهما يسارا إلى الغورية، كانت أضواء شارع الفحامين قد خفتت والجلبة اختفت، لم يبقَ إلا صوت وقع الأقدام فوق بلاط الشارع الضيق وهمهمات بعض السائرين. التفتت مريم إلى يمينها، إنه حي السكرية حيث بيت آل شوكت الذي عاشت فيها خديجة وعائشة. نظرت إلى أمينة، وأمينة هزَّت رأسها وقالت: «نقرا لهم الفاتحة. الحي منهم والميت»، واستكملت المشي.

ضمت مريم ذراع أمينة تحت ذراعها ومشت على مهل. لم تلقِ بالا إلى رائحة قمامة آخر الليل التي تجمعت في أكوام على جانبي شارع الغورية. انصب تركيزها على أماكن الحفر الصغيرة بين بلاطات الشارع غير المستوية وأقدامهن اللاتي تشق طريقها نحو شارع الأزهر. أحست بيد أمينة باردة كالثلج فضمتها في كفها. في عتمة المساء تتالت الصور في دماغ مريم: أمينة في بيت الروضة وهي تقلّب القهوة فوق السبرتاية ومن خلفها نور الصباح، كراس يومياتها في الشرفة وصفحاته يقلِّبها الهواء، يد أمينة القوية تدور باللوفة الخشنة فوق ظهرها في بيت السيرينت وهي تغني للورد الأبيض الذي غار النسيم منه، عيناها تدوران بين أرفف مكتبة أبيها تبحث عن كتاب، ابتسامتها وهي تخبر يوسف «طالما عايشين، نعيش». أحست مريم كأنها ترى أمينة للمرة الأولى، تراها في ذاتها بعيدا عن وشيش دماغها. شعرت بقلبها الذي انفتح لتلقي الحزن

منذ ساعات يسبح في بحيرة صغيرة من الامتنان. انزلقت دمعة فوق وجهها.

تركتا وراءهما محال العطور المفتوحة عند التقاء شارعي المعز والأزهر، وتقدمتا نحو النحاسين. أطلت عليهما المشربيات وجدران الجوامع العالية وبضعة طيور حطت فوق شرفات المآذن. لقد مشوا مدة طويلة ولا شك أن أمينة متعبة. هل تسألها مريم لو كانت بحاجة إلى بعض الراحة؟ لكنها لم تنطق. قادت أمينة إلى دَرَج جامع السلطان قلاوون وأجلستها، قالت: «هاروح أشتري لنا عصير». رفعت أمينة رأسها كأنها على وشك أن تقول شيئا، ابتسمت مريم تطمئنها: «مش هاجيب «عصير العلب المقرف»، ما تقلقيش». تحركت في الشارع تبحث عن محل لا يزال مفتوحا. أحست مريم بقدميها وهما تتحركان فوق الأرض، خطوة بعد خطوة، وبالدفء يسري من قدميها إلى أعلى، نحو صدرها الذي انفتح لهواء الليل البارد. عَبَرَ وجه ناجي أمامها فأبطأت. نظر في عينيها وابتسم ثم اختفى. ارتعشت ابتسامة فوق شفتيها وهي ترفع يدها قليلا. مع السلامة يا ناجي. أنا أحبك.

في محل العصير تردد صوت عبد الوهاب في سماعات صغيرة. طلبت مريم كوبين من عصير القصب ولم تحاول إخفاء عينيها عن العجوز الأسمر الذي وقف خلف الرخامة العريضة ينظر نحوها. كانت على وشك أن تطلب منه أن يضع العصير في كوبين من البلاستيك لأنها لن تشرب هنا، لكنه وضع أعواد القصب في

العصارة وصب العصير سريعا ودفع بالكوبين الزجاجيين نحوها وهو يقول: «اشربوا وابقوا هاتوا الكبايات براحتكم». نظرت إليه مندهشة ومن بين دموعها ابتسمت. في طريق عودتها رأت أمينة من بعيد. كانت تجلس أعلى الدرج والسبيل يرمي فوق جسدها الغارق في العتمة أنوارا ملونة. صعدت مريم ووضعت الكوب في يد أمينة، أحكمت الشال حول رقبتها وجلست بجانبها.

قالت أمينة وهي تنظر أمامها: «من يومين شفت كاتي وعيشة وليلى، كانوا طيور!».

رأت مريم وجه كاثرين في خيالها، كانت تضحك وهي تزيح شعرها الأسود من فوق جبهتها وتمسح العرق. شربت آخر رشفات من الكوب وهي تنظر إلى الطريق أمامها، وتناهى إلى سمعها صوت عبد الوهاب يأتي من محل العصير.

عشان تحرمي تاكلي جلاس وتدوِّبي في قلوب الناس

وعرفت منين؟ ترا لم طم طم

رددت مريم مع عبد الوهاب: ما تعرفيش إني أقدر أقرا أفكارك ترا را تا.. تا.. ومن عينيكي أقول لك كل أسرارك؟

ابتسمت أمينة ونظرت إليها.

حكيم روحاني حضرتك؟

حكيم عيون أفهم في العين وأفهم كمان في رموش العين

لم تلبث ابتسامة أمينة أن اتسعت وهي تنظر لمريم تقلد امتعاض راقية إبراهيم «إنتَ كل حاجة تحشر نفسك فيها حتى قلبي!»، ثم تنتقل إلى لوعة وانكسار عبد الوهاب «يا ريتني صحيح أقدر أكشف قلبك وأسأله ع اللي في بالي». ضحكت أمينة فأحاطتها مريم بذراعها وهي تبتسم.

عندما انتهت الأغنية جلستا تنظران أمامهما. أحست مريم بصمت لطيف يملأ رأسها، كأنه قد خلا في تلك اللحظة من الجلبة والأصوات التي استعمرته طويلا. في هذا السكون العميق لم تعد هناك مريم وأمينة. كانت هي أمينة.

قالت أمينة: «الوقت اتأخر، يالّا بينا على بين القصرين».

أمسكت مريم بكوبي العصير كي تعيدهما إلى المحل. عندما وقفت لمحت امرأة نحيفة تقترب، الضوء الآتي من خلفها يجعلها تبدو مثل خيال الظل، قالت: «بصي يا أمينة ع الست دي، من بعيد مش تشبه فيرجينيا وولف؟»، وضحكت. نظرت أمينة إلى حيث أشارت مريم وقالت: «يا بنتي هو أنا شايفه إيدي في الضلمة دي!». ابتسمت مريم وبدأت تهبط الدرج وهي تمسك بيد أمينة. لكن أمينة تسمرت وهي تنظر نحو المرأة، قالت: «تكونش هي الست فيرجينيا يا مريم؟». ضحكت مريم كأن أمينة قد ألقت إحدى نكاتها، ثم عادت بعينيها إلى المرأة في نفس اللحظة التي سقط فيها نور المسجد فوق وجهها.

«يا أهلا يا أهلا...».

علا صوت أمينة بترحاب أقرب للنداء. توقفت المرأة عن المشي والتفتت، ثم تحركت نحوهما بخطوة مترددة ووقفت أسفل السلم تدقق النظر.

نزلت أمينة درجتين، أمسكت بيد المرأة واصطحبتها إلى أعلى. أجلستها على السور الحجري وهي تربت كتفها وتحمد الله على سلامتها. كانت فيرجينيا شاحبة الوجه وزائغة البصر، بدا عليها أنها تحاول التركيز. أمسكت برأسها وضغطت جانبي جبهتها كأنها تهدئ من ألم الصداع. عندما تكلمت خرج الكلام خافتا ومتقطعا. الأصوات..! كانت الأصوات واضحة وحادة في الفترة الأخيرة، أسمعها في رأسي طوال الوقت، بالأمس سمعت أجراس كنيسة وصوت انفجار وشعرت كأنني عدتُ إلى لندن عام ١٩١٧ وقت الحرب. كان عليَّ أن أكتب حتى أتخلص من هذا الضجيج. كنت أكتب بجنون وبلا توقف، لا أعرف حتى أي وقت قضيته وأنا على هذا الحال، كأنني فقدت الشعور بالزمن.. أصبحت أنسى متى تناولت الطعام آخر مرة ومتى نمت بضع ساعات. لا أتذكر ما حدث، يبدو أن رأسي سقط فوق الأوراق من التعب. ربما نمت قليلا... لا أعرف...!

حاولت أمينة أن تهدئ من روعها. فتحت حقيبتها وأخرجت زجاجة مياه وأعطتها لها. قالت برفق: «ما تتكلميش كتير. لما تاكلي وتنامي نبقى نتكلم».

يبدو أن فيرجينيا قد لاحظت وجود مريم للمرة الأولى. نظرت

إليها بتمعن كأنها تحاول أن تتذكر أين رأتها.

قامت مريم من جلستها، وقامت أمينة وهي تمسك بذراع فيرجينيا في رفق تقود خطواتها فوق الدرج. أوضحت أمينة أنها قد جاءت إلى هنا وقد عقدت النية على زيارة بين القصرين حيث كان بيتها، لن تطول الزيارة فالبيت قد راح لحاله، لكل شيء أجل وكتاب. إنها لا تعرف لتلك الرغبة سببا، لكنها لم تعتد مساءلة قلبها، وهل نسأل أنفسنا عن الميل والهوى!

في الثالثة صباحا، مشت النساء الثلاث ببطء في الشارع الضيق الذي بدا كنفق طويل ملتوٍ.

كان نور الشارع يأتي من خلفهن، وهو ما جعلهن يبدون كخيالات ظل تتحرك في شارع النحاسين نحو السبيل على ناصية بين القصرين. وردد هواء الليل أطراف كلام وجملا متداخلة لم يسمعها إلا بعض المشربيات الساهرة وطيور كانت تحوّم فوقهن وتحط فوق الحيطان.

أنتِ جائعة بلا شك. مريم وأنا لم نأكل من يومين.

كنتُ أكتب يا أمينة وسمعت صوتك تغنين بالقرب من النافورة، عندما نظرت من النافذة، لم أرَ أحدا. لكنني اعتدت على التهيؤات.. في هذا الجنون أعثر على معظم الأشياء التي أكتب عنها..

تقابلنا عند البحيرة، لكني لم أفتح فمي بكلمة واحدة، كان في

رأسي جيش من النمل..
عزيزة بخير لكنني لم أرَ ليلى منذ فترة. يبدو أن كلتيْنا مشغولة.
السيدة زينب، هناك نسكن..
هل هذه رائحة مسك يا أمينة..؟
هل رأيتِ كاتي هناك؟ نعم، بنت إرنشو...
مدد.. مدد يا حسين ويا أم هاشم مدد...